

OL/W
BL
51
T23



CORNELL
UNIVERSITY
LIBRARY



CORNELL UNIVERSITY LIBRARY



3 1924 059 127 799

DATE DUE

~~MAY 16 1984~~

MAY 16 1984

GAYLORD

PRINTED IN U.S.A.

PL+O
2/83

قصة
المنزاع بين الدين والفلسفة

تأليف

الدكتور نؤفوس الطويل

مدرس الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

الناشر: مكتبة الآداب بالجاميزت ٤٢٧٧٧

بمصر



B999616 NK
55



« فأما الزبر فبذهب مفقود، وأما ما ينفع الناس فبجئت في الأرضه... »
« قرآن كريم »

« ليس خطابي في هذا الكتاب لجميع الناس ،
« بل خطابي لرجل منهم يوازي ألوف الرجال ،
« بل عشرات ألوف الرجال ، إذ كان الحق
« ليس هو بأن يدركه الكثير من الناس ،
« لكن هو بأن يدركه الفاضل الفهم منهم »

ابن الهيثم — آخر ما وجد مكتوباً
بخطه في مذكراته الشخصية

« لا يكتب إنسان كتاباً في يومه ، إلا قال
« في غده : لو غُيِّر هذا لكان أحسن ،
« ولو زيد هذا لكان يستحسن ، ولو قُدم
« هذا لكان أفضل ، ولو ترك هذا
« لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر ، وهو
« دليل على استيلاء النقص على جملة البشر »

القاضي عبد الرحيم البيهقي في اعتذاره للعماد
الكتاب الأصفهاني ، عن كلام استدركه عليه

مقدمة الكتاب

إمكان الجمع بين الفيلسوف والدين — لا يستقيم النضج العقلي بغير حرية فكرية — العداوة مع اللاهوت وليس مع الدين — متى قام النزاع بين العقل والإيمان طوال التاريخ — اضطهاد الفلاسفة في الإسلام — موقف الدين من اضطهاد العقل — كلمة في علاجنا لموضوع الكتاب — خلاصة هذا الكتاب وعلاقته بكتابنا عن الاضطهاد — كلمة أخيرة .

امطالع الجمع بين الفيلسوف والدين :

جدد التفكير الفلسفي بعد اليونان أجيالاً طويلاً ، خضع فيها لسلطان دين قسري قد استبد هوأه بقلوب الناس واستأثر بعقولهم ، ولما أقبل عصر النهضة كان العقل قد بدأ يستيقظ ، وكادت حركة التحرير أن تقوِّض سلطان الدين ، وتعصف بتقاليده وتحتاج نفوذ رجاله ، فلما أشرق العصر الحديث في مطلع القرن السابع عشر ، نزع العقل الجديد إلى إنشاء فلسفة عقلية مبتكرة ، ومن هنا ظن الذين تخدمهم الظواهر ، وتستخفهم النظرة العاجلة ، أن العالم الأوربي قد أخفق في إبداع فلسفة جديدة ، حتى تيسر له التحرر من سيطرة الدين ونفوذ تقاليده .. ولهذا الحكم دلالاته على نهوض الاستقراء التاريخي ، شاهداً على قيام التعارض بين الدين والفلسفة ، وتعذر الإنتاج العقلي الناضج ، مع الإيمان بالوحي الديني ومقتضياته ! أي أن الفيلسوف يقتضي الإلحاد ، والإيمان يمنع الابتكار ! كما قلنا في مستهل حديثنا عن فلسفة القرن السابع عشر .

وفي ضوء هذه النظرة ، أصبح من المساغ أن يرد الباحثون « الأصالة » ، وoriginalité في الفلسفة اليونانية ، إلى استقلالها المطلق عن كل دين ! كما قرر ساتنهاير ، وأن يرجعوا « عبقرية » اليونان إلى ما تهبأ لهم من حرية واسعة النطاق في مجال الدين والسياسة معاً ، كما قال لثنجستون — وقد عرضنا رأيهما بشيء من التفصيل ، في الفصل الذي عقدناه على « العقل والإيمان ، في فلسفة اليونان والرومان » .

وإذا جاز أن يصدق الرأي الذي أيده أمثال هؤلاء الباحثين في أصالة التراث اليوناني ، فإن صدقه لا يبنى خطأ الوهم القائل بأن التفلسف يقتضي الإلحاد ، وأن الإيمان يمنع الابتكار والإبداع !

وسنرى في دحض هذا الوهم ، أن حركة التحرر من الدين ، كانت عنيفة واضحة في عصر النهضة ، ومع هذا التحرر الذي أوغل فيه المفكرون إلى أقصى أماده ، لم يستطع مفكرو ذلك العصر ، أن يسدعوا فلسفة جديدة مبتكرة ، وظل التفكير الفلسفي عندهم ، نزاعاً إلى إنشاء العلم الطبيعي ، ميالاً إلى ابتعات المذاهب الفلسفية القديمة . . . ! أما الفلسفة المبتكرة حقاً ، فلم تولد إلا في مطلع العصر الحديث — في القرن السابع عشر . . . الذي اشتد فيه الإيمان بشريعة العقل ، مع الإبقاء على قدسية الدين وحرمة تعاليمه . . . وكانت فرنسا في قرنها السابع عشر ، أصدق مثال للتعبير عن هذه الظاهرة ؛ فقد كانت روح النهضة على تنافر ملحوظ مع روح العصر الوسيط ، لأن حركة البعث قد أعلنت صوت العقل ، الذي كان قد خبا في العصر الوسيط ^(١) ، وسار في ركاب الوحي ، فجذت الفلسفة الفرنسية في القرن السابع عشر ، في إزالة هذا التنافر ، وحاولت أن تقيم التوازن بين مقتضيات الطبيعة وأوضاع الإيمان الديني ، وجمعت بين التسليم الملحوظ بسلطان العقل ، والإيمان العميق بوحى المسيحية ، فيما يقول پاروي على ما سنعرف بعد . وكان هذا هو معقد الطرافة في فلسفة هذا القرن ، كثرت فيه محاولات التوفيق بين الفلسفة والدين ، وبدت عندما البرانش في فرنسا ، وسبينوزا في هولنده ، وچون لوك في إنجلترا . . . ! ولم يكن تلاقي العقل الفلسفي والإيمان الديني في هذا القرن عقياً مجدداً ، بل تكشّف عن إبداع فلسفي خليق بكل إعجاب . . . وإذا كنا تثبت بهذا فساد القضية التي تقول إن التفلسف يقتضي الإلحاد ، ولا يستقيم مع الإيمان ، فلسنا نعتقد بصحة العكس ، أي أن الإلحاد يمنع التفلسف ! وإنما يزيد أن نقول إن

(١) هذا حكم عام ، يقصد مؤرخو الفلسفة بتعميمه ، الحكم على الجو العقلي في هذه العصور . قيساً به في غيرها ، مع علمهم بنوع الحركات العقابية في أواخره ، وازدهار التفكير الفلسفي في القرن الثالث عشر بوجه خاص .

في الإمكان أن نجمع بين الإذعان لمنطق العقل ، والإيمان العميق بوحى الدين ، بل يستطيع الإنسان أن يكون فيلسف فأهدأ مع وفائه لعقيدته الدينية وإيمانه بوحىها . . ! وقد يتحقق له ذلك مع إلحاده — على غير ما يرى ديكرت . . ! هذا في مجال الفلسفة العقلية المحضة ، ناهيك بالفلسفة الدينية العميقة ، التي مثلها أمثال القديس توما من المؤمنين المدرسين في أوربا ، وعلماء الكلام في الإسلام . . ! فإن في هؤلاء يكتمل الجمع بين الفيلسوف الصادق والتدين العميق .

لا يستقيم النضج العقلي بغير حرية فكرية :

على أن تسجيل هذه الظاهرة ، يقتضى الإشارة إلى ظاهرة أخرى ، لها خطرها في هذا الباب ، ذلك أن استقرار تاريخ الفلسفة مع الدين يقول : إن التفكير الفلسفي قد نضج أيام اليونان ، لقدشادوا فلسفة ضخمة في وقت كانت فيه حرية النظر مكفولة لكل مفكر ، ثم ركبت ربح الفلسفة — المستقلة عن الدين — وجمدت تياراتها في العصور الوسطى ، حينما اجتاحت فيها نفوذ السلطات الدينية حرية التفكير ، وشل حركة العقل وأوقف نشاطه ، وهم العقل المستقل بأن يستيقظ في أواخر تلك العصور — حين طال سباته ، وكان هذا في وقت ظهرت فيه محاولات التحرر من رق السلطات الدينية ! وكلما تخلص من سيطرة هذه السلطات ، واتسعت آفاق حريته العقلية ، كان تفكيره أتم وأكمل وأكثر نضجاً ! ومعنى هذا أن السلطات الدينية حين تهيمن على عقول المفكرين ، وتفرض رقابتها الجائرة على تفكيرهم ، تشل حركة العقل ، أو تضعف من قدرته على الإنتاج على أقل تقدير ! واستقراء تاريخ العلم والدين يقول : إن رجال اللاهوت المتعسف عند المسيحيين ، وغلاة المتعصبين من المسلمين ، أولئك الذين أبوا إلا أن ينجسوا على تفكير الناس ، ويقيموا أنفسهم أوصياء على عقولهم ، قد أساءوا إلى الدين وتعاليمه السمحاء ، بمقدار ما أساءوا إلى الفلسفة والعلم معاً !

هذا كلام مجمل لا يحسن الإسهاب الآن في تفصيله ، فالكتاب كله قد وضع لشرحه وتفسيره ، في ضوء المعروف من تاريخ الفلسفة — منذ أقدم عصورها إلى يومنا الراهن !

المراء مع اللاهوت وليس مع المبرين :

وبذكر الظاهرتين اللتين أسلفنا ذكرهما ، نقول إن « جون وليام درابر »
J. W. Draper قد أخطأ حين وضع كتابه عن « تاريخ النزاع بين الدين والعلم »
وتحدث فيه عن اللاهوت ، وكأنه الدين المسيحي المنزل ! ورد ذلك النزاع إلى
الخلاف بين طبيعة الدين وطبيعة العلم ، من حيث إن الدين بطبيعته يمتاز
بالثبات والاستقرار ، والعلم بطبيعته يمتاز بالتجدد المستمر والتغير المتصل ،
أخطأ « درابر » ومن جرى مجراه لأن الخلاف الذي يذكرونه من حيث
ثبات الدين وتجدد العلم ، لا يفضي إلى النزاع الدامي ، ولا يستتبع الاضطهاد
الآثم ، ولا يستلزم التنكيل الجائر ، الا متى امتلأ قلب المؤمن الديان تعصباً
وجموداً ، وتهيأت له سلطة دنيوية تمكنه من اجتياح خصومه والتنكيل بهم في
غير رفق ولا هوادة .

ومن هنا كان « بيوري » J. B. Bury على حق ، حين ردّ في كتابه عن
« تاريخ حرية الفكر » أكبر نصيب في تبعة هذا الاضطهاد الآثم إلى « السلطة
الزمنية » التي تهيأت لرجال الأكليروس ، ومكنتهم من اجتياح خصومهم
ومحاولة القضاء على آرائهم... وصدق « أندرو ديكسون هوايت » A. D. White
حين عرض في سفره الضخم بمجلديه عن « تاريخ النزاع بين اللاهوت والعلم » إلى
رد النزاع بين الإيمان والعقل ، إلى اللاهوت المتعسف Dogmatic Theology
وليس إلى الدين السامح ، فبرئت بهذا ساحة الدين من آثام غلاة المتعصبين
من رجاله .

بل من الإنصاف أن نرد فظائع المسيحية التي تضمنها هذا الكتاب ،
إلى المتزمتين من جهال رجالها في الغرب ، أما مسيحيو الشرق - وهم الذين يقيمون
بين أورشليم وما بين النهرين - فقد برئت ساحتهم من التعصب حتى أبوا تأييد
مسيحي الغرب في حروبهم الصليبية التي آثاروها في وجه المسلمين ! على أن

مقاومة هؤلاء المتعسفين للفكر الحر ، قد عاقت نضج العقل وكفلت ركوده
أجبالاً طوالاً - ومن الخير أن نرجى الآن الحديث عن علاقة الدين
باضطهاد الفلسفة ، لأننا سنعود في الفصل التالي والفصل الرابع ، إلى مناقشة
هذه العلاقة وبيان ما قيل بصددتها تأييداً ودحضاً .

منى قاصم النزاع بين العقل والوحي طوال التاريخ :

والحديث عن الظاهرتين السالفتين ، يقتضى الحديث عن ظاهرة ثالثة ،
هى أن استقرار تاريخ العقل مع الإيمان ، يقول إننا لانعرف نزاعاً قام بينها
وأفضى إلى استعباد العقل وجندلة أهله ، إلا إذا اجتمع أمران يدور اجتماعهما
مع النزاع وجوداً وعدماً ، أولهما أن تهباً لرجال الدين سلطة تمكنهم من
اضطهاد العقل وإبداء رواده ، فان أعوزتهم السلطة ، قنعوا بالغبية ، وانتقموا
بالنميمة ! أو لاذوا بالعقل وجاروا خصومهم فى الاحتماء بشريعته - كما وقع
فى انجلترا إبان القرن السابع عشر والثامن عشر - فلا يلبث منطقهم ، حتى
يشير الشقاق فى معسكرهم ، ويفت فى عضد دعوتهم !

وثانيهما : أن يوجد عقل يقوى على اقتحام منطقة الحرام ، وارتداد
آفاقها ، والانتهاه منها إلى اكتشاف مجهول أو إنكار مألوف ، وعندئذ يصبح
بفضل جرمته ويقظته ، أهلاً لاضطهاد خصومه ! وبغير اجتماع هذين العاملين
لا يقوم بين العقل والإيمان نزاع ، تلك سنة جرت فى تاريخ الفكر منذ
أقدم العصور :

فند فجر الفلسفة فى القرن السادس قبل الميلاد ، نهض العقل اليونانى قنيا
جريثاً ، لم يسكن تحت وصاية دين منزل ، ولم يواجه نظاماً كهنوياً يمكن
قساوسته من قمع الفكر الحر ، فكاد عهد اليونان أن يخلو من نزاع يقع بين
العقل والإيمان .

فلما نزل الوحي بدين جديد ، يوضح تعاليمه كتاب مقدس ، لم تسكن السلطة

فضلاً عن اضمحلال العقل الروماني يومذاك - قد تهيأت لرجال الدين الجديد، فلبث الجو في صفاء، ومنذ القرن الرابع بدأت هذه السلطة تهيأ لرجال الأكليروس، وسرعان ما أصبح في مقدورهم أن ينالوا من خصومهم شر منال، ولكن العقل الأوربي كان واهناً قد طمست الشيخوخة عبقريته، وأفقدته القدرة على اقتحام المضاعب، فاستطاب الاستعباد قروناً وأجيالاً، حتى إذا انصرم عصر الآباء، وشطر من العصر المدرسي، دبت إليه اليقظة وانبعثت فيه فتوة الشباب، وهم ياعلان تمرده على خصومه من رجال الكهنوت، فحاسته السلطات الدينية عمى أن تلين قناته، فلما جهر بالعناد، تأهبت لتزاله وأجمعت أمرها على دحره، اتقاء لما تنتظره من شره . . !

ولكن الصراع لم يبد عنيفاً حامى الوطيس إلا في عصر النهضة، حين اكتملت أسباب اليقظة والجرأة، إذ عكس هذا العصر آية العصر الوسيط، احتوته الثقة بالعقل، واستغرقه حب الاستطلاع الحر، واشتد كلفه بالعلم وحبه للجمال وسائر لذات الحياة، وقوى نزوعه إلى تبرير الشهوات، ونبذ العقائد المتعسفة، والخروج على التقاليد المألوفة والمبادئ المرعية، فأطلق الشهوات من عقابها، وتمرد على تقييد الحرية في مجال الأخلاق والآداب، وفي ميادين العلم والفن والفلسفة جميعاً، وأعلى صوت العقل على صوت الوحي وبهذا كله اتسعت هوة الخلاف بين صوفية العصر الوسيط وإباحة عصر النهضة، فلم يكن من الميسور للسلطات الدينية أن تصطبر على أتباع هذه الحركات، أو أن تهضم ما انتهى إليه أهلها من وجوه النظر، فأشفقت على الدين أن تأتي عليه هذه النزعات الجائحة، وعلى نفوذها أن تعصف بهجمات أتباعها، فنزعت إلى اضطهاد العقل ومناصبه أهله العداة، فلما عاند وكابر، وطنت عزمها على أن تصلبه نارها، وانقضت عليه بقوات حشدتها لجندلته وافتراس أتباعه، وكانت محاكم التفتيش - التي نشأت قبل ذلك - عنوان هذه الوحشية الآثمة، فطاردت أحرار الفكر في العالم الكاثوليكي طويلاً وعرضاً،

وأشاعت الفزع في رءوسهم يمينا ويساراً ، وتولتهم بعذاب أهونه السجن
وأخره الإعدام صنوفاً وألواناً !

فلما أشرق العصر الحديث في القرن السابع عشر ، رد التنافر الذي كان
بين روح العصر الوسيط وروح النهضة ، إلى وحدة متسقة ، واتصلت فيه الحملات
الموجهة لتقويض السلطة ، ولكن أكثر الفلاسفة في العالم الكاثوليكي بوجه
خاص - قد جمعوا بين الإذعان للعقل والإيمان العميق بالوحي - على ما أشرنا
في مستهل هذا الفصل - وحاول الكثيرون منهم أن يترضوا رجال الدين ،
ويتجنبوا إثارة الضيق في نفوسهم - عن وفاء لهم أو اتقاء لشرم ! ومع هذا
لبث الصراع قائماً ، لأن رجال الكهنوت ما زالوا أصحاب سلطة ، في وقت
اشتد فيه بأس العقل !

كان ديكارت يجهر في القرن السابع عشر باستبعاد كل سلطة غير سلطة
العقل ، الذي يجعل الحدس المعيار الوحيد لكل حقيقة ، ولكنه مع إيمانه
بالعقل قد غلب صوت الوحي على صوته ، وجعل العقيدة الدينية فوق متناوله ،
لأن البحث فيها لا يكون إلا بمدد خارق من السماء ! وشاع المذهب العقلي في
فرنسا طويلاً وعرضاً ، فاذا أقبل القرن الثامن عشر ، استبد هذا المذهب بهوى
المفكرين ، فأوغلوا فيه إيفالاً انتهى بإخضاع الوحي الديني لمنطقه ! وسرعان ما
انتهى بهم هذا الغلو إلى الجهر بمعادة الدين المنزل ، والميل إلى تقويض
الوحي والسخرية من نفوذ رجال الأكليروس ! وكان فولتير وغيره من
رجال دائرة المعارف ، « وهولباخ » وغيره من غلاة الماديين في طليعة هذه
الحركة ، وكان طبيعياً أن تضيق السلطات الدينية بهذا الجحوش ، وتتصدى
لمقاومته ، ولكن نفوذها كان قد تضائل حتى عزلها أن تنكل بهؤلاء الخصوم
وتلوث تاريخها بدمائهم . . . !

وقد كانت إنجلترا تدين بالمذهب البروتستانتي ، وقد واصل الفلاسفة فيها
حملاتهم على السلطة - مع استثناء هوبز الذي أراد أن ينقلها من رجال الدين

إلى رجال السياسة - كانوا طوال القرن السابع عشر والثامن عشر ، يزعجون إلى النساحى بالعقل وتمجيده على حساب السلطة الدينية ، ولكنهم كانوا فى حملاتهم على اللاهوت ، يتظاهرون بالاعتقاد فى صدق الأفكار التى يتحرون هدمها ، ويزعمون أن تأملاتهم العقلية لاتسى إلى العقيدة الدينية ، كانوا ينظمون عقود المديح للدين ، فى نفس الوقت الذى يضعون فيه آراء لاتجربى على وفاق مع تعاليمه ! وقد آمن أكثرهم بالدين الطبيعى الذى يميزه قيام إله اهتدى إليه العقل بفطرته ، من غير حاجة تدعو إلى الإيمان بالوحي المنزل والرسل والكتب المقدسة ! كانت هذه الدعوة الجارفة خليقة بأن تلقى من السلطات الدينية كل عنت ، ولكن نفوذها فى ظل البروتستانتية كان ضئيلا ، فلجأت إلى الخيلة ، واعتصمت بشريعة العقل وراحت تحارب خصومها بسلاحهم ، ولم يجرؤ رجال الدين على أن يقولوا إن العقيدة الدينية فوق متناول البحث العقلى ! فلما اشتد بهم ضغط خصومهم ، لجأوا إلى التوفيق بين وجهات النظر عند المعسكرين - وإلى مثل هذا التوفيق فى مثل هذه الظروف ، كان اتجاه رجال الدين فى كل زمان ومكان ! - وأعلنوا أن مكتشفات العقل تؤيد الدين وتوطد دعائمه ! وبدأت حركة تأويل النصوص المقدسة ، حملت فيها الألفاظ ما لاتطبق ، لتتسجم معانى النقل مع حقائق العقل الجديد ؛ ولكن العقل حين انتقل إلى معسكر خصومه - من رجال الكهنوت - قد انقلب عليهم وفست فى عضد دعوتهم ، إذ أثار الشقاق فى معسكرهم ، وشدت جموعهم وجر الكثيرين منهم إلى مهاوى الهرطقة !

بين النزاع فى إنجلترا التى اعتنقت البروتستانتية ، والنزاع فى فرنسا التى دانت بالكاثوليكية ، تفاوت ملحوظ ، مرده إلى مدى السلطة التى تهيأت لكل منهما ، ومبلغ النزوع إلى الحرية عند كل فريق ، كان النزاع فى إنجلترا - فى أكثر حالاته - مقارعة حجة بحجة ، وكاد الاضطهاد الذى أنزله بأحرار

الفكر ذوو النفوذ منهم ، أن يقتصر على مصادرة كتاب أو الأمر بسجن مؤلف أو ناشر ، أو إلزامه بدفع غرامة ، أو إقصائه عن وظيفته . . . إلى آخر ما سنعرف بعد ، ومثل هذا الاضطهاد في جملته ، كان عند المتعصبين من رجال الدين الإسلامي ، أما في العالم الكاثوليكي حيث استحوذت الكنيسة على نفوذ زمني إلى جانب نفوذها الديني ، فقد ارتفع الاضطهاد إلى مرتبة الإعدام بمختلف صنوفه ، ونهضت محاكم التفتيش بمطاردة المفكرين وإثارة الفرع في نفوسهم أنى كانوا ، وكانت قصة هذه المآسي مروعة دامية !

وفي القرن الغابر نستطيع أن نقول على وجه الإجمال ، إن نفوذ السلطات الدينية قد تضائل كثيراً ، وأن الفلسفة من ناحية أخرى قد انتصرت للدين ، وازدادت عن تعاليم الكنيسة ، فعاشا إلى يومنا الراهن في صفاء قلبا يبدو فيه غمام ، ولكن ظهرت موجة من النقد العقلي التاريخي للكتاب المقدس ، ونضج البحث البيولوجي وتقدم البحث الجيولوجي ، فركب العلم رأسه في ذلك القرن وأعلن تمرده على الكنيسة وتعاليمها فناصرته العدا ، وحشدت لمقاومة صلفه قواها ، ولكن تياره كان غلابا ، فأصدر البابا جريجوري السادس عشر ، منشوره الذي دعا فيه إلى مقاومة الحرية في مجال النظر العقلي^(١) . . . وعقّب البابا بيوس التاسع بمنشوره عن خطايا العصر الحديث ، في نزوعه إلى تحكيم العقل ومنع الكنيسة من استئصال الآراء الهدامة . . . إلى آخر ما سنعرفه مفصلاً في الفصل الذي عقدناه على القرن الغابر . وأصدر مجلس الفاتيكان في عام ١٨٧٠ قراره بأن البابا معصوم من الخطأ ! ولكن على غير جدوى ما كان من أمر هذه الجهود العابثة ، لأن القافلة أخذت تسير ، وقد وطنت عزمها على بلوغ غايتها ، وظلت مواكب الأحرار تمضي في طريقها قُدماً يتتابع بعضها وراء بعض ، وتختلف الرجعيون وفاتهم الركب ، فمسكروا حيث

(١) لحسن هذا المنشور والذي يليه « بيوري Bury » كما سنعرف في الفصل الأخير من هذا الكتاب ، وقد قام بتلخيصه كذلك Leky س ٦٩ - ٧٠ من كتابه الذي سيرد ذكره كثيراً ، وقد ورد المنشور كاملاً في Lamennais, Affaires de Rome س ٢١٨ - ٢٥٧

كانوا ، وقد قل عديدهم واضمحلت نفوذهم وتضاءلت آمالهم ، وباتوا يسرحون
الطرف في مواكب العقل الظافر ، فيرتد بصرهم خاسئاً وهو حسير !

هادنت الفلسفة الدين في القرن الغابر ، وانتقل ميدان النزاع إلى مجال
العلم ، فاضطرنا هذا إلى أن نعقد حديثنا في القرن الغابر على النزاع بين
اللاهوت و « العلم » ، وفي القرن الحاضر هادن العلم الدين إجمالاً ، رغم
استمرار الخلاف بين منهج كل منهما ، وساد الصفاء جو العلاقات بينهما وبين
الفلسفة ، فتلاشت بهذا مبررات الحديث عن نزاع في القرن الحاضر !

اضطهاد الفلسفة في الإسلام :

هذا ما كان من أمر العالم المسيحي ، أما عن العالم الإسلامي ، فقد نهض
غلاة المتعصبين فيه بمساعدة العلوم الفلسفية باعتبارها خطراً يندر بتقويض
العقيدة الدينية . . . ! وأذنت الفلسفة في العالم الإسلامي بالمغيب ، بعد حملة
الغزالي التي كسّرت فيها المشتغلين بها ! وتوارت شمسها في الغرب الإسلامي ،
بعد محنة ابن رشد ؛ ويمكن للقضاء عليها المتزمتون من أمثال ابن الصلاح ،
وقد تراوح اضطهادها - بوجه الإجمال - في العالم الإسلامي ، بين إحراق كتبها
وسجن أهلها ، وإصدار المنشورات والفتاوى بتحريم الاشتغال بعلومها ، ونحو
هذا مما شابهه - من بعض الوجوه - اضطهاد البروتستانت للفلسفة في العالم
المسيحي - على ما سنعرف بعد - وهو اضطهاد قد برئت ساحة الدين من
آثامه ، وحمل تبعته التعصب والجهل وضيق النظر عند غلاة المتعصبين .

موقف الربيع من اضطهاد العقل :

حسب الدين الإسلامي براءة من تبعة الاضطهاد ، قوله تعالى في سورة
البقرة « لا إكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي . . . » وفي سورة
الكهف « وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر » !
وحسب المسيحية براءة من تبعات الدم الذي خضب رجال الكنيسة ناربخها به ،

قول المسيح في خطبته على الجبل « سمعتم أنه قيل عين بعين ولسن بسن ، وأما أنا فأقول لكم ، لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن ، فحول له الآخر أيضاً ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً . . . سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك ، وأما أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعينكم ، أحسنوا إلى مبغضيك ، وصلوا للأجل الذين يبغضون إليكم ويضطرونكم لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات . . . » (١)

هذه إشارة خاطفة مجملة ، للتيارات التي استغرق تفسيرها هذا الكتاب ، فمن خطر له أن يعرض لنقدها ، فليترث وليتد ، فقد يجد ما يبررها في مادة الفصول التالية ، ومنهج دراستها ومنطق بحثها .

كلمة في علمنا لموضوع الكتاب :

وبعد ، فقد حرصنا على ألا يكون كتابنا مجرد سجل لما نزل بالفلاسفة من وجوه الاضطهاد . سجناً ونقياً وتعذيباً وإعداماً ، بل توخينا أن نشرح المذاهب التي أثارَت رجال الدين ، وتحرينا أن نبين عن وجوه الخلاف في وجهات النظر عند رواد الفكر الحديث ، وغلاة المتعصبين من رجال الكهنوت (٢) ، وبهذا احتلت أسباب النزاع العقلي المكان الأول في دراستنا ، وغلب الاهتمامُ بها عنايتنا بنتائج هذا النزاع ، وكثيراً ما كان هذا يضطرنا إلى

(١) انجيل متى — الإصحاح العاشر — وقد عالجنا بالتفصيل موقف الإسلام والمسيحية من الاضطهاد في كتابنا « قصة الاضطهاد الديني » .

(٢) أغنانا هذا عن تحديد معنى الدين والفلسفة ، وقد حار العلماء في هذا التحديد على وجه ينقد عنده الاجماع ، أظن مناقشة دوركايم لتعاريف التي قبِلت في معنى الدين في كتابه *Les Formes Élémentaires de la Vie Religieuse* ثم مناقشة أستاذاً الشيخ الأكبر الذي انتهى إليه دوركايم في معجمه الاصطلاحى النقدي لفلسفة ، ومناقشة أستاذاً الشيخ الأكبر مصطفى عبد الرازق لتعريف لالاند في كتابه « الدين والوحى والإسلام » والخلاف في معنى الفلسفة أشهر من أن يذكر ، فحسبنا مفهوم اللفظين ، مع العناية بشرح المذاهب التي أثارَت رجال الدين وأغرقتهم باضطهاد الفلاسفة .

الاستطراد في شرح المذهب طويلا ، ليضح مكان الخلاف ، وتتكشف
مبررات الاضطهاد .

وعلى ذكر الاستطراد ، نقول إن ما تضمنه الكتاب من نزاع في غير
الميادين الفلسفية ، له ما يبرره ، فمن ذلك حديثنا عن محاربة اللاهوت « للعلم »
في القرن الغابر ، وقد أسلفنا الإشارة إلى أسبابه ، وحرصنا على الحديث
عن العلم الطبيعي في عصر النهضة وما بعده بقليل ، يبرره تصور هذا العصر
للبحث الفلسفي الحديث ، ومدى إدراكه لموضوعاته ، فالعلم الطبيعي لم يكن
قد انفصل عن الفلسفة بعد ، وكانت الأبحاث الفلسفية الحديثة — من ناحية
أخرى — تتجه إلى ميادين العلم الطبيعي — كما تنصوره الآن ، حتى لقد كان
« جاليليو » يسمى عند مؤرخيه « شيخ الفلاسفة » ، وقد آثرت أن أنظر إلى
موضوع بحثي ، بمنظار العصر الذي أقوم بتأريخه ، حتى يتيسر لي تصوره على
أكمل وجه مستطاع .

وفي الحق إن موضوع الكتاب رحب الآفاق ، بحيث لا تفي هذه الصفحات
باستيعاب الحديث عنه ، ومن المرأة التي لا يسفيها منهج البحث العلمي ، أن
ندعي بأننا أرخنا في هذا الكتاب النزاع بين الدين والفلسفة في كل زمان وكل
مكان ! وحسبنا أن نقول إننا عرضنا في هذه الصفحات نماذج للتعبير عن
روح النزاع في كل عصر من عصور التاريخ — منذ استقام أمر الفلسفة إلى
جانب الدين ^(١) . وقد آثرنا — لسعة الموضوع على هذا النحو — أن نذيل كل

(١) من بواعث هذا التنويه بسعة الموضوع ، ما يلاحظه القارئ ، في المصادر التي عرضت
له ، فالأستاذ « هويت » يؤرخه في نحو تسعمائة صفحة من الحجم الكبير تحت عنوان
« تاريخ النزاع بين اللاهوت والعلم في العالم المسيحي » A. Hist. of the Warfare of
Science with Theology in Christendom 1930 . والأستاذ روبرتسون يضع سفرا
من مجلدين في نحو ألف صفحة ويسميه « الموجز في تاريخ الفكر الحر » J. M. Robertson,
A. Short Hist. of Freethought, (1915) — وإن كان موضوعه أعم — ويضع
سفرين آخرين في حجم قريب من ذلك ، عن « تاريخ الفكر الحر في القرن التاسع عشر »
و« مثل هذين المؤلفين كثير ! وسنعرف هذا في مصادر الفصول التالية .

فصل - بل كل فقرة في أكثر الحالات ، بالمصادر التي استقينها منها مادتنا ، بل زودنا القارىء بمصادر أخرى - لم تتمكن من قراءتها ، عسى أن تسد حاجته إلى المزيد من التفصيل .

ملاحظة هذا الكتاب وعرفته بكتابنا عمه الاضطهاد :

طارد المتزمتون من رجال الدين أحرار الفلاسفة ، ونكلوا بهم في غير رفق ولا رحمة ، واستطاع الاضطهاد الدامى أن يسكت أصواتهم أمدأ من الزمان - قصر أو طال ! ولكن الأفكار التي استشهد هؤلاء الأحرار من أجلها قد بقيت حية بعد مصرعهم ، تكفل صدقها بخلودها ؛ فالفكرة الصحيحة التي تنكشف عنها النظر الفلسفى أو البحث العلمى ، لا تموت أبداً ، لأن صدقها لا يعرف زماناً أو مكاناً يقف عنده ، وصدقها يضمن بقاءها ، بل يكفل خلودها ؛ وسيان بعد هذا أن ينجح أو يفشل الاضطهاد الأثم فى إسكات أصوات الداعين لها ، أو استئصال المؤمنين بها ، لأن الفكرة باقية ، والاضطهاد لا يمكن أن يعيش أبداً ، والفكرة الصحيحة إذا عدت أنصارها فى أيامه السود ، وجدت هؤلاء الأنصار بعد انقضاء عهده المشئوم ، ومن هنا كان الفشل هو المصير المحتوم لكل اضطهاد يزاول فى مجال الفلسفة والعلم معاً ، وللإبانة عن هذه الفكرة وضعنا هذا الكتاب .

ولكن الاضطهاد الدامى يمكن أن ينجح فى غير هذا الميدان ، إنه يحقق غايته ، متى كان يهدف إلى تغيير مجرى الإيمان الدينى ، مع الإبقاء على مجاله ، أى متى كان يقصد إلى إحلال دين مكان دين . هذه فكرة لا تدخل فى نطاق كتابنا هذا ، ولكن دراستها ضرورية لاستيفاء البحث فى موضوعنا ، ولهذا وضعنا كتاباً آخر^(١) للإبانة عنها والتدليل على صحتها :

(١) هو كتاب « قصة الاضطهاد الدينى » وتقوم بطبعه الآن لجنة الكتاب العربى .

كلمة افبرة :

حسبنا هذا مقدمة لهذا الكتاب ، وإذا كان بعض الباحثين الذين عرضوا
لدراسة هذا الموضوع ، قد قنعوا بتأريخ هذا النزاع ، ولزموا الحياض وتحاموا
تأييد فريق دون فريق ، فقد تجاوزنا نحن هذه المرحلة ، وعالجنا أبواباً لم
تسُطر من قبل ، وكان لنا موقف إزاء ما نعرض من وجهات النظر عند المعسكرين
وهو موقف خالفنا فيه غيرنا في أكثر من موضع ، ولم نرتفع به في مراتب القسوة
إلى مثل ما ارتفع بعض الباحثين ، من الأمريكيين والأوربيين ، وإذا كنا قد
قسونا على غلاة المتعصبين في المسيحية والإسلام معاً ، فقد عقبنا في غير موضع
في هذا البحث ، بتأييد حق المعتدلين من رجال الدين في مناهضة التطرف
والمغالاة ، ومقاومة « إذاعة » النزعات الجائحة ، ونشر « الآراء الهدامة ،
والعمل على حماية الدين وتقاليده من كل أذى يتهدها ، لأنهم إن تهاونوا
في أداء هذا الواجب ، تخلوا عن القيام بوظيفتهم ، ومكثوا خصومهم من أيذاء
دينهم ، وتقويض نفوذهم .

هذا كتابنا - فُضِّلَتْ فيه آيات النزاع بين العقل والإيمان ، توكيداً
لقيمة الفكر الحر ، وتبياناً لمضرة الاستبداد الجائر ، وتكريماً للاستشهاد في
سبيل الحقيقة ، وأما الزيد فيذهب جُفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكنك في
الأرض ... »

نوفيس الطويل

الإسكندرية في { صفر ١٣٦٦ هـ
{ يناير ١٩٤٧ م

الفصل الأول

حرية النظر العقلي

والقوى المناهضة لها

حرية النظر وآفاقها — طبيعة العقل البشري — طبيعة المعتد الديني — موقف الإنجيل والسلطات الدينية من حرية النظر (رأى دراير وبيوري وهوايت — مناظرة الإمام وفرح انطون) — جهالة السلطات الدينية — رجعية الجامعات — محاكم التفتيش — رجعية القائمين بالاصلاح الديني — أحرار الفكر من المصلحين — كلمة أخيرة .

حرية النظر وآفاقها :

يراد بحرية النظر ، تحرر العقل من كل سلطة تُفرض عليه من خارج ، وقدرته على مسaire منطقته إلى أقصى أماده ، وإذاعة آرائه — بالغا ما بلغ وجه التباين بينها وبين أوضاع العرف وعقائد الدين ومقتضيات التقاليد — من غير أن تتصدى لمقاومتها أو التنكيل بصاحبها سلطة ما . وضعت انجلترا قوانين لمحاربة التجديف — على ما سنعرف بعد — واستندت في وضعها إلى أن المسيحية جزء من قوانين البلاد ، وأن الاستخفاف بقديسية الدين وإنكار عقائده والتبشير بمبادئه لا تسير تعاليمه ، جرح لعواطف المؤمنين ، فرأى أحرار الفكر من أمثال ج . ف . ستفن ، أن الحرية تقتضى — متى استقام أمر العدالة — أن يتساوى المؤمن والملحد أمام عرف البلاد وقوانينها ، وأن من الظلم اليسن أن يحارب التجديف والتهمج على عقائد الدين ، بحجة أنه جرح لعواطف المؤمنين ، لأن مسaire هذا المنطق تفضى إلى المطالبة بوضع قوانين لمحاربة الوعظ والتبشير بالدين ، لأن فيه جرحاً لعواطف الملحدين !

فإذا ضاق المؤمنون بهذا المطلب ، سجلوا على أنفسهم ما لا يشرف دينهم ولا يبرر قوانينهم ، وهو أن رائدكم كان الاضطهاد وليست العدالة . . بل يشهد بهذا الاضطهاد مجرد إكراه الملحدين - أو محاولة إكراههم بالتضييق المستمر - على اعتناق دين لا يقرون بصحة قواعده . . !

ويرى غير العقليين من المؤمنين أن عقائد الدين لا تدخل في نطاق التجريب العلى ولا تخضع لمنطق النظر العقلى ، ومن هنا لزم الاكتفاء بالوحي عند التسليم بصدقها ، وحسب المؤمن عجز خصومه عن إثبات بطلانها ، بل إن التدليل العقلى لا ينهض حجة على إنكارها ، ولكن أحرار الفكر لا يرضيهم هذا النزوع ، ويرون أن الدين - كغيره من الظواهر - يخضع لمنطق العقل ، وأن مهمة التدليل على صحة العقائد ملقاة على عاتق المؤمنين وحدهم - أشار رجل إلى جهنم ساخراً متهاكاً ، فقال محدثه وكان على إيمان بها : إنك لا تستطيع أن تقيم الدليل على بطلانها - بالغاً ما بلغ وجه التهافت في توهم وجودها ، فقال محدثه : إذانبت بأن في كوكب سيار يدور حول الشعري اليابانية ، يقيم جنس من الحمير يتحدث اللغة الانجليزية ، وينفق وقته في البحث في تحسين سلالة الحمير ، فإنك لا تقوى على إثبات ما يتضمنه هذا الزعم من تهافت ، فهل يبرر هذا العجز اعتقادك في صحته . . ؟ ومع هذا فإن العقل مهياً للتسليم به عن طريق الإيحاء متى تكرر تكراراً كافياً ، لأن الإيحاء بتكراره القاطع المؤكد ، كبير الأثر في إقرار الآراء الجازمة ، وإذاعة المعتقدات الدينية - فيما يشير الأستاذ بيورى .

ومعنى هذا أن حرية النظر تتيح الخروج على كل مألوف ، والتهجم على قدسية الحرمات ، وتقر المضي في هذا السبيل إلى أقصى أماده ، أسوة بالمؤمنين الذين لا تعوقهم سلطة عن تأييد عقائدهم ، واستباحة الحرمات في مجال الاحاد . . ! ولا يقنع بهذا هؤلاء المتطرفون من أحرار الفكر ، بل يلقون عبء التدليل العقلى عن عواتقهم ، ويحملون المؤمنين تبعته متى كان شاقاً

وعراً أو متعذراً...!! لأنهم هم الذين أقاموا القضية الدينية ، فعليهم وحدهم عبء التذليل على صحتها .

وقد كان طبيعياً أن يندر مثل هذا الشطط ، بقيام نزاع بين أهله وحماة الدين وحراس التقاليد المرعية ، ويقول تاريخ التفكير الحر منذ أقدم العصور ، إن العقل الحر متى نزع إلى الانصراف عن قديم مألوف ، وتطلع إلى اكتشاف جديد مجهول ، أثار عند المحافظين ضيقاً قد يرتفع إلى مرتبة الاضطهاد الدائم ، وتصدت لمقاومته قوى تتفاوت شدة وليناً ، منها الطبيعي الذي لا حيلة للإنسان في أمره ، والصنعي الذي استحدث مع الظروف ، وسائر روح العصر الذي نشأ فيه ، ومرد المقاومة إلى ما حققه الباحثون بشأن طبيعة العقل البشري ، وطبيعة المعتقد الديني — بالإضافة إلى أن الشطط في النزوع الحر ، والاستخفاف بعواطف الناس وميولهم الفطرية ، مشار للضيق والتبرم — فلنعرض في إيجاز للحديث عن هذين العاملين :

طبيعة العمل البشري :

إذا كان العقل بفطرته حراً ما اتسع للحرية تصوره ، ومدت فيها تجارب صاحبه ، فإنه نزاع بطبيعته إلى إذاعة ما ينتهي إليه من وجوه النظر ، فإن صدّ نزوعه عائق ، ضاق به ونزع إلى مقاومته ، وربما استشهد صاحبه في سبيل ذلك ، وقد عبر العالم ببحيرات من دماء شهدائه ، حتى توصل آخر الأمر إلى إقرار حرية النشر بمختلف صورها ، وجعلها حقاً طبيعياً لكل فرد من أفرادها .

والعقل وإن كان بحكم وظيفته الطبيعية نزاعاً إلى التفكير الحر ، ميالاً إلى إذاعة آرائه على الأغيار ، فهو بفطرته نزاع إلى السكسل حريص على أن يبذل من ذاته أقل جهد ممكن ، ثم هو عامر بمعتقدات تسلك إليه خفية أو جهاراً ، واستقر الكثير منها في ذاته اللاواعية وتدعم كيائها ، وأضحت كل فكرة جديدة لا تتمشى معها ، إعلاناً بالحاجة إلى إعادة النظر في هذه المعتقدات ،

وهذا إيذان بأن العقل مطالب ببذل جهد ونشاط لا يساير طبيعته في الحرص على الاستمتاع بأكبر حظ من الراحة ، وقد حمله هذا النزوع الطبيعي إلى الظن بأن سعادة الأمة مرهونة بمدى استقرارها والمحافظة على تقاليدها ونظمها - وإن احتواها الفساد ومست الحاجة إلى تعديلها . . ! وقد عاش هذا الوهم في عقول الناس طويلاً ، حتى اكتشف وجه الخطأ فيه حديثاً .

وهذه النزعة في طبيعة الإنسان ، يقويها جهله ويخفف وطأتها أو يلاشي آثارها انساع عقله واستنارة ذهنه ، وإذا نزلت الجهالة بالعقل وحالت دون قيامه بوظيفته الطبيعية في التفكير والتأمل النظري ، انطلق الإنسان يعمل يوحى من مكشوفات ذاته اللاواعية ، وعندئذ يزداد ميله إلى الاستكانة لما عرف فيختصم مع كل خارج على العرف الذي ألف ، وينساق في مقاومته وقد وضع بينه وبين منطق العقل حجاباً ، لأن العقل معطل بجهالته عن أداء وظيفته في التفكير ، فاذا دخل في اعتقاده أن الظواهر الطبيعية مرجعها إلى الله أو إلى القوى الخفية عنه ، هاله أن يرى غيره حريصاً على مناقشة أسبابها بالعقل ، وأفرعه أن ينتهي من بحثها مستنداً إلى منطقة أو معتمداً على تجاربه إلى غير ما عرف الناس ، وإذا كان كسوف الشمس أو خسوف القمر في عرف قوم شاهداً من الشواهد التي تستخدمها الآلهة للاتصال بهم ، وإلقاء نوع من المعرفة إليهم ، فإن التبشير بعلة هذه الظاهرة الطبيعية معناه اتهامهم بالجهل وقصور النظر ، وهو اتهام لا يرضاه لنفسه إنسان ، فضلاً عن أنه قلب لنظام يميز المجتمع الذي يعيش في ظله هؤلاء الناس ، وهذا فوق أنه إهانة موجهة إلى آلهتهم . . وهذا كله كفيلاً بأن يكون مثار ضيقهم ومبعث النزوع إلى تنكيلهم بهؤلاء الخصوم . ثم كيف يرضى رجال الدين - الذين يتولون بحكم وظائفهم تأويل هذه الشواهد الإلهية - بمثل هذا التفسير الجديد الذي يستند إلى منهج التجربة أو يقوم على شريعة العقل ، ولا يعبأ بحرمة الحياة الدينية وقرسية رجالها ، فيتجههم على أسرارها ويهتك سترها على هذا النحو

المعيب غير المؤلف ؟ ويهدد رجال الدين — فوق هذا كله — بتقويض سلطانهم والحد من نفوذهم . . . ؟

طبيعة المعتقدين البرهنيين :

هذه هي طبيعة العقل البشري من حيث الضنّ بنشاطه والحرص على راحته ، ويُقوّى الجهل من هذه النزعة الفطرية ، ويزيدها سوءاً طبيعة المعتقد الديني ، وقد حقق الباحثون الذين عرضوا للنظر في طبيعة المعتقدات وخواصها أن لها ناموسين : أولهما فيما يقول لوبون في « الآراء والمعتقدات » أنها بحكم الضرورة عديمة التسامح ، بل لقد ذهب بعضهم إلى أن عدم التسامح يتمشى طردياً مع قوة المعتقد ، عكسياً مع ضعفه ، وأن الإيمان متى احتل قلوب الناس قلّ اضطبارهم على من ليسوا على دينهم . بله الخارجون على تعاليمهم ، وهذه سنة عرفت منذ أقدم العصور . وقد صور هذا الناموس القديس توماس حين قال : إن الإلحاد إثم يستحق صاحبه الإعدام . . . ١ وثاني الناموسين يقرر — فيما يقول لوبون في « روح الثورات » — بأنه متى عظمت شوكة طبقة في الشعب ، نزعت إلى استعباد سائر الطبقات . وبتطبيق هذين الناموسين على تاريخ النزاع الذي وقفنا عليه هذا الكتاب ، نرى أن اضطهاد رجال الكهنوت لرواد العلم والفلسفة الجديدة ، كان قضاء لا مفر منه ولا مناص من شره ، وذلك لأن البرهان العقلي يقوم على استنباط نتائج من مقدمات تلزم عنها هذه النتائج ، وهو يخالف طبيعة البرهان الديني الذي يلزم فيه الإيجاز مع مراعاة حالة السامع وغير هذا مما لا تقتضيه طبيعة الدليل العقلي .

ومن هذا نرى أن النظر العقلي الحر ، تتضافر على اضطهاده — بالإضافة إلى ما يترتب على شطحات الحرية الفكرية : — طبيعة العقل البشري من ناحية ، وطبيعة المعتقد الديني من ناحية أخرى ، ولكن حديثنا عن العامل الأخير يعوزه التفصيل الذي يتكشف عن إقرار الكتب المقدسة في وضعها الصحيح ، ومعرفة مدى التبعة التي تحملها في النزاع بين العقل والإيمان .

موقف الإنجليز والسلطات الريفية من هزيمة النظر

ذهب بعض الباحثين في هذا الموضوع إلى أن الكتاب المقدس مشغول عن محاربة دعائه للعقل الحر في أوروبا ، ونفى عنه غيرهم هذا الاتهام ، ونزهوا تعاليمه عن عرقلة نشاط العقل ، وعزوا هذا للاغبياء والحمقى من رجاله ، وأصحاب السلطة منهم بوجه خاص ، فأما خصوم الكتاب المقدس فيمثلهم جون وليم درابر G.W. Drape الأستاذ بجامعة نيويورك وصاحب كتاب *History of the conflict between Religion & Science* الذي صدر عام ١٨٧٣ وأعيد طبعه عشرات المرات ، وقد صور هذا النزاع قائماً بين طبيعة الدين وطبيعة العقل البشري ، وقد ترجم كتابه إلى الفرنسية تحت عنوان *Les conflits de la Science et de la Religion* وأثار الكتاب ثائرة المؤمنين في كل مكان . ومن دعاة هذا الرأي الأستاذ بيوري J. B. Bury أستاذ التاريخ الحديث بجامعة كامبردج وصاحب كتاب *History of Freedom of Thought* على ما أشرنا في مقدمة الكتاب

ورغم ما عهد في أساتذة الجامعات — ولا سيما المؤرخين منهم — من اتزان ورعاية للتقاليد والتزام الاعتدال وتحاشي إثارة الرأي العام ، فإن هذا السكتيب كان عند صدوره مثار الضيق في المعسكرات الدينية والدوائر المحافظة في إنجلترا . وحسبنا أن نعرف من آراء هذا المؤرخ في هذا الكتاب أنه يرى في فصل عقده عن العقل الأوربي الأسير في العصر الوسيط أن طبيعة الكتاب المقدس — فضلاً عن منطق تعاليمه تحمل نصيباً في تبعة مبادئ التعصب التي اعتنقتها الكنيسة الكاثوليكية ، ويصرح بأن المسيحيين الأول قد ضمنوا — لسوء الحظ — كتابهم المقدس تلك المقطوعات اليهودية التي تصور أفكار مرحلة منحة من المدينة حافلة بالبربرية ، وليس من الهيتم — فيما يقول — أن نعرف إلى أي حد أضرت بأخلاق الناس تلك المبادئ ومثل القسوة والعنف والتعصب الديني ونحوه مما كان يدين به قارىء العهد القديم ، فإن هذا قد أمدهم بزاد خصب لتأييد نظرية الاضطهاد ، والواقع أن

الكتب المقدسة عقبة تعوق التقدم العقلي والأخلاقي ، لأنها تحوط بالقداسة أفكار عصر معين وعاداته ، على اعتبار أنها من وضع الآلهة ، والمسيحية ياذعانها لكتب عصر عريق في القدم ، قد وضعت في طريق التقدم الإنساني عقبة كأداء لها خطورتها ، وإن الإنسان ليعجب كيف كان ينتظر أن يتغير مجرى التاريخ - ومن المحقق أن التغير كان واقعاً لا محالة - لو أن المسيحيين قد استبعدوا أسفار موسى الخمسة من كتبهم وقنعوا بالعهد الجديد وحده ، ورفضوا وصايا العهد القديم .

حسبنا هذا إشارة إلى بيوري ودرابر فسيرد تفصيل آرائهما في الفصول متناثراً ، ولكن الحديث عن اتجاههما يذكرنا بمناظرة شائقة جرت بين الأستاذ الإمام والأستاذ فرح أنطون ، إذ يروي الأخير في الجزء الثامن من السنة الثالثة من الجامعة في عرض حديثه عن ابن رشد ، أن الإسلام قد جمع بين السلطتين : الزمنية والروحية ، بحكم الشرع الذي جمع الملك والخلافة في يد الحاكم ، بعكس المسيحية التي فصلت بينهما فصلاً تاماً في قولها : « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » ، فهتد هذا الفصل لانتشار العلم والفلسفة ، فتصدى الإمام « محمد عبده » للرد عليه^(١) ، وفصل في بيان ما رآه أركاناً للدين المسيحي وأصولاً له مستقاة من الأناجيل المعروفة في أيدي المسيحيين وكلام أئمتهم الأولين ، وما ترتب على هذه الأصول من نتائج تتصل بالعلم والفلسفة ، فقال إن الأصل الأول للنصرانية : خوارق العادات . وهذا يضاد القول « بأن للكون شرائع ثابتة وأن للعلل والشرائط أو الأسباب أو الدوافع أحكاماً في معلولاتها أو ما شرطت فيه أو ما تسبب عنها أو ما استحال وجوده لوجودها » ، وصاحب الاعتقاد في الخوارق في غنى عن العلم الذي يبحث في الأسباب والمسببات .

(١) نشر الرد في سلسلة مقالات في مجلة المنار ، ورد المرحوم فرح أنطون على الرد في الجامعة ، ثم نشر رد الإمام في كتاب « الإسلام والنصرانية » ونشر فرح أنطون رده في كتاب « ابن رشد وفلسفته » ١٩٠٣ .

وثاني أصولها : سلطة الرؤساء على المرءوسين في عقائدهم وما تكنه ضمائرهم ، وهذا الأصل موضع نزاع بين المسيحيين اليوم ، ولسكنه الدين الذي جروا عليه خمسة عشر قرنا ، وبذلك يصبح عقل المرءوس وتفكيره مرهونا برأى رئيسه الديني .

وثالث أصولها : التجرد من الدنيا والانتقال للأخرى ، والدنيا محرمة عليه بحكم هذا التشريع .

ورابع أصولها : أن الإيمان منحة لا دخل للعقل فيها ، وأن من الدين ما هو فوق العقل ، أي مناقض لأحكامه ، والسنة التي وضعها القديس أنسلم : الاعتقاد أولا ثم فهم هذا الاعتقاد بعد ذلك (١) .

وخامس أصولها : أن الكتب المقدسة تتضمن كل ما يحتاج إليه البشر في المعاش والمعاد معا ، وبهذا يصبح العلم متضمنا في تعاليمها ولا شيء سوى ذلك .

وسادس أصولها : المحافظة على هذه الأركان على اعتبار أن الإخلال بمحبة المسيح والالتقياد إلى وصاياه موجب للهلاك .

وقد أدت هذه الأصول فيما يقول الأستاذ الإمام — إلى انزواء العلم في الأديرة وتحريم نشره بين العامة ، إلا ما كان داعياً للصالح والتقوى ، وقدمهد هذا كله للرقابة على المطبوعات وقيام محاكم التفتيش ومطاردة رواد الفكر الحديث . وقد عرض الأستاذ بعد هذا للفصل بين السلطتين في المسيحية ، فقال إن الآية : « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » ، أصلها أن بعض المرانين سألوا المسيح — تجسسا — عن الجزية التي يطلبها قيصر ، فطلب المسيح ديناراً وقال لمن هذه الصورة والكتابة . . ؟ قالوا لقيصر ، فقال أعطوا ما لقيصر ... أي ادفعوا لصاحب السكة ما يطلبه ، أما عقولكم وقلوبكم وكل ما اتسم بطابع الله فلا تقطعوا لقيصر منه شيئاً ، وبديهي أن العلم ليس عليه طابع

(١) من الأنصاف ان نقول ان هذا هو موقف علماء الكلام في الإسلام كذلك وليس في المسيحية وحدها

قيصر ... ويقول مع هذا إن افتراض الفصل بين السلطتين لا يحل المشكل ، لأن دين الملك يقضى بمعادة العقل ، وسيضطره إلى جعل مصالح مملكته قربانا لسلطان عقيدته ، بل إن الفصل بين الحاكم الدينى والرئيس الدينى ، كفيل بإيجاد النزاع بينهما حتى يتغلب أحدهما على الآخر ... الخ

هذه نماذج من حملات الذين حملوا الكتاب المقدس تبعة الاضطهاد الدامى للعقل ورواده ، وقد تصدى لدحضها وبيان وجه الضعف فى حججها الكثيرون من الباحثين ورجال الدين على السواء ، وفى طلبه هؤلأ الأستاذ أندرو ديكسون هويت A. D. White الذى وضع سفرا ضخما فى مجلدين يستغرقان نحو ألف صفحة Hist. of the warfare of Science with Theology in Christendom أى « تاريخ النزاع بين العلم واللاهوت فى العالم المسيحى » ، يصور فيه النزاع قائما بين رجال اللاهوت ورواد الفكر الجديد ، ويصرح فى مقدمة كتابه الضخم بأن « دراپر » قد أخطأ عند جعل النزاع قائما بين طبيعة الدين وطبيعة العقل ، وأكد القول بأن تعصب رجال الدين وتزمتهم هو الذى أفضى إلى مأسى الاضطهاد الذى عرفته أوروبا ، ونستطيع أن نقول إن « بيورى » وإن لم يعف النصوص المقدسة من تبعة هذا الاضطهاد الآثم ، إلا إنه يلج فى توكيد القول بأن رجال الكهنوت إن تهبأت لهم سلطة ما ، بسطوا نفوذهم خارج نطاقهم ، ونزعوا إلى إيذاء خصومهم والتشكيل بكل من لا يذعن لرأيهم وينقاد لتفكيرهم .

فأما عن حديث الأستاذ الإمام فقد تولى تفنيد أدلته فرح أنطون ، وبمقدار ما كان الأول لبقا حاذقا فى هجومه ، بقدر ما كان الثانى موقفا فى دفاعه منطقيا فى مناقشاته ، وحسبنا من رده المتزن عتبه على الأستاذ فى تحامله على طبيعة الديانة المسيحية بما ليس فيها تأييدا لحجته ، وقطعه بأن طبائع الأديان كلها منزهة عن الشر داعية إلى الخير ، ومرجع الشر فيها إلى من أساء فهمها من أهلها ، ثم إلحاحه الشديد فى توكيد المبدأ الذى قرر من قبل أنه سر الرقى فى أوروبا ، واليه مردّ النظر العقلى الحر ، وهو الفصل بين السلطتين الزمنية

والروحية ، وقد أسهب في بيان هذا قائلاً إن الدين مجرد علاقة بين المخلوق
وخالقه ، فليس يعنى الانسان دين غيره ، أي أكان هذا الدين ، وعلى أساس الإخاء
الذى بشرت به الأديان ، بحق للانسان من حيث هو إنسان أن يتولى حتى
رياسة أمته بصرف النظر عن عقيدته ، وأن يعتقد ما شاء من الآراء ،
ولكن السلطات الدينية لا تحتل هذا التمام ، لأن الحقائق لا تكون حقائق
إلا لأنها صدرت عن هذه السلطات أو اعتمدت منها ، وكل ما خالف هذا
فهو كفر ، إن أذعن صاحبه لها بالترغيب أو الإكراه كان بها ، وإلا أو لته
احتقارها وخصته باضطهادها ، ثم إن إعطاء الإنسان الحق في اعتناق الدين
الذى يشاء ، والرأى الذى يريد ، ينشأ عنه الحق في عدم الاعتقاد بشيء ما ،
ويترتب على هذا حقه في جحد الأديان وإنكار حقائقها ، وأعدل عقاب
ينزله رجال الدين بمثل هذا الكافر قتله ، وليس يمنعهم من ارتكاب هذه الجريمة
إلا حاجتهم إلى السلطة ، ومن هنا وجب الفصل التام بين السلطتين : المدنية
والدينية . لأن الحكومة غرضها حفظ الحريات في حدود الدستور ، أما السلطات
الدينية فوظيفتها حفظ تعاليم الدين ونشرها بين الناس ، وبين الغرضين هوة
سحيفة القرار ، فاذا انتهى النظر العقلى أو الاختبار التجريبي إلى إقرار رأى
لا يتمشى مع عقائد الدين وتعاليمه ، كان على الحكومة ألا تنهض لمقاومته إلا
إذا تضمن العدوان على الحريات ، وذلك لأن الحقيقة المطلقة لم تكتب بعد
في قاموس الحكومات ، وأما السلطات الدينية فمن واجبه النهوض لمقاومته ،
والاستبسال في الجهاد في سبيل الله ، فان تولت زمام الحكم ، جنحت إلى مقاومة
الفسكر الجديد لا محالة ، وميزت على دعائه معتنق دينها ، ومن هنا كان
إطلاق العقل البشرى من كل قيد خدمة لمستقبل الإنسانية ، يستلزم الفصل بين
السلطتين وتجريد حبر الأحبار من كل سلطة زمنية ، وكف يده عن التدخل
في الشؤون الدنيوية ، لأن الأديان شرعت لتدبير الأخرى لا لتدبير الدنيا .
فاذا لم يقع هذا الفصل ، نزع رجال الكهنوت إلى اضطهاد الذكاء النزاع

للاستقلال بنفسه . وخلق التنوع في التفكير . وصب العقول البشرية في قوالب واحدة ، ومجارة العوام والأميين باضطهاد المتفوقين عليهم في مجال النظر العقلي ومعنى هذا كله قتل الحياة العقلية لا محالة .

وهذا بالإضافة إلى تعرض الدين لأحوال السياسة ومفاسدها ، أما عن الآية « أعطوا ما لقيصر ... » ، فليس يعيننا تفسيرها لمعرفة أصلها ، بقدر ما يعيننا إقرار حقيقة واقعة ، هي أن الملوك في أوروبا قد استندوا إليها وإلى آية أخرى هي « مملكتي ليست من هذا العالم » ، في الفصل بين السلطتين ، وإن كان رؤساء الدين المسيحي إلى مطلع القرن العشرين ، يرون هذا الفصل بدعة إلى حد أن البابا يقرر في منشورات رسمية أن حرمانه من السلطة المدنية ، يحط من كرامة الدين .. ! ولكن الفصل قد تم على كره من هؤلاء ، ومن تفسيرهم للآية السالفة ، فإذا تم الفصل حسب التأويل السابق ، وجب - تلافياً لعجز الملك عن تجرده من دينه - أن يقيد الملك بالدستور الذي يكفل الحريات ، وعندئذ تمتحى أهمية عقيدته الدينية .

وإذا تم الفصل سادت السلطة الزمنية ، وخسرت به السلطة الدينية نفوذها وسلطانها ، وغلبت على أمرها ، وتمكن العقل من أن يرقى حراً بعيداً عن كل قيد ما دامت مذاهبه لا تؤدي إلى الحجر على حرية أحد من الناس ، حتى لا تتدخل الحكومة لقمعه ، وبغير سيادة السلطة الزمنية لا يكون ثمة فصل بين السلطتين ، ولا خوف من استبداد الحاكم السياسي ، لأنه مقيد بالدستور ، بل إن العلم قد سلب رجال الدين نفوس الخاصة من الناس ، وسلبتهم أو ستسلبهم الاشتراكية نفوس العامة ، وبهذا يصبح الناس في غنى عن السلطة الدينية .. ! وبهذا ينطلق العقل حراً من كل قيد ، ويمتنع التنازع بين أهله ورجال الدين وما أصدق فيكتور هوغو حين قال : نحن مع الدين على رجاله .. !

ويعرض صاحب الجامعة بعد هذا الذي فصله في نيف وعشرين صفحة من القطع الكبير إلى مناقشة ما اعتبره الأستاذ الإمام أصولاً للديانة المسيحية وأركانها ،

فيفنده في نيف وعشرين صفحة أخرى ، قائلاً ما خلاصته :

إنه يسلم بالقول بخوارق العادات والإيمان بغير المعقول (وهما الأصلان الأول والرابع في حديث الإمام) ، ويصرح بأن الدين إذا كان عقلياً تحول إلى علم ، لأن الإيمان بالخالق والآخرة والوحى والبعث والحشر وخلق النفس ونحوه ، أمور غير محسوسة ولا معقولة ، ولا دليل عليها إلا ما جاء في الكتب المقدسة ، ومن هنا اتفق الغزالي في تهافته (ص ٤٤ — ٦٥ و ٦٤) مع خصمه ابن رشد في تهافت التهافت (ص ١٢٥ — ١٢٩ و ١٢٦) على أن الإسلام — ككل دين في العالم — فوق العقل ، ومردّ المعجزات إلى الخروج على المبدأ العلي في تلازم الأسباب والمسببات ضرورة أو عدم تلازمها ضرورة ، والمعجزات مبادئ تثبت الشرائع — كما قال ابن رشد نفسه — والمنطق والعقل يؤديان إلى الهاوية كما قال رينان ، فأساس الأديان كلها اعتبار الفاعل في المواد خارجاً عنها — أى في الغائب لا في الشاهد — ومن هنا نرى أن الأديان كلها قائمة على الغيب ، ولولا الخوارق لانهدم الدين .

وأما عن أصل النصرانية الثاني وهو سلطة الرؤساء ، فانه يعترف بإفراط الكنيسة في استعمال هذه السلطة ، وإن رآها ضرورية لمنع الفوضى ، ولكن قول الإمام إن عقل المرموس مرهون برأى رئيسه ، يثير ابتسام المسيحيين ، ولا سيما بعد أن أصبح المرموس رئيساً .. !

أما عن أصلها الثالث ، وهو ترك الدنيا ، فإن خطبة المسيح على الجبل (الإصحاح الخامس والسادس والسابع من إنجيل متى) قد قررت الفصل بين الدين والدنيا بما لا يدع مجالاً للشك ، وحضت المؤمنين على ترك الدنيا والتسامح مع مخالطهم « إن كل من يغضب على أحد ، يكون مستوجب الحكم ، فكن مرادياً لخصمك دائماً ... سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك ، وأما أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلى مبغضيك ، وادعوا إلى الله أن يغفر للذين يسيئون إليكم ، وإن لم يقصد الشارع إلى هذا

بل أدت إليه طبيعة الزمان الذي عاش فيه ، إذ استحال إدراك السعادة عن طريق الطلب ، فنزلت المسيحية تحض على التماسها عن طريق الترك .

وأما عن الأصل الخامس ، وهو احتواء الكتب المقدسة لكل علم ، فقد اعتبره فرح أنطون مزاحا ومداعبة من الإمام ، وأغفل الرد عليه . ثم التمس العذر — بعد هذا كله — لرجال الكهنوت الذين أسرفوا في قسوتهم مع رواد الفكر الحديث في أوروبا ، لأن هؤلاء كانوا بحق أعداء للأديان ، ومن أجل هذا استباح الأكليروس المسيحي كل سلاح لمحاربة هؤلاء الملحدين ، والمسيحية مع هذا بريئة من جرائم رجالها ، ولو ظلت السلطة المدنية مقرونة بالسلطة الدينية في أوروبا ، لتوقف تقدم العقل الأوربي لاحالة .

حسبنا هذا من رد صاحب الجامعة ، وهو على ما أعجبنا من اتزانه وسعة علمه وتسلسل منطقته ، فيه فجوات ملحوظة ، لأن رده على خوارق العادات والإيمان بغير المعقول يُسوَّى بين المسيحية وغيرها من الأديان ، ولكنه لا يبنى الاتهام الموجه إلى المسيحية بعرقلتها النظر العقلي الحر ، وردة على سلطة الرؤساء لا يبنى القول بأنها عاقت النظر العقلي في أوروبا قرونا طوالا ، قبل أن يتحول الحال ويصبح المرءوس رئيسا ، وردة على ترك الدنيا ضعيف ، لأن الذي يركز كل جهوده لآخرته ، خليق بأن يبغض من يخالفه في سلوكه ، فإن تهيأت له السلطة أذله ، وربما قتله . . . وقوله إن رجال الدين كانوا يقاومون العلم الطبيعي المعادى للدين وتعاليمه ، تعميم حيث ينبغي التخصيص ، إذ أن الكثيرين ممن نالهم أذى الأكليروس ، لم يكونوا أعداء ألداء لعقائد الدين المسيحي ، على ما سنعرف في الفصول التالية . . . ومثل هذا كثير في رده .

ومع هذه الملاحظات على رده على الإمام ، نقول إن قيمة النصوص المقدسة ليست في ذاتها ، بمقدار ما هي في طريقة تأويلها ، وأصحاب التأويل هم المسئولون عن فهم الدين المسيحي وما ينشأ عن هذا الفهم من تصرفات ،

وقد فسر الإمام - ورؤساء الدين المسيحي قبله وبعده - الآية « أعطوا ما لقيصر . . . » بما يفيد الجمع بين السلطين، وأولها صاحب الجامعة - وغيره من مفكرى المسيحية - بما يفيد الفصل بينهما ، ولكل من الفريقين وجهة نظر ، ومثل هذا الخلاف البين يمكن قيامه فى أكثر الآيات ، ومن هنا كانت تبعة السلوك المسيحي إزاء النظر العقلى الحر ، مردها إلى مؤولى النصوص المقدسة ، لا إلى هذه النصوص نفسها ، ولما كان التأويل حتى مطلع العصر الحديث ، فى يد رجال الكهنوت ، لا ينازعهم فيه منازع ، كانوا هم المسئولون عن جرائم النزاع بين الدين والفكر الحديث ، ولا سيما وأن الكتب المقدسة قد دخلت من كل إشارة تعرقل طلاقة الفكر .

على أنه من الإنصاف مع هذا كله أن نقول إن فظائع المسيحيين التى تضمنها هذا الكتاب ، لا يحمل تبعها إلا رجالها - أو بعض رجالها فى الغرب - دون مسيحي الشرق على ما عرفناه من قبل .

ومع هذا كان من الممكن ألا يقع هذا النزاع الأثم الدامى ، لو جرد رجال الدين من سلطتهم ، هذه حقيقة سجلها تاريخ الأديان فى شتى البقاع ومختلف العصور ، على نحو ما عرفنا فى فاتحة هذا الكتاب بجملا ، وما سنعرفه فى فصوله مفصلا .

مبرات السلطات الربانية :

ولو كان جميع رجال الكنيسة مستنيرين ، أو كانت تعاليمهم مسارية للتفكير الناضج ، لمان خطب تعصبهم الذميم بعض الهون ، ولكنهم كانوا يمثلون دوراً من أدوار البربرية القديمة المظلمة ، قد تخلف مع الزمن ووجد فيهم خير حماة ، وبذلك أوقفوا تقدم المعرفة وأصدوا أبواب العلم ، وحاولوا الحيلولة دون تقدمه حتى النصف الأخير من القرن الغابر ، وقد هيمنت الكنيسة على كل ميادين البحث العلى ، وفرضت عليها ما تراه حقاً ، مستندة فى ذلك إلى

سلطة الكتاب المقدس المعصوم من كل خطأ ، وسرعان ما اتصل الدين بالظواهر الطبيعية ونحوها مما يدخل في نطاق العلم والفلسفة ، فاتصل وصف التوراة لخلق الكون ووقوع الإنسان في الخطيئة بفكرة الفداء في المسيحية ، وأفضى هذا إلى استبعاد علم طبقات الأرض وعلم الحيوان ، وعلم الاثروبولوجي من ميادين البحث الحر . وأصبحت الحقيقة هي التي تقوم في ظاهر نصوص الانجيل ، وتأويلها الحر في كفيل بهداية الناس إلى وجه الحق فيما يبحثون ، وقد أدى هذا إلى القول بدوران الشمس حول الأرض ورفض الاعتقاد بأن الجانب المواجه لموطننا من الأرض معمور بالخلائق ، وإذا كانت العصور القديمة لم تخل من أمثال أبقراط الذي أقام دراسة الطب على التجربة والمنهج العلمي ، فإن العصر الوسيط قد ارتد إلى الأفكار البدائية في العصور البربرية ، إذ كانت الأمراض الجسدية تعزى إلى عوامل خفية ، أظهرها حقد الشيطان أو غضب الله ، وقد أكد هذا أكبر آباء الكنيسة « أوغستين » ، إذ قال إن أمراض المسيحيين مردها إلى الشياطين ، وسار في هذا الاتجاه نفسه المنشقون عن الكنيسة ، فقال لوثر إن الأمراض مرجعها إلى إبليس ، وما دامت أسباب الأمراض فوق طبيعته ، فعلاجها من جنسها أي فوق الطبيعي وبينما كانت الكنيسة تروج من الأحجة والتعاويد ، كان الأطباء معرضين في أكثر الأحوال للاتهام بالسحر والكفر معاً ، إذ كان تشریح الأجسام محرماً ، ولعل مرد هذا إلى الاعتقاد في بعث الأجسام يوم الحساب ، وقد كان اعتراض الدوائر الاكبركية على التطعيم في القرن الثاني عشر ، بعثاً لرأى العصر المظلم في المرض ، وكانت الكيمياء تعتبر فناً شيطانياً خبيثاً ، وقد أدان البابا المشتغلين بها عام ١٣١٧ م ، وقد سجن روجر بيكون ١٢٩٢ مدة طويلة رغم حماسه للدين لمجرد نزوعه الطبيعي للبحث العلمي ، وهذا شاهد عدل على كراهية العصر الوسيط للعلم ، وحقيقة إن العلم اليوناني قد وقف تقدمه قبل أن تقوى المسيحية بخمسة قرون من الزمان ، ولم تظهر الى الوجود

مكتشفات علمية هامة بعد القرن الثاني ، ولكن تفسير هذا الاضمحلال يلمس في الأحوال الاجتماعية للعالم اليوناني والروماني ، أما في العصر الوسيط فإن الظروف الاجتماعية ربما كانت أكثر ملائمة للروح العلمي والاهتمام يبحث الحقائق لذاتها ، وربما كان من الممكن أن يولد العلم من جديد مع هذه الظروف الاجتماعية ، ولكن موقف الكنيسة من العلم وسلطانها في تحديد الحقائق قد عاق تقدم الروح العلمي ، أو لعل الأصح أن نقول إن الضرر الذي أحدثته نظريات الكنيسة لا يعزى إلى ظلام العصر الوسيط بقدر ما يعزى إلى العقبات التي أقامتها الكنيسة في وجه العلم .

وقد ورثت العصور الوسطى عن القديمة الاعتقاد في السحر والجن وقوة من أمره ، واعتقد الناس أن الشياطين تحوطهم وتترقبهم وتترقب كل فرصة للإضرار بهم ، وأن الأوبئة والزوابع والقحط وكسوف الشمس وخسوف القمر ونحوها من ظواهر طبيعية أو نكبات اجتماعية ، مردها إلى الجن ! وليس يقوى على إيقاف هذه الظواهر إلا الطقوس الإكليريكية ، وقد عنى بأمر السحر بعض الأباطرة المسيحيين الأول ، فسوا الشرائع لمقاومته ، وإن كنا لا نجد أثراً لمحاولة جديدة ترمى إلى استئصال السحر قبل القرن الرابع عشر ، وقد وقع في هذا القرن وباء مخيف دمر أوروبا ، وسمى بالموت الأسود ، وقوت هذه الظاهرة من فزع الناس من عالم الشياطين الخفي . وقد لبثت أوروبا منشغلة بمقاومة السحر والتنكيل بأهله ثلاثة قرون من الزمان ، وأيد الكتاب المقدس اضطهاد السحر إذ ورد في إحدى وصايا داود لا ينبغي أن تترك ساحرة على قيد الحياة ، وقد أصدر البابا أنوسنت الثامن أمراً بابوياً عام ١٤٨٤ أكد فيه أن الطاعون والزوابع من عمل الساحرات ، وآمن بهذا حتى المستنيريون من الناس ، حتى اجتثت النزعة العقلية الحديثة جذور هذه العقيدة ووضعت حداً لفظائعها .

ومن هنا نلاحظ أن الفترة التي بسطت فيها الكنيسة سلطانها على التفكير ،

كان العقل مقيداً أسيراً في سجن شادته الكنيسة للعقل البشري ، وأن الكنيسة قد استغلت سلطانها على قلوب الناس وعقولهم ، واحتكرت حرية التفكير والنظر العقلي ، وفرضت على العقول رقابتها الصارمة ، ولو كانت الكنيسة مستنيرة مع هذا الاحتكار لكان خطب خطرهما على العلم ، وإن كان الاحتكار في كل الحالات يتنافى مع تقدم العلم ، لأنه يعرقل حرية النظر ، ويوصد أبواب الإبداع في التفكير ، وبغير هذا لا يستقيم تجديد العلم وتقدم المعرفة

جمعية الجامعات :

كان الأكليروس على جهالة ، ولكنه بسط نفوذه على الجامعات وحوّلها إلى معازل للاستبداد وأوكل للرجعية ، على أن مردّ نشأتها إلى أيلارد الذي طالب باعتبار العقل محكاً للحقيقة ، وأقرّ الأسئلة طريقة لاكتشافها ، دون اكتراث بما اعتمدهت الكنيسة أو بشر به أرسطو من قبل ، وقد درس في باريس وتولى التدريس بها فتهاقت عليه الآلاف من الطلاب المعجبين بمنهجه ، فلما مات أيلارد عام ١١٤٢ أنشأ طلاب العلم في أواخر القرن الثاني عشر نقابة في باريس تحرس مصالحهم ، وسموها Universitas فنشأت بذلك جامعة باريس التي ضمت ثلاثمائة وألف طالب في ختام ذلك القرن ، وقامت بعدها الجامعات الأوروبية القديمة ، فنشأت بولونيا وسالرنو واكسفورد وكامبردج إبان القرن الثاني عشر . وكان المنتظر وقد مهد لنشأتها رب الدعوة إلى تحرير العقل من قيود العقيدة الدينية والعلمية معاً ، أن تنتصر لحرية التفكير ، وتقي دعائها عدوان خصومها ، ولكن الكنيسة كانت إذ ذاك تحتكر العلم وتهيمن على شئونه ، فسارت الجامعات في ركابها ، وأخذت تتلقى الأوامر والتعليمات من رجالها ، وتلقى طلابها ما يبيحه هؤلاء ، وتحبس عنهم ما يحرمونه ، ومن هنا نشأت سياسة « التعليم السلبي » الذي جرت عليه الجامعات ، وأصبح أساندة هذه الجامعات لا يعنون بالحقيقة من حيث هي وليدة نظر عقلي سليم أو اختبار تجريبي مؤكد ، بقدر ما يعنون بالاستجابة لطاعة الكنيسة واعتناق

ما قره من آراء ، فاذا تجلى لأستاذ الجامعة بطلان رأى شائع معتمد ، وأضحى على يقين من ذلك ، كان عليه أن يجارى العرف الذى يقضى بالتزام التعليم السلبى فى الجامعات ، وأن يجبس الرأى فى حنايا نفسه ، ولا يبشر به أحداً من تلامذته أو سواهم ، كما فعل الكثيرون من أمثال رينولد Reinhold فى منتصف القرن السادس عشر ، أو كان على هذا الأستاذ الذى يكشف خطأ رأى مألوف أن يغادر منصبه فى الجامعة ليتمكن من التبشير به خارجها ، كما فعل أمثال ريتكوس Reticus ، وإلا أكره على ترك منصبه راعماً ، كما حدث لجاليليو فى القرن التالى ، وقد كان هؤلاء الثلاثة على يقين من صحة الرأى الذى بشر به كوبرنيكوس بصدد دوران الأرض وعدم اعتبارها مركز الكون ، وكان الأولان فى ويتنبرج - وهى مركز الدعاية البروتستانتية - والثالث فى جامعة ييزا بايطاليا ، وكانت خاضعة لنفوذ الكنيسة الكاثوليكية . ! وليس أدل على الروح السائد إذ ذاك من أن تفاخر الجامعة بأنها التزمت التعليم السلبى الذى لا يجيد عن حقائق الكتب المقدسة ، ولم تأذن بادخال الفكر الجديد فى برامجها - كما فعل رئيس جامعة Douay فى حديثه عن موقف جامعته من مذهب جاليليو فى دوران الأرض ، بل إن مؤرخى الفكر يقولون مع « ولف » إن نفوذ التعاليم الكلاسيكية على الجامعات ، قد صرفها عن دراسة العلم ، وأن تعصب المصلحين من أعداء الكنيسة قد خنق التفكير الحر ، وكان لا بد للروح العلبى الجديد من أن يلتمس طريقه خارج الجامعات ، وبعيداً عن المجددين من دعاة الإصلاح الدينى ، وقد نهضت بهذا العبء الجمعية الملكية ونحوها

على أن عصر النهضة حين أقبل ، نشأت معاهد تولت التبشير بالعلم وتحررت من نفوذ رجال الدين ، فنشأت أكاديمتا فلورنسا والبندقية فى القرن الخامس عشر ، وقامت فى باريس كلية فرنسا (كوليغ دى فرانس) على يد فرانسوا الأول للتبشير بالعلوم الإنسانية ، وظهرت بوادر منهج

البحث العلمي خلال هذه الحقبة من الزمن، ونشأت جمعيات علمية تلتزم هذا الأسلوب من البحث، وسنعرض لها في الفصل الذي سنتناول فيه عصر النهضة.

محاكم التفتيش:

كانت محاكم التفتيش أخطر سلاح تقلدته السلطات الكنسية لمحاربة العقل الحر وجندلة أهله، ولهذا أثرنا أن نقف عندها قليلاً:

انتشرت الزندقة في جنوبي فرنسا الغربي — في لنغويدوك — واستقام أمرها على يد الأليبيين من رعايا أمير تولوز، فطلب إليه البابا أنسنت أن يستأصل الهرطقة من إمارته، ولكنه أبى الإذعان لمطلبه، وعندئذ نهضت الكنيسة لإبادة الحركة، فأعلنت غفران كل ذنب ارتكبه من يجاهد لاستئصالها واضطلعت بعبء حروب دامية، وصبت عذابها على أعدائها — ولو كانوا أطفالاً أو نساء — وتعقبتهم شتقاً وحرقة وإعداماً، حتى تلاشت مقاومتهم وإن بقيت آثار الهرطقة في نفوسهم. وانهى الصراع في مستهل القرن الثالث عشر (١٢٢٩م) بإخضاع أمير تولوز إخضاعاً تاماً، وكان أخطر ما أفضت إليه هذه الحركة، أن الكنيسة أدخلت في قانون أوروبا العام هذا المبدأ، أن الحاكم يحتفظ بعرشه متى قام بواجبه في استئصال الهرطقة، فان تردد في الاستجابة لأمر البابا باضطهاد الزنادقة، أكره على الطاعة، وصودرت أملاكه، وبيعت لأعوان الكنيسة وعرض نفسه للاعتقال، وبهذا أقر البابوات نظاماً بيوقراطياً تخضع فيه كل مصلحة لواجب العمل على صيانة الدين من كل أذى يصيبه.

ولم تكف الكنيسة بذلك، وإنما أخذت تتعقب الهرطقة في مظانها السرية إذ ليس يكنى القضاء عليها بالعنف، حين يستفحل أمرها، ولا النص على اشتراك السلطة التنفيذية في إبادتها متى ظهرت واستشرى داؤها، وإذن فلتأخذ الكنيسة حذرهما، فترصد عيونها يفتشون عن خصومها، وتقيم المحاكم

لتروع الملاحدة بأحكامها الصارمة . . . ولهذا أنشأ البابا جريجورى التاسع محكمة التفتيش أو ديوان التحقيق Inquisition عام ١٢٢٣ م ، ويمكن لهذا النظام أمر بابوى أصدره أنو سنت الرابع عام ١٢٥٢ م ، وضبط به نظام الاضطهاد كجزء رئيسى من السكيان الاجتماعى فى كل مدينة أو دولة ، وكانت هذه أداة لسكب التفكير الحر ، لم يعرف التاريخ لها نظيراً .

وقد اختير الرهبان وفوضت إليهم سلطة البابا فى اكتشاف الملحدين ، وكانت سلطتهم مطلقة غير محدودة ، لأنهم أعضاء فى ديوان التحقيق ، وكانوا لا يخضعون لرقابة ولا يسألون عما يفعلون . وتعاونت السلطة التنفيذية على إقرار هذا النظام ، فسوا القوانين الصارمة للتسكيل بالزنادقة ، وتساوى فى هذا أهل الغفلة مع أحرار الفكر من الحكام ، وحسبنا فى هذا الموقف الصارم الذى وقفه فى القرن الثالث عشر فردريك الثانى فى هذا الصدد ، فقد شرع القوانين التى تقضى بإهدار دم الملحدين وإحراق غير المرتدين إلى الدين ، وسجن من تاب وعاد إلى اعتناق دينه ، وإعدام من عاد فارتد ملحداً ، ومصادرة أملاك الملحدين ونسف بيوتهم . . . إلى آخر ما لا يتفق مع شهرته فى مجال الحرية الفكرية .

وقد توطد هذا النظام وشاعت المحاكم حتى غطت العالم المسيحى الغربى كله بشبكة لاسبيل لاتقائها ، واتصل أعضاؤها فى شتى الممالك وتعاونوا على الاضطلاع بهذه المهمة ، وإذا كانت انجلترا قد أفلتت من هذا النظام ، فإن حكومتها فى عهد هنرى الرابع والخامس قد قمعت الهرطقة باستعمال «الخازوق» تحت تمثال معين (عام ١٤٠٠ م - وإذا كان هذا النظام قد تقرر الغاؤه عام ١٥٢٣ ، فإنه أعيد فى عهد مارى ، ثم أبطل أخيراً عام ١٦٧٦)

وقد أصابت محكمة التفتيش فى أسبانيا أعظم نصيب من التوفيق فى توطيد الدين المسيحى ، إذ نشأ بها النظام فى نهاية القرن الخامس عشر ، ولبث قائماً بها حتى القرن الغابر ، وتميز عن غيره بميزات خاصة .

وكان من بين الوسائل الفعالة في مطاردة المارقين « فرمان الإيمان » الذى جسد الناس في خدمة ديوان التحقيق ، وحتم على كل امرئ أن ينهى إلى مركز هذا الديوان كل ما يبلغه من شأن الملحدين من غير تردد أو تباطؤ ، وللقصرين عقابهم الدينوى والروحى معاً ، ومن أجل هذا لم ينبج أحد من اشتباه جيرانه واساءة الظن به حتى في نطاق أسرته ، ولم يكن ثمة أبرع من هذه الحيلة الماكرة في قهر السكان جميعاً وشل تفكيرهم ، وردهم إلى الطاعة العمياء ، فانها رفعت التجسس إلى مرتبة الواجب الدينى الخليق بالإكبار .

أما الطريقة التى اتبعت في محاكمة المتهمين بالزندقة في أسبانيا فكانت تنكر كل طريقة معقولة لتوكيد الحقيقة ، فلم يكن المتهم بريئاً حتى يثبت إجرامه ، بل اعتبر كل سجين مذنباً . . . ! ومن ثم وكوا اليه عبء التذليل على براءته . . . ! وكان قاضيه هو المدعى عليه ، وكل من تقدم للشهادة ضده قُبلت شهادته ولو كان من أرباب السوابق ، وكانت قواعد ادعاء الشهود عليه مرنة طليقة ، وعلى عكسها كانت القواعد التى وضعت لرفض شهود الدفاع ، فمن حق اليهود والمغاربة والخدم والأقارب حتى الدرجة الرابعة أن يقدموا ضد المتهم أدلة تثبت إدانته ولكنهم ممنوعون من الشهادة في صالحه . . . ! والمبدأ الذى اعتنقته محكمة التفتيش كان يقول : لأن يدان مائة بريء زوراً وبهتاناً ويعانون العذاب ألواناً ، خير من أن يهرب من العقاب مذنب واحد . . . ! ومن ساهم في تقديم الوقود الذى يحرق به الزنديق فقد استحق المغفرة . . . ! على أن المحكمة مع هذا كانت فيما يظهر تشفق على نفسها من أن تتهم يوماً بالقسوة الصارمة ، إذ كانت تتقى الحكم باهراق الدم ، فلا تحمل تبعه الإعدام على « الخازوق » ، فكان القاضى الأكبر كى يعلن أن السجين ملحد لا أمل في توبته ، ثم يسلمه الى السلطة الزمنية ويلتمس عندها التزام الرحمة والرفق في معاقبته . . . ! وكان المفهوم أن السلطة الدينوية لا تستجيب لهذا المطلب ، بل لا تملك إلا اعدام المتهم بالهرطقة ، وإلا اتهمت بالعمل على ترويح الإلحاد . . . ! وقد كان القانون يلزم جميع الأمراء

والموظفين بالإسراع في تنفيذ العقاب فيمن أسلمهم اليهم ديوان التحقيق محرومين من السكنيسة .

أشاعت هذه المحاكم روح الصرامة والقسوة في الناس ، وكان لطريقتها في الاضطهاد تأثير بالغ السوء في فقه القانون الجنائي في أوروبا كلها ، ويرى الأستاذ لي Lea مؤرخ ديوان التحقيق ، أن أعظم الأخطار التي نجمت عن محكمة التفتيش ، ربما بدت في تقليد أكبر شطر في أوروبا لطريقتها حتى أواخر القرن الثاني عشر في معاملة من كان موضع اتهام . ويرى د جبون ، أن كراهية الإلحاد كانت نوعاً من الجرائم المعدية ، وأنها نشأت عن نظرية الخلاص على ما أسلفنا ، بل إنها اضررت بقيمة الحقيقة في ذاتها ، إذ جعلت قدر الإنسان في خطر ، فأصبح من المشروع ، بل من الضروري اتخاذ كل وسيلة تؤدي إلى تقوية المعتقد الديني ، بالغاً ما بلغ زيفها وخداعها ، أما تقدير الحقيقة لذاتها فإنه لم يحتل مكانه واضحاً في عقول الناس إلا في مطلع العصر الحديث — في القرن السابع عشر . . .

وقد ساعدت هذه المحاكم على إفساد الأخلاق ، إذ طالما أدى حسد العلماء بعضهم لبعض ، إلى اتهامات لا يبررها سند من الحق ، وقد راح ضحية هذا الحسد Pietro of albano في مستهل القرن الرابع عشر (١٣٠٢ م) متهماً من أحد حساده من علماء الطبيعة بالهرطقة والسحر ، وكان قد ترجم (١٢٩٢-١٢٩٣ م) كتب ابراهام بن عنذرا في علم النجوم — وقد نشرت عام ١٥٠٦ م — ووقع ما يشبه هذا لمعاصره البادوي Giovanning Sanguinnacci الذي اشتهر بأنه مجدد مهنة الطب ، ومع هذا فقد ولى الادبار ولم يكن هذا يبدع على محكمة كان قضاتها من الدومنيكيين في ايطاليا يدركون خطأ الاتهام وتداعيه ، ثم لا يمنعمهم هذا من إدانة المتهم . . . !!

وكان من أهم أعمال محاكم التفتيش وضع فهرست الكتب المحرمة على المؤمنين — وسنعود للحديث عنه في الفصل الذي سنعقده على عصر النهضة^(١)

(١) سنعرف في الفصل المشار إليه أن تاريخ الفهرست الصحيح إنما يبدأ بعد اختراع الطبعة .

روعت محاكم التفتيش العالم الأوربي الذي خضع لنفوذها ، وساعدت الكنيسة على التحكم في رقاب الناس ، وإثارة الفرع في نفوسهم ، ولسكنها مع هذا كله لم تستطع أن تقضى على نهوض العقل أو تعوق تقدمه ، بل ظهرت في عباب هذا الحول والطول تباشير الاهيار ، لأن تاريخ الاضطهاد يقول إن استخدام القوة ومطاردة الناس لا قناعهم قهراً لا يجدي فتيلاً ، بل إن الاضطهاد في تاريخه الطويل قد شجع الناس على اعتناق المذهب الجديد ، الذي يستشهد في سبيله أصحابه ، وهكذا أحاطت الكنيسة بقدسية نفسها بحرسها الحديد والنار ، وعلى هذا كله كانت على الدوام في فرع وروع ، لأن خصومها من أحرار الفكر ، كانوا يقتحمون حصونها ونيرانها في جرأة وجلد يثير كل دهشة ، بل أخذ يتهجم على قدسية سلطانها طائفة من المصلحين الذين ضاقوا بسوءاتها ، فأنهالوا على رجالها نقداً وعلى نفوذهم هدماً ، ولكنهم للأسف الشديد شاركوها خصومتها للعقل الحر ، وكان تاريخهم في النزاع معه لا يقل سواداً عن تاريخها ، فلنقف وقفة قصيرة لبيان هذا الهذر :

رهمية القأمين بالاصراع الديني :

إذا كانت الكاثوليكية قد ناصبت أحرار الفكر العداء ، وأصلتهم نارها في غير رفق أو هوادة ، فإن البروتستانية لم تكن أقل منها قسوة ومرارة ، وقد يبدو هذا مثيراً للدهشة ، لأن البروتستانت هم المنشقون على الكنيسة (الرومانية الكاثوليكية) الذين تمردوا على سلطانها وأنزلوا بها شر الحملات ، فألحوا في إرجاع الدين إلى الكتب المقدسة ورفضوا التسليم باحتكار الكنيسة لتفسير نصوصها ، وأباحوا للعامة الاطلاع عليها ومحاوله تفهمها ، وسلبوا الكنيسة حقها فيما زعمت في غفران الذنوب ، والاتجار بصكوك الغفران وثواب الآخرة وسعادتها . . . إلى آخر ما هو معروف عن حركة الإصلاح الديني . وقد خدعت هذه الظواهر بعض الكتاب ممن ألموا بالتيارات التاريخية إماماً سطحياً ، فصوروا الإصلاح الديني في صورة حركة عقلية

تولاها مفكرون سبقوا زمانهم بما امتازوا به من سداد التفكير ونفاذ النظر، ولو صحت هذه النظرية لوجب أن يعتبروا من رواد الفكر الحديث الذي نَعْنَى في كتابنا هذا ببيان الاضطهاد الذي عانوه على يد الكنيسة ورجالها، ولكننا نظمناهم مع رجال الكنيسة على ما بين الفريقين من خصومة، وأهملنا ما لا قوة من اضطهاد الأخيرين، وعيننا باسئراهم مع الكنيسة في اضطهاد رواد الفكر الجديد، ولهذا الموقف ما يبرره، وأول هذه المبررات أن حركتهم كانت دينية وليست عقلية، وأنهم كانوا رجال دين عبروا عن روح عصرهم وروح العصر السابق لهم، ولم يكونوا رجال فكر سبقوا زمانهم، ومن أجل هذا لازمتهم سوءات الحركات الدينية من تعصب ذميم لكل ما يالفون، وضيق صدر بكل جديد.

كان دعاة الإصلاح الديني يلوذون بالعقل ويعتصمون بشريعته في مهاجمة رجال الأكليروس والكشف عن فضائهم وسوءات تصرفاتهم، فشدت هذه الظاهرة بعض الكتاب، وأعمتهم عن كنه القوى الخفية التي تسيرهم، وظنوا وهما أن العقل رائدهم وأنه الهادي إلى حركتهم، وسار في ركبهم بعض من عرض للبحث في دعوتهم، وتخلف هذا الظن ولبث عند بعض المتأخرين من الكتاب، فن ذلك أن لافيس ورامبو في كتابهما «التاريخ العام» يفسران الإصلاح الديني بأنه نشأ من قراءة الانجيل، وقد أدت إليه «تأملات فردية أورثها قلوب البسطاء عقل جرىء»، ولعل الأصح أن نقول مع «لوبون» وبيوري ومن إليهما، إن حركة الإصلاح لم تنشأ عن بواعث عقلية، وليس الاستدلال المنطقي هو الذي أدى إلى نضجها؛ وإنما قامت على عواطف وتدينات، وجرت على منطق ديني مشبع بالمشاعر والعواطف، ولا تربطه بمنطق العقل صلات، بل إن عناصر التأمل والتفكير فيه ضئيلة، ولم يكن هذا الإصلاح في بدايته دعوة إلى حرية التفكير، بل كان مجرد انتقاد ينصب على تصرفات الأكليروس البغيض، والتبشير بالتزام العمل بما تقضى به نصوص الإنجيل،

وربط العقل بقيودها ، والملاحظ أن البلاد التي سادها الإصلاح الديني ، أخذ فيها الملوك مكان البابوات حقوقا وسلطانا ، وأكروها رعاياهم على أن يكونوا على دينهم ، وكان أصدق مثل لهذا الحكومة التي أنشأها كلفن في جنيف ، وجمع فيها بين السلطتين الروحية والزمنية ، وسلط قواه على الشعب حتى يدين بما يدين به المصلح . . ! إن فهم هذه الحركة في ضوء المنطق الديني يتكفل بتفسير الغامض من ظواهرها ، والكشف عن سر الاضطهادات التي أنزلها زعمائها برواد الفكر الحديث من رجال العلم والفلسفة ، إذ ليس بغريب على من قاده خلق التدين والحماسة الشديدة ، وكان شأن العقل في تصرفاته ضئيلا ، أن يكون على خلق كلفن الذي كان لا يتردد قط في إعدام من خالفه في مذهبه ، ولا يستحي أن يقول إن الله يريد أن يقصى الإنسان الرحمة الإنسانية بعيدا عنه ، عندما يعتنق الجهاد في سبيله . . !!

كانت حركة الإصلاح صدى لروح العصر ولم يكن لأهلها سبق عقلي على أهل زمانهم ، والذي ساعد عليها هو اندحار قوة البابا في أوروبا وسقوط الدولة الرومانية المقدسة ونمو الممالك القوية التي حددت فيها المصالح الدنيوية السياسية الاكبركية والتي ترقفت فيها الدولة الحديثة؛ وانتصر الإصلاح الديني في ألمانيا الشمالية لأن الأمراء انتصروا له ليفيدوا من مصادرة أملاك الكنيسة ونحوها . وهذا بالإضافة إلى أن سببه الرئيسي يرجع إلى فساد الكنيسة منذ زمان ، واهتمام البابوات بمصلحتهم الدنيوية ، وقد كان كل فرد في أوروبا يشعر منذ القرن الرابع عشر بهذا النقص ، ويعرف وجه الحاجة إلى إصلاح الكنيسة . فيما يقول بيورى - فظهور لوثر وأمثاله كان تعبيراً عن روح عصرهم وما سبقه ، ولم تكن ثورة لوثر ثورة عقل متمرّد على عقيدة ، بل كانت ثورة شعور واسع النطاق يناصب الاكليروس العداوة . ومن أجل هذا كان من الخطأ أن يقال إنه مكن لحق الفرد في إصدار الأحكام المستقلة ، وأقر الحرية الدينية ، فليس من شيء كان أبعد عن عقول قادة الإصلاح الديني

من التسامح مع النظريات المخالفة لآرائهم ، وإذا كانوا قد قوضوا سلطة البابا ، فقد أحلوا مكانها سلطة الإنجيل ، ولكنه كان الإنجيل كما فهمه لوثر أو كما عرفه كلفن ، ولم تكن الحروب الدينية التي ثارت ، ترمى إلى إقرار الحرية ، بل كانت نزاعا بين معتقدات دينية .

ولعل من الإنصاف أن نقول إن السلطات الكاثوليكية لم تناقض نفسها بهذا الاضطهاد ، لأن من حقها حماية الدين والذود عن تعاليمه ضد كل عدوان — وإن أخطأت سبيل هذا الدفاع — أما السلطات البروتستانية فإن اضطهادها للعلم يتنافى صراحة مع المبادئ التي وضعها أهلها أساسا لحركتهم في الانشقاق عن الكنيسة الكاثوليكية ، كإقرار المبدأ القائل بحق الحكم الفردي لكل إنسان ، ويضاف إلى هذا أمران ، ينبغي ألا نهملهما عند تقدير التبعة التي يحملها كل من الطائفتين ، أولهما أن البرتستانتين لم يؤتوا من السلطان ما كان للكاثوليك ، وعندما تهيأت لهم هذه السلطة — على يد كلفن في جنيف مثلا — لم يكونوا أقل وحشية من الكاثوليك ، وثاني الأمرين إن الكاثوليك إذا كانوا قد حرّموا الحقائق التي اهتدى إليها علم الفلك الحديث في أوروبا الكاثوليكية إبان القرن السابع عشر والثامن عشر ، فإن السلطات البروتستانية قد أنكرت الحقائق التي كشفها علم طبقات الأرض وعلم الحياة والانتولوجيا ، وحظرت الجامعات الأمريكية تدريسها إبان القرن الغابر .. فيما يقول هوابت — ولم يكن البروتستانت أقل تشبهاً بالمعنى الحرفي للنصوص المقدسة من الكاثوليك ، وقد بلغ أمر هذا التعصب بكبيرهم لوثر ، أن اعتبر هذه النصوص في معناها الحرفي الظاهر ، المصدر الوحيد للعلوم الطبيعية كلها .. مع أن العلم الطبيعي كان شعار الفلسفة والتعليم الحديث عامة في عصر لوثر ، ومع هذا رفض التأويلات المجازية والصوفية ، وقرر أن العلوم الطبيعية أداة لخدمة التقوى والصلاح .. وإلى مثل هذا الاتجاه ذهب كلفن ..

وإذا كان لوثر قد احتج على كبح الآراء وإحراق الملحدين ، فقد كان

هذا يوم كان يخشى أن يكون مع جماعته ضحية هذا الاضطهاد الكنسي الدامى ، فلما أمن شر خصومه ، وقوى مركزه وتوطد نفوذه ، أعلن رأيه الصحيح ، فأوجب على الدولة أن تفرض ما يبدو لها رأيا سليما ، وأن تستأصل الهرطقة لأنها رجس من عمل الشيطان ، وأوجب على الناس أن يطيعوا أميرهم في أمور دينهم وديناهم على السواء ، وصرح بأن غاية الدولة حماية الدين من المارقين ، وجاهر بإعدام طائفة الأنابا بتست بالسيف بعد انسلاخها عنه ، وبهذا أدت عقيدة الخلاص إلى نتيجة واحدة عند الكاثوليك والبروتستانت معا ..

أما كلفن فقد كان أشد تعصبا لأرائه وضيقا بمخالفيه ، وقد انفق مع لوثر على إقرار السلطة المطلقة للحاكم ، وانتصر لسيادة الدولة عن طريق الكنيسة ، فأيد بذلك حكومة التيوقراسى التي يتولاها رجال الدين الذين يعملون بما يوحى إليهم ، بل أنشأ حكومة من هذا النوع في جنيف ، فجمع بذلك بين السلطتين الروحية والزمنية ، وتمكن بهذا أن يسحق حرية النظر العقلى وينكل بخصومه سجنا ونفيا وحرقا وإعداما ، وموقفه من مصرع سرفيتوس ، أعدل شاهد على ما نقول ، فقد كتب سرفيتوس الأسبابى يهاجم عقيدة الثلاث (الآب والابن وروح القدس) ، وسجن في ليون (لأسباب كان منها دسائس كلفن) ولكنه فر من سجنه ولاذ مسرعا بجنيف حيث يقيم كلفن حكومته ، ولما حوكم بها أدين وصدر قرار باعدامه عام ١٥٥٣ م ، وقد أثنى « ملانكتون » — الذى صاغ مبادئ الاضطهاد — على هذا العمل كمثل طيب للأجيال التالية . . . ولكن هذه الأجيال قد أحست بالمهانة لارتكاب هذا الجرم ، حتى شعر أتباع كلفن في صيف عام ١٩٠٣ أنهم مضطرون لإقامة ضريح تذكارى للتكفير عن خطأ كان خطيئة العصر كله — فيما يقول بيورى .

وفى الحق إن عقائد البروتستانت لا تمثل حركة التنوير Enlightenment ، بل إن الاصلاح الدينى قد عادى الثقافة كما تصدى لمقاومة حرية النظر ، وكان العلم متى حاد عن مظاهر الانجيل ، تصدى لمقاومته لوثر (البروتستانتى)

والبابا (الكاثوليكي) على السواء ، وقد أخفق تطور العلم اخفاقا معيبا في ألمانيا التي انتصر فيها ركب البروتستانتية .

بل لقد عاق الإصلاح الديني حرية النظر العقلي من طريق أخرى غير مباشرة ذلك أن الكنيسة التي كان يهاجمها المصلحون كان عليها أن تناضل من أجل وجودها ، وتكافح لتثبيت سلطانها ، وليس إنشاء محكمة التفتيش في روما والرقابة على المطبوعات وإعداد ثبوت للكتب المحرمة على المؤمنين ، إلا حركة أريد بها مقاومة الإصلاح الديني ، ورجع أدت إليه حملات خصومها ، وهذا كله بالإضافة إلى ما يقوله تاريخ التفكير الحر ، من أن البروتستانتية بمختلف شعبها — من لوثرية وكفنية وأنجليكانية — قد أقرت عقوبة الإعدام قانوناً يخضع له كل من خالف عقيدتها ، وقد قاوم زعيمها الأول — لوثر — المذهب الأرسطاطاليسي وسمى صاحبه بالخنزير الدنس الكذاب ، وقال عن كويرنيكوس وهو أول رائد عرفه تاريخ علم الفلك الحديث ، إنه منجم مافون مصاب بفس ، ولم يكن الزعيم الثاني — كلفن — بأرحب صدرأ من صاحبه ، وإن كان أقصر باعأ في مجال السباب ، فقد قاوم حرية التفكير ونكل بمن وقع في يده من أهلها شر تنكيل ، ومن ذلك أنه أعلن تكفير كل من أنكر القول بأن الأرض مركز الكون .

على أن من الإنصاف أن نقول إن الإصلاح الديني قد أيد قضية الحرية عن غير قصد منه ، إذ كان هذا التأييد على كره منه ومن زعمائه ، وكانت نتيجه في هذا الصدد بطيئة وغير مباشرة ، ولم يكن في الإمكان أن تنتصر قضية الحرية على السلطة الدينية ، ولكن هذه قد ضعفت بتعدد الآلهة وكثرة السلطات اللاهوتية ، وزعزعة التقاليد الدينية بحركة النقد التي أثارها الإصلاح الديني ، وهذا بالإضافة إلى أن السلطة الاكيريكية العليا كانت في الدولة

البروتستانتية في يد الحاكم ولهذا الحاكم مصالحة الدينوية وظروفه السياسية التي تضطره إلى العدول عن تعصبه الديني .

على أن الثورة البروتستانتية في وجه الكنيسة ، كانت تستند إلى اقرار حق الحكم الفردي ، وهو مبدأ الحرية الدينية ، ولكن المصلحين قد أكدوا هذا الحق لأنفسهم وحرموه على غيرهم ، بمجرد أن صاغوا دينهم ووطدوا مركزهم ، وكان في هذا التناقض الصريح في موقفهم ما يوهن نفوذهم ويضعف سلطانهم ، إذ لماذا يخضع الناس فير السلطة الكنسية في روما ليخضعوا لسلطة لوثر على حدائته . . ! إن التمرد على روما ينبغي أن يقوم على العقل وحده ، وما دام العقل أساس التمرد فلن تقف الثورة عند لوثر أو كلفن أو غيره من الثائرين ، إلا إذا افترض الناس أن أحدهم يصدر عن إلهام ! وإذا رفض الناس الخرافات كما رفضها هؤلاء المصلحون ، فلا شيء قط — مع استثناء سلطتهم — يمنع من رفض الخرافات الأخرى التي تمسك بها دعاة الإصلاح ، على أن دعوتهم في رفع احتكار الكنيسة لتفسير الكتاب المقدس ، وإباحة حق تفهّمه للناس جميعاً ، لفتت أنظار الناس إليه ، وإذا كانت دراسة الانجيل لم تصادف قبولا في الجامعات الألمانية حتى القرن السابع عشر ، بل لم يحدد الانجيل بين الجمهور قراءاً كثيراً قبل القرن الغابر ، فإن اتجاه الناس إلى دراسته وإن جاء متأخراً ، قد أفضى إلى حركة من النقد كان لها أثرها في اقرار الحرية الدينية ، ومن ثم في توكيد النظر العقلي ، وقد عاش النقد الانجيلي في جو بروتستانتى ، ومن هذه الناحية كان المذهب البروتستانتى أداة لاقرار كفاية العقل للتفكير ، وتوكيد النزعة العقلية ، وهذا هو الذى خدم قضية الحرية على غير قصد من دعاة الإصلاح الدينى — فيما يقول الاستاذ بيورى — وقد مكن لهذه القضية وخدمها عن طريق مباشر ، طائفة من المصلحين اتهمها البروتستانت — والكاثوليك — بالإلحاد ، وأغفل الناس أمرها حتى أصبح الذهن لا يلتفت إليها إذا ذكر الإصلاح الدينى ، وهذه الطائفة هي « الصوصنية » ، فلنقف عندها قليلا :

أمرار الفكر من المصلحين :

الصوصنية طائفة من المصلحين الطليان الذين انشقوا على الكنيسة في روما إبان القرن السادس عشر ، وأنكروا عقيدة التثليث ، وأقاموا مبدأ التوحيد في المسيحية وأنكروا ألوهة المسيح ، ونسبوا الربوبية الى الآب (وهو الأقنوم الأول في الثالوث الأقدس) فقاومت الكنيسة حركتهم وأفلحت في قمعها ، وفر الكثيرون منهم متهمين بالهرطقة إلى سويسرا ، ولكن المصلح المنشق على الكنيسة وكالفن ، قد طاردهم بتعصبه الذميم فلاذوا بترنسلفانيا وبولندة فراراً ، وهناك نشروا عقيدتهم التي أقاموها على مبدأ التوحيد ، وقد ضاع هذا المبدأ Fausto Suzziono الذي أطلق اسم Socinus علماً عليه . وقد كانت أصول الإيمان عند طائفته (١٥٧٤) تقضى بانكار الاضطهاد ورفض القوة أداة لخدمة الدين وتوكيد عقائده ، وكانت هذه نتيجة طبيعية أدت اليها النظريات الصوصنية إذ كان أتباعها - على عكس لوثر وكلفن - يبشرون بحرية التفكير الصحيحة ، ويلحون في منح كل انسان حق الحكم الفردي في تأويل الكتاب المقدس ، فسكنوا بهذا للنزعة العقلية التي كانت تعوز عقائد التثليث وساهموا بهذا في الدعوة لحرية النظر العقلي وتوفير أسباب الطمأنينة لرواد الفكر الحديث .

وتحت تأثير الروح الصوصني ، أعلن Castellion of Savoy مبدأ التسامح في رسالة شهير فيها بتعصب كلفن وحقده ، وندد بموقفه من إحراق سرفيتوس وسخر من ذلك الاهتمام الذي توليه الكنائس للسائل الغامضة ، كعقيدة التثليث والقضاء والقدر Predestination وأعلن أن الدين إذا صاحبه الاضطهاد كان لعنة ومجلبة للمحن .

وقد طارد الصوصنية خصومهم في بولندة فانطلقوا إلى ألمانيا وهو لندة وكانوا وحدثهم الممثلين لمبدأ التسامح ، فاعتنقهم منهم في ألمانيا الانابابست ، وهم طائفة ثورية دينية تابعت لوثر في أول أمرها ثم لم يرقها منه اعتداله ولينه

فانسلخت عنه ، وقاتلتهم الكنيسة الكاثوليكية قتالا داميا انتهى بسحقهم ، كما سلم بهذا المبدأ في هولنده طائفة أرمينية في كنيستها التي أوى إليها الاصلاح . على أن مذهب الصوصية وإن كان قد ساهم في تحرير النظر العقلي ، إلا أنه شجع قيام الاتحاد الوثيق بين الدولة والكنيسة ، بيد أن الاتجاه الذي يمكن لحرية التفكير ويرفع كل عرقلة في طريق أهلها ، هو الفصل بين السلطتين : الزمنية والدينية ، وهذا هو الرأي الذي ذهب إليه جماعة الأناباطست ، وربما عدنا إلى بيان أثره في مناسبات أخرى .

كلمة أخيرة :

والملاحظ في نزاع العقل والإيمان ، أن قوات السلطة أكبر من قوى العقل عدة وعددا ، وأن القائلين بكفاية العقل كانوا قلة طوال هذا النزاع ، ولم يكن للعقل من سلاح يحميه من هجمات خصومه إلا منطقته ، أما السلطة فقد تعددت القوى المقاتلة من أجلها ، وسخرت إلى جانبها أسباب الاضطهاد والإذلال بمختلف صورته ، ولكن سلاح العقل مع هذا كان أمضى وأصلب قناة ، حتى لقد كانت السلطة كثيرا ما تلجأ إلى استعارته لمحاربة خصومها ، وكانت هذه هي نقطة الضعف في كفاحها ، ومنها تداعى بنيانها الشامخ ، لأن أنصارها حين لجأوا إلى العقل واستمدوا منه العون في محاجة خصومهم ، انتهى بهم منطق العقل إلى آفاق أدت إلى إثارة الشقاق بين هؤلاء الأنصار أنفسهم ، فكان سلاح أعدائهم حين انتقل إلى معسكرهم ، قد انقض على قواهم وأدار الدائرة عليهم — على نحو ما سنعرف عند الكلام على العصر الحديث .



حسبنا هذا من مظاهر السلطة التي تهيأت لرجال الكنيسة ، وقد لاحظنا أن مردها إلى طبيعة العقل البشري وخصائص المعتقد الديني وتسلط الجهل

على روس الناس، وامتداد نفوذ الأكليروس إلى الشؤون الدينيّة، والهيمنة على السلطات التنفيذيّة، وتضافر خصومها من المصلحين معها على مقاومة النظر العقلي الحر، وقد مكنتها هذا السلطان الواسع النطاق من فرض محاكم التفتيش للتحكم في رقاب الناس واستعباد الجامعات والتحكم في شؤون العلم الديني والديني معاً، وقد نشرت هذه السلطات لخصومها صحيفة اتهام بالكفر تسجل فيها أسماءهم وعناوين كتبهم حتى لا يمسها المؤمنون ..! والعالم الأوربي يمضي في هذا التيار الجارف وقد أغمض عينيه وأسلس قياده، حتى أذن فيه مؤذن العقل في فجر العصر الحديث فاستجاب له! ..

مصادر الفصل (عدا ما ذكر منها في صلب الكلام)

1. J. W. Draper, History of the Conflict between Religion & Science
(١٩١٠ الطبعة الخامسة والمعمرون . وقد ترجم إلى الفرنسية بعنوان : Les Conflits

de : الطبعة التاسعة عام ١٨٩٣ وهي لا تحمل اسم المترجم !

2. Prof J. B. Bury, A History of Freedom of Thought.

3. A. Dickson White, A History of the Warfare of Science with Theology in Christendom, 2 vols.

- وهو كتاب قيم تجاوزت صفحاته الثمانمائة ، وقد ترجم الأستاذ اسماعيل مظهر الأبواب الثلاثة الأولى من الجزء الأول من هذا الكتاب (وهي ١٧٠ صفحة) ونشرها تحت عنوان : « بين الدين والعلم ، تاريخ الصراع بينهما في القرون الوسطى (كذا ! !) . إزاء علوم الملك والجغرافيا والذئب » وخدم المترجم الفاضل ترجمته الطيبة بشروحه ورجوعه إلى أصل المقدسة

4. Ch. Singer, Religion & Science (Considered in their historical relations (928.)

(٥) فرح أنطون : ابن رشد وفلسفته (٦) محمد عبده : الاسلام والنصرانية

ثم مصادر عامة لمن شاء التوسع في فصول الكتاب كلها :

Ch. Watts. Freethought, Its Rise, Progress and Triumph.

S. Maréchal, Dictionnaire des Athées 1800.

J. M. Wheeler, Biographical Dictionary of Freethinkers.

W. E. H. Lecky, Hist. of the Rise, Influence of the Spirit of Rationalism in Europe, 2 vols.

Van Mildert, Historical view of the Rise and Progress of Infidelity 2 vols.

Science & Religion.

ويضم اثنتي عشرة كلمة ألفت في محطة لندن للاذاعة اللاسلكية من سبتمبر إلى ديسمبر ١٩٣٠ فسر فيها العلاقة بين الدين والعلم علماء وفلاسفة ورجال دين .

Mr. Riddle, Natural Hist. of Infidelity and Superstition in contrast with Christian Faith.

Bonner, penalties upon Opinion.

الفصل الثاني

العقل والايان

في فلسفة اليونان والرومان

تمهيد — رأى سانت هيلير في أسباب الأصالة في تراثهم — رأى لفتنجستون في أسباب حرية الفكر عندهم — دين اليونان وعلاقته بالنظر العقل — رواد الفكر الجديد في اليونان — مصرع سقراط وأسبابه — موقف الأبيقورية والرواقية — موقف الرومان من حرية النظر العقل — كلمة أخيرة .

تمهيد:

رزح العقل البشري في حضارات الشرق القديم ، تحت ضغط العقائد الدينية ، واستعباد الأغراض العملية ، ثم تحرر من جميع هذه القيود على يد اليونان ، وعاش في ظلهم طلقا فتيا ، يجهد لخدمة « الحقيقة » منساقا ببواعث اللذة العقلية وحدها ، فكان اليونان بهذا أول من « أبدع » حرية التفكير والبحث في تاريخ الإنسانية كلها ، وقد تكفل هذا وحده — بصرف النظر عن عبقرية التراث العقلي الذي خلفوه — بأن يضعهم في طليعة الشعوب التي يدين لها التقدم الإنساني بأوفر نصيب .

رأى سانت هيلير في أصالة تراثهم:

ولعل مرد الأصالة في تراثهم الى تحرر العقل من ضغط العقيدة الدينية ونفوذ رجالها ، فإن فلسفتهم « بتامها كانت موضوعة في وضع استثنائي أفادها جذاً ، وهو أنها لم يكن أمامها أبداً ديانة مبنية على كتب مقدسة ، وقد كان الأمر على ضد ذلك في مصر ويهوده وفارس والهند حيث لم تكن الحال قاصرة على أن الدين قد سبق الفلسفة في تلك البلاد كما هو الحال عادة في كل زمان ، بل إنها اعتمدت فوق ذلك على أسس معتبرة أنها إلهية أما في بلاد الإغريق فلم يكن ما يشبه ذلك ، لأن الاغريق لم يكن لهم كتب إلهية

ولا موحى بها وقد كان أرفى و لينوس وسائر المرتلين الأقدمين الذين كانوا ينشدون آيات الأسرار الأولى ، كلهم ما كان يتكلم إلا باسمه هو ، دون أن يسند ما يقوله إلى الإله ، ولما كان الإشراف بالله متغير الصور ، مشورا في البلاد لا ينتظمها على حال واحد ، لم يستطع الوصول إلى تأليف جسم من المذاهب قد يصير ديانة ذات قوام خاص ، فلم يكن للسكينة نقابة قوية ذات سلطان ، وكان الناس يحترمونهم ولكن لا يطيعونهم ، ولم تكن الروابط بين الهيئتين إلا مفسكة القوى ، لأنها إنما تبحث عن معتقدات عامة ، يغير من عرفها في كل جهة أساطير محلية لا نهاية لها ، وعن بعض احتفالات عامة لم تكن إلزامية ، وهواتف يستشيرها الناس وقتما يريدون ، وألعاب عمومية ، والكتاب الوحيد الذى أخذ بمجامع قلوب الإغريق إنما هو قصيدة حماسية ، إن قصيدة حماسية من شعر الحماسة تسحر العقول ولكنها لا تهديها ، تأخذ بالقلوب ولكنها لا توجب الإيمان ، إنها تنمى الإحساسات الشريفة بما تقدم من التذكارات الوطنية ولكنها لا تسوى سبيل السلوك ، فإلى قصيدة حماسية بالتوراة ، ولا هى بالزاندافستا ، ولا بمنتراس البراهمة ، ولا بالقربان المثلث عند البوذيين ، فالواقع أن الفلسفة كانت هى وحدها دين الهلين .

وما تنسب عظمة الفلسفة الإغريقية التى لا تزال تدهشنا ، وتعلم منها بعد خمسة وعشرين قرنا ، إلا إلى استقلالها المطلق ، ولو أنها كانت تحت وصاية ديانة حسنة النظام ، أفكانت تظهر قواعدها بهذه السهولة التى ظهرت بها ؟ أو كانت تحيا تلك الحياة الطيبة القوية ! أو كانت تلد للعالم تلك الملح من التأليف ، وتؤتى ذلك الثمر اللذيذ أما كانت تدبيل هذه الخواص العجيبة لو أن العصاراة التى تغذيها جرت فى قنوات أخرى من قبل ، وخصوصا فى قنوات الديانة ! ولم يكن تاريخهم الخرافى إلا لعبا تلعب بها الملكات ، فكانت الخواص العليا للنفس ، فى سعة من أن تتخذ لها نحواً

جدياً آخر ، وتبحث عن غذاء لها أغزر مادة ، وأدخل في باب الحق . بعيد على أن أنكر نعم الديانات على الناس ، وأرى أن من الخير أن تكون قد سبقت الفلسفة دائماً وعند جميع الشعوب ، ولكني لا أستطيع أن أحجم عن القول بأنه إذا كانت ديانة الهلين أكثر جدية مما كانت عليه ، لاوشكت فلسفتهم وعلومهم أن تكون أقل في الجدمما كانت عليه بكثير ، وتلك خسارة لا تعوض على الاغريق ، وعلينا أيضا لأننا نحن أبناءهم ومظهر استمرار حياتهم ، (١)

رأى لفهمتموه في أسباب حرية الفكر عندهم :

هذه هي نظرة سانت هيلير إلى أسباب العبقرية اليونانية ، ونرجى مناقشتنا لها إلى حديثنا عن موقف الإيمان من العقل في القرن السابع عشر ، حين نبين عن «إمكان» الجمع بين النظر العقلي والإيمان الديني من غير تعارض ، كماأشرنا في مقدمة الكتاب وحسبنا الآن أن نقول إن هذا الرأي الذي ذهب إليه هذا المفكر ، قد أيده غيره من المفكرين ، بل توسعوا فيه كثيراً ، فمن ذلك ما تراه عندلفنجستون ، في حديثه عن الحرية في الفصل الثاني من كتابه (٢) ، إذيرد عبقرية الاغريق إلى الحرية الدينيةوالحرية السياسية معا ، ويسوق المثال بأفلاطون الذي يناقش في جمهوريته أعمق المشاكل السياسية في حرية وحذق وعمق لم يبه فيها عصر تلاه ، ومثل هذا يقال في غيره من المفكرين ، ومرد هذه الظاهرة عند اليونان إلى ما يسميه جوته Goethe بصدق النظرة ، التي ترجع إلى التحرر المطلق من القيود اللاهوتية والأخلاقية والسياسية ، وهو تحرر إن بدا طبيعياً في عصرنا الراهن ، فان قيامه عند شعب عريق في القدم ، يعتبر ماثاراً لكل دهشة .

(١) Barthélémy Saint - Hilaire برنلمى سنهليلير في مقدمته لترجمة كتاب الكون والفساد

لأرسطو ، والنص من ترجمة أحمد لطفى السيد باشا س ٨٨ - ٩٠

(٢) Greek Genius, its meaning to us. (٢)

ويعضى لفتنجهستون في شرح رأيه فيقول إن من الشعوب من تستعبده
الاعتبارات اللاهوتية والأوضاع الدينية ، إن وجود أفرادها مرهون بخدمة
الله ، وكل عمل لا يبدو على اتساق مع هذه الغاية يستبعد من مجال حياتهم ،
فالمسلم ممنوع من مزاوله النحت والرسم ، لأن جسم الإنسان من صنع الله
وحده، ومن شأن الرسم والنحت أن يؤديا إلى الوثنية، واليهودى مطالب بتعطيل
أعماله يوم السبت من كل أسبوع لأنه يوم مقدس ، والمسيحي في العصور
الوسطى ممنوع من الاعتقاد في صحة الألتسيود، والاعتقاد بأن جانب الأرض
السفلى معمور بالسكان ، ومن هنا جاء إذعانه للتسليم بالكرة الأرضية كما
وردت في الكتاب المقدس .

ومن الشعوب من تستعبده الاعتبارات السياسية، فالآداب والفنون مثار
الظنون لأنها تضر بمصالح الدولة ، والمملذات البريئة محرمة على أفراد هذه
الشعوب ، وحياة الأسر قد تعطبغ بألوان سياسية، فللرجل السيطرة وللرأة
إنجاب الأولاد ، وكلاهما أداة لخدمة الدولة ، إنها عبودية الفرد لصالح المجموع
وقد بدت حتى في جمهورية أفلاطون، وتاريخ اسبرطه وروما وغيرهما من الدول
حافل بمثل هذه الشواهد . من واجب الفرد في هذه الشعوب ان يقف حياته
لخدمة وطنه ، أو لإرضاء ربه ، ومن هنا كان التصديق على حربته ، والحد
من نشاطه وحركته ، بقيود صيغت أوامر ونواهي تملى عليه ليذعن لطاعتها
راضيا أو كارها .

هذه عبودية لا يكاد يخلو من الإذعان لها شعب من الشعوب ، مع استثناء
الاغريق ...! في بلاد اليونان وحدها احتفظ الفرد بشخصيته واستقل بفرديته
ولم يتقدم قربانا لخدمة الله أو لمصلحة الوطن ، ومن هنا كانت عبقريته في صدق
نظراته ودقة تأملاته . وأما في غير اليونان فقد عاش الفرد عبداً للاعتبارات
الدينية ، وأسيرا للأوضاع السياسية. ومن هنا كان الحد من حرية النظر العقلي
عنده . فالبحث محرم في موضوعات محددة ، وفي غيرها قد يكون الناس على

اعتناق آراء بعينها . فان تجاوزها ضل سيلا وساء مصيرا ، أما عند اليونان فليس ثمة موضوع يستبعد من مجال البحث ، ولا يكره الناس على أن يدينوا برأى تمليه سلطة ، وسيان بعد أن يصيب في تفكيره أو يخطئه ، وأن يأتي عملا صالحا أو يرتكب ذنبا آثما . ومن هنا جاءت نظرتة إلى الأشياء كما هي في حقيقتها ، لا كما تصورها سلطة دينية أو سياسية .

على أن هذه الحرية المطلقة لم تمنع من اضطهاد سقراط وأنكساجوراس ودياجوراس وغيرهم ، ولكن مرد هذا الاضطهاد إلى أسباب شخصية أو سياسية ، ثم إن مقارنة هذه الاضطهادات الفردية القليلة بقصة الاضطهادات الدينية في عصر النهضة في إيطاليا ، تملأ الانسان إعجاباً بهؤلاء اليونان ، ففي نحو خمسين عاماً (بين سنتي ١٥٦٦ و ١٦١٩) أحرقوا في روما Carnesecco و Palezo و برونو J. Bruro . . . أحياء . . . وأحرق Vanini في طولوز ، وأعدم الكلفنيون چنتايل Valentino Gentile في بيرن ، وعذب كامبانيا في قسوة بالغة ، وزج إلى السجن سبعة وعشرين عاماً في نابلي ، وأكره جاليليو على أن يذل نفسه أمام رهبان جمعوا بين الجهل والغرور ، وشعر ساربي Sarpi بخنجر المغتال . . . وغير هؤلاء كثيرون . بل أدانت محكمة التفتيش في أسبانيا وحدها ٥٢٦ ر ٢٣٤ نسمة ، وأتهمتهم بالهرطقة وهي أفضح جرم كان يدان به إنسان ، فأين هذا مما سجله تاريخ الفكر الحر عند اليونان . . ؟ إن المفكر اليوناني لم يكن أسوأ حالا من هوبز في القرن السابع عشر ، أو من فلاسفة الألمان الذين استبعدوا من مناصبهم منذ أكثر من قرن لاتهمم بالكفر .

وينتهي لفتنجهستون بعد هذا العرض ، إلى التصريح بأن حرية الفكر عند اليونان — وقد جاءت قبل أوانها — مردها إلى أسباب أكبرها خطراً :

(١) أن ديانة الإغريق تدعن لنقد النقاد ، ويشهد بهذا موقف هؤلاء من الآلهة ، وقد روى اكسانوون عن هوميرو وهزيود أنهما كانا يعزوان

رذائل الانسان وسوماته الى الآلهة ، وقد صوروا هؤلاء في صورة الإنسان وأصافا اليهم نفسه ، بل ألخوا كل ما يثير الروع من ضروب الأهواء والدوافع والفضائل والمطالب والأوهام ... أله اليوناني كل مجالات نشاطه التي تكشف عن إعجاز ، فالموقد الذي أدفأه وأنضج طعامه والشارع الذي أقيم فيه بيته ، والحصان الذي سخره لخدمته ، والزوجة التي بنى بها ، والطفل الذي أنجبه ، والطاعون الذي اغتاله أو برىء من شره ... كل هذا قد أوحى اليه ياله .. !! ومثل هذا يقال في القوى المجردة من خوف وثوررة وسكرووررياضة وديمقراطية وحسد وجنون واضطهاد ونوم وجوع ونحوه ... تجسدت هذه القوى وكانت في بعض الحالات موضع عبادة ، فلم يكن عند اليوناني إله واحد يتحكم في الناس ويستبد بهم ، بل كان آلهتهم من صنع أيديهم ، من وحي خيالهم .. ومن الطبيعي أن يكون الناس أحرارا مع مخلوقاتهم .. إنهم هم الذين خلقوا الآلهة ، وليست الآلهة هي التي خلقتهم ، ومن هنا جاء استخفاف المفكرين بهذه الآلهة .. لقد كان الإله يشبه الحاكم الدستوري الذي يؤكد رعاياه على الدوام أنهم هم الذين رفعوه إلى عرشه .. إن ما سلكهم مقيد بالعمل على تحقيق رغباتهم ، ومن بين هذه الرغبات ، رغبتهم في أن يكونوا أحراراً .. (٢) وهذا بالإضافة إلى أن اليونان لم يكن لهم كتاب مقدس أوحى به سلطة الهية ، إن الانجيل جم الفوائد لمن يحسن استخدامه ، ولكن نصوصه البسيطة سرعان ما انتهت بالتأويل المتزمت عند الجهال إلى إعاقه الذهن عن إدراك الحقيقة ، فن آيات المزامير بصدد الشمس وجريانها ، نبت اضطهاد جاليليو الذي جهر بدوران الأرض حول الشمس ... ومثل هذا يقال في غيره من شواهد ، أما اليونان فقد كانوا بمنجاة عن مثل هذه الأخطار والمزالق ، وإذا كان هوميروس قد اعتبر انجيل اليونان ، فإن هذا التعبير مجازي مضلل .

لقد كان لبني إسرائيل وصايا يتقيدون بها ويلزمون باتباعها ، أما اليوناني فلم

يعهد هذه الوصايا المقدسة التي يوحى بها إليه ، فكان عليه أن يلجأ إلى منطق عقله ودقة حسه في التمييز بين الصواب والخطأ ، والخير والشر ، والحق والباطل ، والجمال والقبح ، والكمال والنقص ، وكان عقله المصنع الذي صيغت فيه عقائده ، فكان ينكر من تقاليد الدينونة كل ما لا يتمشى مع منطق عقله ، على عكس ما كان بنو اسرائيل ، لقد كان اليوناني متدينا بالمعنى الذي ينسحب على رواد الكنيسة في أيامنا الحاضرة ، فلم يكن يفهم التدين على نفس النحو الذي بدا عند القديس أوغسطين أو بسكال أو نيومان وتولستوى ومن إليهم ، فلم يكن الله عنده المعبود الذي يتجه إليه كل عمل يقوم به أحد من البشر ، ولم يكن في نظره العلة المباشرة لكل شيء في الوجود ، ومن هنا قيل إن مرد الفسك الحر في أثينا الى عدم وجود إنجيل أوحى به الله الذي لا معبود سواه ، وإلى الاعتماد على العقل والاعتقاد بكفايته .

ويمضى لفرنجنستون فيقول إن اليونان إذا كانوا قد تحرروا من ضغط الدين وقيود تقاليد ، فقد كان هذ شأنهم في شئون السياسة كذلك ، ومع أن الحكومة قد أثقلت عاتق مواطنيها بالواجبات ، فإن الفرد لم تلاش شخصيته أبدا ، بل احتفظ بفرديته وسانها من التضحية لصالح المجموع . . . وقد بلغ من أمر هذه الحرية السياسية أن كان المواطن الطريد كثيرا ما ينضم إلى أعداء وطنه مختارا . . بل لا يكون اليوناني مقاتلا ممتازا حين يكون في حكم طاغية مستبد ، لأنه يقاتل في مثل هذه الحال من أجل سيد يستبد به ، فإن تحرر من طغيانه ، بدت شجاعته واكتسح أعداءه فيما يروى عنه هيرودوت .

والملاحظ أن حرية الكلام تحتل المكان الأول عند إريويدس ، فمن أخطأته نعمتها كان عبداً رقيقاً ، وقلها كانت الدولة تتدخل في حرية الناس في الكلام والنشر ، وليس أدل على هذا من روايات أرسطو فان التي كانت تمثل على المسرح وتزاول النقد في طلاقة ، وقد كابد نقده المر الأثينيون وساستهم في الحرب

البلونيزية . وإذا استثنيت أفلاطون ، جاز القول بأن جميع المفكرين السياسيين في اليونان قد حرصوا على احترام شخصية الفرد، واعتبروا الدولة مسخرة لخدمته . وتبدو الحرية الكاملة عند الوثني في خلو أحاديته من محاولة الالتجاء إلى ضغط القانون لجعل الفرد صالحاً خيراً ، وإقامة الاحتياطات التي تضمن تمسكه بوطنه « إن الجو السياسي الذي عاش فيه كان شديد الاختلاف عن الجو الذي نعيش فيه نحن الآن ، إنه خلو من الحديث عن النزاع بين الطبقات وصيانة مصالحها ، والخدمة العسكرية الإجبارية، وتحريم السكر والتعليم الديني ونحوه — وإن كان من الحق أن نعترف بأن الاسبرطين قد أعوزتهم هذه الحرية ، إذ كانت تربية الصغار وإعداد الكبار يتجه إلى التهيؤ للقتال ، ومن هنا كانت تضحية الفرد في سبيل الدولة ، وهذا ما جاهر به بيركليس واحتقره حين كره المنع والتحريم ، ونزع إلى ترك الفرد لنفسه حتى يكون موضع ثقة يجعله كفواً لأداء واجبه — كان المثل الأعلى عند اليوناني : حرية مطلقة غير مقيدة ، فهل من الغريب بعد هذا أن يكون العقل اليوناني على هذه المبادئ حراً طلقاً . . ؟

إلى هذا ينتهي لفنجستون من بيان البواعث التي أدت إلى حرية النظر العقلي عند اليونان ، فالتحرر من ضغط الدين والسياسة ضروري لتحقيق أسمى تقدم يطمح إليه العقل البشري ، وقيام الفلسفة والعلم مستحيل بغير هذه الحرية التي تمكن العقل من المضى في تفكيره حتى يسير نحو الأشياء ويكشف عن حقيقة جوهرها ، وقد تكتسب الآداب بمثل هذه الطريقة ، ولكن نجاحها قد يتحقق حيث يضمحل العلم والفلسفة ، وتاريخها أعدل شاهد على ما نقول .
فلنعد إلى بيان العلاقة بين الدين والفلسفة عند اليونان :

دين اليونان وعرفته بالنظر العقلي :

قيل إن أشعار هوميروس — الألياذة والأوديسا — كانت إنجيل الإغريق ، وهذا غير صحيح لأنهم لم يعتبروها قط من وحي الله ، وكانوا يعتبرونها

دنيوية لا دينية ، ورغم ما تهيأ لها من سلطان واسع النطاق على نفوس الإغريق ، لم تقو على تقييد العقل والحد من طلاقته — كما هو الحال في السكتب المقدسة — ومن أجل هذا لا يصادف نقدها ما صادف نقد الأناجيل من سورات الغضب ونزعات الانتقام، وساعد على نقدها ، ما تضمنته من ألوان الاستهتار والحط من المبادئ الخلقية .

ومع هذا فقد كان الدين الشعبي موضع احترام وتقدير ، وكان الشعب هو الذي يتولى اتهام المارقين ورفع أمرهم إلى القضاء ، ولكن العصر قد خلا من سياسة منظمة ترمى إلى قمع الفكر الحر والتنكيل بأهله ، ومن أجل هذا استهدفت المعتقدات الدينية للنقد وتعرضت للسخرية ، على يد مفكرين كانوا بمأمن من اضطهاد الشعب وضغط حكامه ، وأغلب الحالات التي حوكم فيها أحرار الفكر من فلاسفة اليونان ، مردها إلى أسباب سياسية وبواعث شخصية . وقد مكن لهذه الحرية الفكرية خلو البلاد من نظام كهنوتي ، يصبح معه قساوسة البلاد ذوى حول وطول ، ويمكنهم من الطغيان على مصالح الناس ، وإسكات أحرار الفكر منهم وقع كل نزعة ترمى إلى هدم المعتقدات وزعزعة التقاليد . وقد هيمنت السلطات المدنية على العبادات ، ورغم ما تهيأ لبعض الأسر الدينية من سلطان ، كانت كلبة الكهان لا تسمع إلا فيما يتصل بالطقوس الفنية .

وقد تفاوت نقد الدين الشعبي قوة وضعفاً ، فعرض بعض الفلاسفة إلى تقويض معتقداته في غير رفق ولا رحمة — كما سنعرف بعد قليل ، وحاول البعض الآخر أن يتحلل من تعاليمه ، فاعتبر الفيثاغورية آلهة الدين هي المعاني التي تحملها ، فثيرفا هي الحكمة — لآلهة الحكمة — وهكذا الحال في سائر الآلهة ومضى الرواقية في هذا الاتجاه ، فاعتبروا الآلهة قوى كونية .

وعندما غزا الرومان بلاد اليونان — ٤٦ ق.م — ، ألبسوا التراث اليوناني ثوبا لاتينيا ، وإذا كانت نزعتهم الواقعية لم تهضم ما تضمنه هذا التراث من وجوه النظر التجريدي المحض ، فحملتهم على تسخير العقل لخدمة الحياة العملية

— والخلقية منها بوجه خاص — فانهم — فيما يقول بيورى — قد واصلوا سياسة أسلافهم من اليونان فى احترام النظر العقلى الحر ، وعدم إخضاعه لاستعباد الأغراض الدينية .

هذا هو موقف اليونان من حرية التفكير إجمالاً ، وأنا لنلحظ روحهم حياً يسعى فيما خلفوه لنا من آثار ، وهو الذى أضاء العالم الأوروبى يوم انطلق إلى تراثهم يرتاد مجاهله ، وينقب عن آثاره ، ويلتمس عنده العون على اكتساح الجهالة التى خلفها ظلام العصر الوسطى ، ولهذا قيل إن المدينة الأوربية الحديثة تدين لمبدأ الحرية الفكرية أكثر مما تدين لتراث أهله فى شتى ميادين المعرفة البشرية ، لأنه كان مصدر الإبداع فى النظر الفلسفى والتفكير العلمى والنظام السياسى ، بل كان سر الأصالة فى ميادين الآداب والفنون ، فما كان ينتظر أن تبلغ ما بلغت من وجوه الطرافة والابداع ، لو عاق أهلها عن نقد الحياة عائق فلنعرض للإبانة عن هذه النظرة المجملة بشىء من التفصيل :

رواد الفكر الجدير فى اليونان

يتألف الاغريق من شعوب منفصلة بعضها عن بعض ، تختلف مزاج وعادات وتقاليد ، وإن جمعت بينها وحدة فى المظهر شاركت فيها جميعاً . وليس يعيننا الآن اختلافها فى الميول الرجعية أو النزعات التجديدية ، وتفاوتها فى عمق النظر وسمو الإدراك ، وحسبنا أن نخص بالحديث منها ما يتداعى ذكره مع تاريخ الحضارات ولا سيما الأيونيين والأثينيين .

كانت أيونيا مهد النظر العقلى الحر ، وعلى يد مفكرىها بدأ تاريخ العلم والفلسفة ، يوم استخدموا الحد والبرهان فى معرفة العلل والماهيات ، وحاولوا منذ القرن السادس قبل الميلاد ، أن يفسروا الكون وما يعتره من تغيرات ، وأن يعرفوا المبدأ الذى صدر عنه ، والمصير الذى ينتهى إليه . وإذا كان العقل اليونانى لم يتمكن من التحرر الكامل عن ضغط الأفكار الدينية الشائعة فى عصره ، فقد تيسر له — مع هذا — أن يعمل على تقويض الآراء والمعتقدات

الدينية وهو في مأمن من ضغط الدين وطغيان رجاله .

وفي طليعة رواد الفكر يقف اكسنوفان + ٤٨٠ ق . م ، وإن لم يكن أطولهم باعاً أو أكبرهم خطراً ، لأن موقفه من لاهوت عصره ، يصور لنا حرية الجو الذي عاش فيه هؤلاء الفلاسفة ، فقد كان يطوف بالبلاد معلناً باسم الأخلاق ، ماساوره من شك في المعتقدات الشعبية في الآلهة - ذكوراً وإناثاً ساخراً من ميل الإغريق إلى تشبيه آلهتهم بالإنسان ، وإضافة صفاته إليها ، فالآلهة عنده من خلق الناس ، المعرضين للفناء ، يرسمونها على صورتهم ، ويضيفون إليها ما لهم من عواطف وأصوات وأشكال ، ومن هنا بدت الآلهة في نظر الأحباش سود اللون فطس الأنوف ، وتمثلت عند أهل تراقيا زرقاء العيون ، حمر الشعر ، ولو كان للثيران أو الخيل تدير الإنسان ومقدرته على التصور ، لتمثلت الآلهة على مثالها .. والله واحد يسمو على الموجودات جميعاً ، يخالف البشر في صورته وتفكيره ...

وهذه الحملة التي وجهها للاهوت الشائع في عصره ، اتهم لثقة الناس في الشعراء ، ولا سيما هوميير ، أعظم مرجع للأساطير عند اليونان ، وقد تناوله أكسنوفان بالنقد اللاذع في غير رفق ولا رحمة ، وأنكر عليه أن يعزو إلى الآلهة أعمالاً تعد معرفة لمن يقدم عليها من البشر .. ، ومع هذا لم يحاول أحد أن يخفف من حدة هذا النقد الساخر ، أو يتعرض لصاحبه بوجه من وجوه الأذى مع أنه وصف هوميير بأنه شاعر فاجر . !

وقد ساهم الماديون من الفلاسفة القدامى في زعزعة الأفكار القائمة على الحس المشترك ، وتوجيه العقل في نظراته إلى السكون في اتجاهات جديدة ، وحسبنا من هؤلاء هيرقليطس وديموقريطس ، وكلاهما كان يضيق بالتصورات الشعبية للدين فيها جمه من أجل ذلك ، ويفكر حراً طلقاً ، ولا يجحد من القصص الخيالية ما يشبه القصص التي فرضتها السكتب المقدسة على الناس ، وعافت بها طلاقة تفكيرهم .

فأما الثاني فقد فسّر الوجود تفسيراً آلياً ميكانيكياً ، فاعتبر كل موجود لا يعدو أن يكون امتداداً وحركة ، يتألف من جواهر فردة هي وحدات متناهية في الدقة غير متناهية في العدد ، قديمة دائماً تتحرك بذاتها ، تقبل التجزئة ، بتلاقيها يحدث السكون ، وبافتراقها يقع الفساد ، تتشابه في طبيعتها ، ولكنها تختلف شكلاً ومقداراً ، وليس في الوجود موجود لا يخضع لهذا التفسير الآلي ، حتى النفوس البشرية والآلهة جميعاً ، ومن ثم اعترافها بالفساد بعد السكون .

ولم يتعرض لدعاة هذه النظرية أحد من أتباع اللاهوت في عصرهم ، وحسنا ما كان ، فقد وجدت النظرية من يعمل على إحيائها في مطلع العصر الحديث ، وسرعان ما اتصلت بأحدث نظريات المادة في الطبيعة والكيمياء . فأما هرقليطس فقد حقر من شأن المعتقدات الشعبية والتقاليد والعبادات الشائعة ، وقرر - رداً على الإيليين - أن الأشياء في تغير متصل ومن ثم يكون الموجود الجزئي ملتبس الأضداد ، وبهذا يتمتع كل علم ، فهد بهذا الحركة الشك السوفسطائي ، الذي شغل أتباعه النصف الثاني من القرن الخامس قبل ميلاد المسيح ، وهم طائفة من المعلمين انصرفوا عن التفكير في السكون الطبيعي إلى مشاكل الحياة الإنسانية - ولا سيما ما اتصل منها بالأخلاق والسياسة - وأخذوا ينتقلون في البلاد طويلاً وعرضاً مبشرين بدعوة العقل ، وتحكيمه في كل ما يصادفه الإنسان من مشاكل ، مهتمين بالبحث في طبيعة المعرفة وأدوات التفكير ، فاعتنقوا مذهب هيرقليطس في التغير المتصل ومضوا به حتى انتهوا إلى اعتبار الفرد مقياس الأشياء جميعاً ، فتأيدت النزعة الفردية بانتصارهم لاستقلال الفرد واحترام شخصيته ، وحمايته من تدخل الحكومة والجماعة معاً ، وأصبح الفرد بهذا معيار الصواب والخطأ في مجال العلم ، ومقياس الخير والشر في ميدان الأخلاق ، ولا عبرة برأي العرف ووحى التقاليد ، واتفق الخطأ ، وامتنع قيام الحقيقة لذاتها ، وتضامل شأن العلم واقتد قيمته الذاتية واختفت النزعة الموضوعية في النظر العقلي ومهد هذا لاستخفافهم بالعقائد السائدة

والتصورات الشعبية استخفافاً أدى إلى نقدها في غير رفق ولا هوادة ،
وأشاعوا التشكك في الدين وجهروا بالسخرية من شعائره وآلهته ، وكان رائدهم
في كل هذا التمشي مع منطق العقل الفردي ، والاعتصام بحرية البحث والنظر في
التقاليد والمعتقدات وتغليب النزعة الفردية على النزعة الموضوعية ، ومن
أجل هذا كان عصرهم أشبه ما يكون بعصر التنوير - فيما يرى بعض المحدثين
من أمثال تيودور جو مبرز .

وفي الحق لقد أثرت الثقافة الدخيلة عليهم تأثيراً واسع المدى ، في إخضاع
السلطة للشك الهدام ، وعملت رحلاتهم على تنمية روح الشك إزاء النقل
والرواية ، لأن من اقتصرت معرفته على تقاليد وطنه استجاب لوجها ، ومال
إلى رفعها فوق الشك والجدل ، فإذا شد رحاله إلى أمم جديدة ، وأدرك وجه
الخلاف المحوظ بين عرفها وعرف بلاده واطلع على ما لا عهد له به من
مقاييس السلوك ، ومعايير الفهم والتصور أيقن أن الأخلاق والأديان تختلف
باختلاف المكان ؛ ومتى انتهى إلى هذا الرأي تضاملت السلطة أمام نظره ،
وهان التهجم على قداستها .

وما من شك في أن هذه الحركات العقلية الهدامة ، كانت عند الإغريق -
هي في كل زمان ومكان - وقف على الأقلية المنتيرة ؛ أما سواد الجمهور فقد كان
نزاعاً لاحترام التفكير القائم على الأساطير ، ميالاً للاعتقاد بأن أمان مدينته
مرهون بارادة الآلهة ، ومن ساوره الشك في صدق هذه الخرافات الشائعة
مكن خصومه من اضطهاده ، وهذا ما وقع في أثينا فقد أضحت في منتصف
القرن الخامس أعظم ولايات الإغريق وأرفعها شأناً في مجال الآداب والفنون ،
وكانت قد استوفت حظها من النظام الديمقراطي ، فتنحروا الجدل السياسي فيها
من كل قيد ، وكان يتولى أمرها حاكم حر التفكير هو بيركليس ، إذ كان
على اتصال بالنظر العقلي الحر في عصره ، اتصلت أسباب الصداقة بينه وبين
الفيلسوف السوفسطائي أنكساجوراس الذي كان لا يؤمن بالهة الأثينيين

أذى إيمان؛ ولما دحرت أثينا غاره الفرس على بلاد اليونان، غادر الفيلسوف أيونيا وخف إليها ليعلم فيها، فدخلت الفلسفة أثينا لأول مرة، ووقف الفيلسوف من الآلهة موقف كفر صريح، وجارى الطبيعيين فى تفسير الكون تفسيراً آلياً، وكان خصوم بيركليس السياسيين يكيدون له، فسنوا قانوناً لمحاربة التجديف، ليستهدف للعقاب من ألد أو علم نظريات تتصل بالعالم السامى، وقد كان هذا العالم فى اعتقاد الأثينيين إلهياً، وتيسر لهم بعد هذا القانون أن يدللوا على أن «أنكساجورس» ملحد مجدف، يقرر أن الآلهة مفارقة للمادة والقمر أرض تحوى جبالات ووديان، والشمس التى يقيم لها الأثيني الصلاة كل صباح ومساءً، — هى وسائر الكواكب؛ كغيرها من الأجسام الأرضية، ليست إلا إجماراً ملتتهبة، فصدر قرار بإعدامه جزاءً وافقاً على تجديفه، ولكن بيركليس قد تمكن من إنقاذ صديقه من براثن الموت، وإن اضطر هذا إلى دفع غرامة فادحة.

واضطر بعدها إلى مغادرة أثينا، والالتجاء إلى لمباقوس Lampsacus بأسيا الصغرى — وفيها عاش مكرماً حتى وافته منيته .

وإذا كانت الخصومة السياسية قد استغلت الدين فى مثل هذا الاضطهاد، فإننا لا نعدم فى هذه الفترة وجود حالات تشهد بأن مهاجمة العقائد الدينية قد تستفز الجمهور وتثير حفيظته وتدفعه للانتقام، فقد نشر «بروتاجوراس» أحد كبار السوفسطائية — كتاباً عن الآلهة، قال فيه: أما بصدد الآلهة، فإنى لست على يقين من وجودها أو عدمه، وثمة أسباب كثيرة تفسر عجزنا عن معرفة ذلك، منها غموض الموضوع، وقصر حياة الإنسان . . . فاتهم بالتجديف، وصدر حكم بإعدامه، وأحرق كتابه على ملاء من الناس، ففر إلى أثينا، ولكنه مات غريباً .

على أن تاريخ النزاع بين الإيمان والعقل فى هذه الفترة لا يسجل وجود سياسة مقررة لقمع الفكر الحر واضطهاد أهله، فإن كتاب «بروتاجوراس»

السالف الذكر ، قد جمعت نسخه ، وأشعلت فيها النار جهاراً ، ولكن كتاب « انكساجوراس » الذي فصل الآراء التي أدين من أجلها زميله ، كان يباع للناس على قارعات الطرق ، في مكاتب متنقلة في أثينا بأسعار منخفضة . . . وهذا بالإضافة إلى أن الأفكار التي تسير منطلق العقل ، ولا تتمشى مع وحي العرف ، كانت تمثل على المسارح ، وإن كان التمثيل الدراماتيكي في أعياد الإله ديونيسوس Dionysus ، كان يتسم بالوقار الديني ، على أن الجموح كان يشير الناس أحياناً ، فإن الشاعر « إروبيدس » كان مشبعاً بروح النظر العقلي الحديث ، وكان كثيراً ما يجري على ألسنة الأبطال في رواياته ، آراء تنبو عن العرف المألوف ، وتزج صاحبها في زمرة الملحدّين ، فاتهمه بالتجديف أحد الساسة الشعبيين .

ويلاحظ لنا أن الإلحاد قد استشرى داؤه بين الطبقات المثقفة ، خلال الثلث الأخير في القرن الخامس قبل ميلاد المسيح ، فقد شغلت هذه الفترة طائفة كبيرة من أصحاب النفوذ من العقليين ، كانوا ضمناً لحرية التفكير ، ووقاء من شر كل حركة منظمة ترمي إلى قمع الرأى الحر ، ولكن وجه الخطر في قانون التجديف ، أن استغلاله لخدمة الأغراض الحزبية والمآرب الشخصية كان ميسوراً ، وما من شك في أن بعض الدعاوى التي تناهت إلينا تعزى إلى مثل هذه البواعث ، وإن كان بعضها الآخر قد دفع إليه التعصب المحض ، أو أدى إليه الخوف من انتشار التفكير الشكي واستفحال أمره ، وتجاوزه الطبقات المثقفة إلى غيرها ، إذ كان المبدأ المقرر الذي اتفق عنده الإغريق — والرومان بعد — أن الديانة ضرورة لازمة للكافة ، وليس من صالح الوطن ، ولا من خير أفراده ، أن ينصرف الناس عن اعتناقها ، واتباع تعاليمها ، فالذين لم يؤمنوا بصدقها ، ولم يعترفوا بوجه الحق في عقائدها ، آمنوا بنفعا كنظام سياسى ، ولم يكن من المألوف المساغ في رأى العرف أن يتحرى الفلاسفة نشر الحقائق المثيرة للجهالين ، المشوشة لآرائهم ، بل كان المألوف

الذي جرت به العادة أن يبدو الذين لا يؤمنون بالمعتقدات الثابتة ، وكأنهم يعيشون بوحيا ، ويجرون على نظامها — كما هو الحال في عصرنا الحاضر .

مصرع سقراط وأسبابه :

وإذا كنا في معرض الحديث عن حرية النظر العقلي عند اليونان ، فلا مفر من الحديث عن مصرع سقراط ، التزم منهجه في التهكم والتوليد ، فكان يصطنع الجهل ويستفسر من محدثه بأسئلة تثير الشك وتفضى إلى الكشف عن وجوه التناقض فيما يقول محدثه ، ولا يزال في حديثه حتى يستخرج الحقيقة مستعينا بالعقل الذي يتخطى عوارض الأشياء إلى ماهياتها ، وبهذا يكون العلم الصحيح ، وقد أثار خصومة الكثيرين من كبار البارزين من مواطنيه بمثل هذا الامتحان الذي أجراه معهم وكشف به عن جهلهم .

وقد أغرى تلامذته باختبار المعتقدات الشعبية بمنطق العقل الدقيق النزاع للجدل ، وحضهم على عدم الاستجابة إلى رأى السكثرة وإملاء السلطة عند إصدار الأحكام وتقويم الأمور ، فالرأى العام لا يصلح أن يكون محكا للحقيقة ، والعرف الشائع لا ينبغي أن يتخذ دليلا على صحة رأى أو بطلان فكرة ، وقد كان من بين تلامذته كبار فلاسفة الجيل التالى ، الذين تجاوز اسمهم حدود أئتنا ، وملا تاريخ العقل البشرى بوجه عام . وقد كان منهجه فى الجدل يسىء خصومه ويجرح عزتهم ، فضاقوا به وبرموا بأرائه ، وكان من مظاهر استيائهم أن وضع أرسطوفان عام ٣٧٦ روايته « السحب » وصور فيها سقراط معلقا فى الفضاء يرصد السماء ، وعزا إليه إنكار الآلهة ، واتهمه بتعليم تلامذته إثارة الباطل على الحق ، وطالب بإعدامه مع تلامذته وإحراق مدرسته ! ولكن مطلبه لم يتجاوز صفحات كتابه .

وإذا استثنينا مثل هذه المظاهر من استياء خصومه ، لاحظنا أنه واصل التبشير برسائله فى تعليم مواطنيه حتى أدركته الشيخوخة ، دون أن يصيبه أذى من جراء تعاليمه ، فلما بلغ السبعين من عمره عام ٣٩٩ ق . م رفع أمره إلى

القضاء ثلاثة من خصومه بحجة أنه ينكر آلهة المدينة ، ويوجه الأذهان الى آلهة أخرى ، ويفسد عقول الشباب ، وطالبوا بإعدامه اتقاءً لشره ، ولم يكن من الهيين على يوناني أن ينكر الآلهة ، وهى من التقاليد التى تحوطها القداسة ولا يجوز التعرض لها بسوء ، ولكن سقراط كان فى الواقع مؤمناً بالآلهة وعنايتهم بالبشر ، حريصاً على المشاركة فى الشعائر الدينية ، والمظنون أن اتهامه بالقول بآلهة أخرى مرده إلى ما كان يزعمه من أنه يسمع فى بعض الأحيان صوتاً إلهياً ينهاه عن ارتكاب بعض الأعمال ، وأما اتهامه بإفساد الشباب فمرجه فيما يرى خصومه إلى أنه كان ينفر تلامذته من الديانة الشعبية ، ويفرهم بالتفكير المستقل القائم على شريعة العقل . فتألفت محكمة من اثنين وخمسةائة نوقى وتاجر ، لم يألفوا البحث الفلسفى والجدل العقلى ، وأنكر الفيلسوف ما عزاه اليه خصومه وقرر أنه يبشر بالصلاح والهدى مساقاً بإرادة إلهية ، غير طامع فى منفعة ذاتية ، وأعلن إصراره على تحقيق رسالته ، ولو قضت المحكمة ببراءته ، لأنه يؤثر الواجب على الحياة ، ولا يخاف غائلة الموت ، ثم صرح فى ختام دفاعه بأنه يأبى أن يسترحم قضائه ويطلب اليهم الغفران ، كما جرت بهذا عادة الأعيان من المتهمين ، فأدانتها الأغلبية (٢٨١ ضد ٢٢١ صوتاً) وكان القانون يخوله اختيار نوع العقوبة التى يرتضيها ، فأبى هذا لأن الاختيار اعتراف بذنوب لا يقرب به ، وأعلن أنه خليف بأن يثاب على رسالته التى قضى حياته فى التبشير بها لصالح أمته ، فليكن جزاؤه أن يعيش ما بقى من حياته على نفقة الدولة .. ثم عاد فاستجاب أخيراً لإلحاح تلامذته فى إنقاذ حياته بدفع غرامة ، ولكن قضائه كانوا قد سبقوا إلى الخنق عليه ، فأصدرت أغلبية كبيرة منهم حكماً بإعدامه ، واستقبل الفيلسوف هذا الحكم راضياً مطمئناً ، وأعلن أن الموت خير لا ينبغي أن نخافه أو نضيق به ، فدبر له تلامذته سبيل الهرب ، ولكنه أبى أن يذعن لرأيهم ، ويعصى بهذا قوانين بلاده ، واعتصم بالصبر ، وأنهى باللائمة على كل من جزع من تلامذته وصحبه وعشيرته ،

قالت له زوجته وهو في سجنه : أيقتلونك ظلماً وعدواناً . . ؟ فأجابها رابط الجأش : أو يرضيك أن يكونوا على حق في إعدامى . . ؟ ولما دنت ساعته ، تناول كأس السم في ثبات ، وتجرعه في اطمئنان حتى الغمالة ، وراح على يد الديمقراطية شهيداً 1..

هذا اضطهاد آثم ، ولو كان مردّه إلى الدين ، لأجهز على حياة الفيلسوف قبل أن تدركه الشيخوخة ، ولكن مرجعه إلى أسباب شخصية ، وبواعث سياسية ، مرد الأولى إلى الخصومة التي أثارها بأحاديثه على ما عرفنا ، ومرجع الثانية إلى كثرة هجومه على الديمقراطية .

والإتهامات التي وجهتها أثينا إلى سقراط ، يمكن توجيهها كلها إلى زينو مؤسس الرواقية ، ومع هذا فالمعروف أن زينو حين مات في الثامنة والتسعين من عمره ، نهضت أثينا لتكريمه ، فقامت برثائه رثاءً رسمياً ، وأصدر أولو الشأن قراراً يعلنون فيه أن زينو قد استحق تقدير الوطن جزاء على ما قدم من خدمات ، وأسلف من جهود في نشر الفضيلة والحكمة ، واعترافاً بقدرته على التزام المبادئ التي بشر بها واعتناقها طوال حياته ، وخلعت عليه أثينا تاجاً من الذهب ، وقررت إعداد قبر له في مدفن العظام . وقد كان سقراط خليقاً بأن ينال من أثينا كل هذا التقدير ، لولا الظروف السياسية والأحقاد الشخصية .

وقد صور مأساة سقراط تليذه أفلاطون ، في « احتجاج سقراط » وعرض فيها لبيان الاتهام ، وتفنيده مزاعمه ، بدفاع حي رائع عن حرية البحث والجدل ثم صور في « أقريطون » موقف سقراط من فكرة الحرب التي عرضها عليه هذا التليذ ، ويعيننا من دفاعه الآن مبدء ان قررهما أثناء محاكمته وهما :

(١) أن من واجب الفرد أن يرفض — بانغاً ما بلغت خطورة رفضه — كل سلطة تنزع إلى كبح آرائه ، وتضطره إلى اعتناق فكرة باطلة في عرف منطقته ، فأكبر بهذا من سمو الضمير الإنساني ، واستعلائه على كل قانون

وضعى ، وقد كان يشعر عن إيمان بأنه يستجيب لوحى مرشد فوق الطبيعة البشرية ، حين يتصدى لهداية البشر ، ويقف على البحث الفلسفى حياته ، حتى لقد كان يعلن أنه يؤثر الموت ، على أن يتهاون فى أداء هذا الواجب ، وهو يقول لقضائه أثناء محاكمته :

لو أنكم اقترحتم إخلاء سبيلى بشرط أن أتخلى عن بحث الحقيقة ، لقلت لكم : إني أشكركم أيها الأثينيون ، ولكنى أؤثر أن أستجيب لطاعة الله الذى أعتقد أنه هياتنى لأداء هذه الرسالة على أن أنصاع لرأيكم ، وما دام بين جنبيّ نفس يتردد ، وقوة أشعر بديدها فى كيانى ، فلن أتوقف عن مزاوله التفلسف ومواصلة التحدث إلى من ألقى من الناس ، وتكرار القول له : ألا تشعر بالضعف والحجل حين تكلف بالثروة وتتعلق بها ، ولا تحرص على الحكمة ولا تعباً بالحق ولا تعمل على ترقية نفسك . . ؟ إني لا أعرف ماذا يكون الموت ، وربما كان أمرا طيبا ، فأنا لا أخافه ولا أخشاه ، ولكنى واثق من أن توقف المرء عن أداء وظيفته شر لا محالة ، فأنا أؤثر ما يحتمل أن يكون طيبا على ما أعرف أنه شر .

(٢) ويلح سقراط فى القول بأن حرية البحث مفيدة للناس ، فيقول لهم : إنكم تجدون فىّ ناقدا ينبهكم إلى أخطائكم ويثابر على إقناعكم وتأييسكم ، ويداوم على امتحان آرائكم ، ويحاول أن يدلل لكم على أنكم تجهلون ماتوهومون أنكم تعلمونه ، والخير الأسمى إنما يقوم فى بحث هذه الموضوعات التى أناقشها كل يوم ، والحياة التى لا تخضع لامتحان هذه المناقشة لا تستحق أن يحيها إنسان ، فكان هذا أول تبرير عقلى لحرية الفكر .

وبعد نحو سبعين عاما من مصرع سقراط ، مات الإسكندر تلميذ أرسطو ، (عام ٣٢٣ ق . م) ، فجد ديموستين وحزبه فى مطاردة الأجانب ، واتهموا أرسطو بالاحاد ، فعهد بمدرسته إلى ثاوفراسطس ، وولى الإدبار وهو يقول : لاداعى لأن أمكن الأثينيين من ارتكاب جريمة أخرى فى حق الفلسفة !..

وضع أفلاطون في أواخر حياته « جمهورية » مثالية ، اقترح في نظامها ديناً يختلف مع الدين المعتمد الشائع اختلافاً بيناً ، وفرض على أهلها الاعتقاد في الآلهة الجدد وإلا استهدفوا لعقوبة الموت أو السجن ، واستبعد كل حرية في البحث في هذا النظام الصارم ، الذي وضعه للطبقات ، ووجه الطرافة في موقفه أنه كان لا يكثر بصدق الدين ولا يعبأ ببطلان الخرافات ، وحسبه من الدين منفعة في ميادين الأخلاق ، أما الخرافات فقد حرص على تهذيبها لتساهم في ترقية الأخلاق ، ولم يكن بطلان الأساطير الشعبية سر ضيقه بها ، بل كان مرجع احتقاره لها ، أنها لا تهيب حياة البر والصلاح .

وفي البيئة السقراطية نشأ أنصاف السقراطيين ، وأفلاطون ، وعن هذا الجد العقلي صدر أرسطو والأبيقورية والرواقية والشكك ، ممن هيمنوا على الحياة العقلية حتى مطلع العصر الحديث ، بل ما زالت نظراتهم تحتل مكانها في تفكيرنا الراهن .

موقف الأبيقورية والرواقية :

ومنذ القرن الثالث قبل الميلاد اتجه التفكير — على يد الأبيقورية والرواقية ومن إليهم — إلى إحياء النزعة الفردية ، والنظر إلى الفرد مستقلاً عن الجماعة ، والعمل على توفير راحته واطمئنانه ، وشاعت هذه النظرة في العالم الإغريقي كله ، وكان سواد المثقفين في هذه الفترة من العقليين ، فسكن هذا لنزعات التمرد على الدين المعتمد ، وشجع على المروق والإلحاد ، وانحل الإيمان بالآلهة القديمة ، وأصبح الله أداة لتحقيق الخلاص الذي كان ينشده الجميع .

وجاهدت الأبيقورية بنزعتها المادية وإلحادها الصريح بمعاداة الدين ، وتهجمت على قدسيته ، لأنها اعتبرت التماس الأمان مثلها الأعلى ، فأداها هذا النظر إلى أن التوقف عن الاعتقاد في الدين أدعى للإيمان من الإيمان به ، ومن ثمَّ يصبح الإيمان بالدين خطيئة ، بل أضحى عند بعضهم مبعث كل شر ،

على أن أبيقور كان يعتقد مع هذا بوجود الآلهة ، ولكنها بدت عنده في صورة إنسانية محضنة ، وإن كان قد كفل لها الخلود ، فهي تعيش في عزلة عن الناس منعمة هائلة بالاطمئنان ، مجردة عن العواطف حتى لا تشغل نفسها بشئون السكون ومن فيه ، فانتفتت العناية الإلهية ، وجاز ما نلاحظه في السكون من تفوق نصيب الشر على نصيب الخير . ولكن ما أصل هذا الشر ؟ إما أن نقول إن الله يريد إبطال الشر ولا يقوى على ذلك ، أو يستطيع إبطاله ولكنه لا يريد إلغائه ، أو يعجزه إبطاله وتعوزه إرادة ذلك ، أو تتوافر له القدرة على إبطاله وإرادة هذا معاً ، والفروض الثلاثة الأولى لا تليق بمقام الألوهية ، ومن ثم لا تصلح أن تكون موضوعاً لتفكير ، وبهذا يصدق الفرض الرابع ، وصدقه يستتبع الاستفسار عن السبب في قيام الشر ، وقيامه شاهد على ضرورة الانتهاء إلى إنكار الله بمعنى الحاكم المدبر للسكون المعنى بشئونا ، ولم يكفه إنكار الألوهية - بالمعنى السالف - ورفض القول بالعناية الإلهية ، بل حاول أن يبحث الدين من أساسه ، فاعتبر الخوف الباعث الرئيسي على الإيمان به ، وتحرى أن يحرر العقل البشرى من هذا الخوف لينحل ما ترتب عليه من آثار ! ومضى في نزعاته المادية ففسر السكون في ضوء نظرية ديمقريطس في الجواهر الفردة ، وأكد خلوه من كل حكم إلهي .

على أن شيوع الإلحاد واستفحال أمره ، لا يبنى ضيق العامة بمثل هذه الآراء المتطرفة ، ولعل هذا يفسر مشاركة أبيقور في الشعائر الدينية وتردده على المعابد كما يفعل غيره من عامة الناس . . . ، على أنه عاش آمناً لا يزعجه اضطهاد ، ولا يقلقه تضيق على تفكيره ، حتى وافته منيته .

وانتصر الرواقية لقضية الحرية ، وأكدوا حقوق الفرد ضد السلطة العامة ، وتمسكوا في هداية المجتمع « بقانون الطبيعة ، واعتبروه أسبق وأسهي من العرف والعادات والقوانين الوضعية جميعاً .

موقف الرومان من حرية النظر العقلي :

على هذا النحو كانت حرية النظر العقلي قائمة عند الرومان ، كما كانت في ظل اليونان - فيما يقول الأستاذ بيورى - فلم يكن للعقل قيود تعرقل طلاقته طوال الجمهورية والامبراطورية الرومانية الأولى ، وفشت المذاهب الفلسفية التي جعلت الفرد جماع الاهتمام ، وكان أكثر قادة الفكر كفرة بالدين الرسمي للدولة ، ولكنهم نفروا من هدمه ، وحرصوا على صيانه للاستفادة منه في حكم الجماهير ، وتوفير الأمن وإقرار النظام ، بل لقد نزع بعض المفكرين - من أمثال شيشرون - إلى غرس الخرافات في النفوس لصالح الجمهور وقد شاع بين الملحنين من القدماء القول بأن الدين الزائف لا غنى عنه لمصلحة الحياة الاجتماعية بين الناس ، ولهذا رأى أنصار في عصرنا الحاضر ، لا يعينهم التفكير في صدق الدين وبطلانه بقدر ما يعينهم نفعه في حياة الجماعات ، والانتصار لهذا الرأي يتصل بسياسة مكيايلى الذى صرح بأن الدين ضرورى لقيام الحكومة ، وربما كان من واجب الحاكم أن ينتصر للدين الذى يؤمن ببطلانه

كانت القاعدة التي قامت عليها السياسة الرومانية : التسامح مع كافة الآراء - وجميع الديانات - في أرجاء الامبراطورية كلها ، وليس أدل على صدق هذا من أن يكون التجديف بمنجاة من العقاب ، وقد أوضح هذا المبدأ الامبراطور تيربوس (الذى ولد عام ٤٢ ق . م) إذ قال : إذا أحس الآلهة بأنهم قد أهينوا ، فعليهم أن يقتصوا لأنفسهم وكان وجه الشذوذ في قاعدة التسامح ، أتباع الدين المسيحى الجديد ، وربما كانت معاملة هذا الدين الشرقى بدء الاضطهاد في أوربا ، على أن النزاع بين الطوائف الدينية لا يعيننا في هذا البحث ، وإن كان اضطهاد الفكر فرعاً من الاضطهاد فى أوسع معانيه . هذا هو رأى بيورى فى موقف الرومان من حرية الفكر ، ولعلنا لاحظنا أنه قصر حديثه على الجمهورية الرومانية القديمة والامبراطورية

الرومانية الأولى ، وإذا نحن تجاوزنا هاتين المرحلتين ، لاحظنا أن السياسة الرومانية قد انعكست فيها الآية ، فاحت سياسة التسامح ، وأخذت مكانها سياسة السكج والقهر المعيب ، ولعل لفنجستون قد قصد هذا حين عرض لموقف الرومان في هذا الصدد ، وروى عن بلوتارك أن عقلية الرومان كانت بحيث لا تسمح بأن يتزوجوا أو ينجبوا أولادا أو يعيشوا من أجل أنفسهم ، أو يقيموا الأعياد والحفلات لإشباع لذتهم الخاصة ، ولم يكن من المألوف أن يأذنوا لكل فرد بأن يعمل ما يشاء منساقا مع أهوائه وشهوته ، إن بين الرومان والإغريق هوة سحيقة القرار في عبادتهم لله . والرومان لا يشجعون التجديد في التفكير أو في الدين ، ولا يمتدحون التسامح ، ولا ترضيهم حرية البحث ، وقد فوض الحكام الذين يَلْسُون القناصل praetors في روما عام ١٦١ ق . م في طرد فلاسفة اليونان ورجال البيان من هذا البلد ، وتقرر نفي كثيرين من معلمي الأبيقورية — وربما كان هذا عام ١٨٤ ق . م — وفي عام ٩٢ ق . م أصدر الرقباء هذا المرسوم : ترامت إلينا الأنباء بأن هناك أفرادا يبشرون بنوع جديد من العلم ، وأن الشبان يقبلون على مدارسهم ، وأن هؤلاء الأفراد يزعمون لأنفسهم وللناس بأنهم معلبو بيان من اللاتين ، وأن الشبان ينفقون الأيام الكاملة في محبتهم ، لقد قرر أبأؤنا نوع العلم الذي ينبغي أن يتعلمه أبناؤهم ، ونوع المدارس التي يجب أن يلتحقوا بها ، أما هذه المدارس التي نشأت على نقيض ما جرى به العرف والتقاليد عند آبائنا ، فإنها في نظرنا باطلة وليس من المرغوب فيه تشجيعها ، والإقبال عليها .

ويمضى لفنجستون بعد هذا فيقرر أن هذا التباين بين الرومان والإغريق مرده إلى الاختلاف في تاريخ الشعين : فالرومان عاشوا في كفاح طويل مُمِض مع أعدائهم ، وانتهى هذا الكفاح بانتصارهم ، فاتتق التسامح من حياتهم . وقد كانوا يمتازون بالثبات والنشاط والعزم والصلابة ، ومن أجل هذا مسست حاجتهم إلى العمل والكفاح لرد الأعداء ، لا إلى البحث والنقاش .

وقد عرض الدكتور طه حسين لبيان هذا الموقف في فصل جعل عنوانه « بين الدين والعلم » في كتابه « من بعيد » فقال « وأما الرومان فمكرهوا (في أول الأمر) فلسفة اليونان أشد المكره ، لقوها بالازدراء ثم قاوموها مقاومة سياسية ، فحظروا درسها ، وبلغ بهم ذلك أن زعموا من زعمائهم هو كاتو القديم توسل إلى مجلس الشيوخ في أن يتعجل في قضاء حاجة لبعض السفراء اليونانيين ليترك هؤلاء السفراء المدينة ، ويستريح منهم سواد الشعب ، وكان بين هؤلاء السفراء فلاسفة انتهزوا سفارتهم فرصة لإلقاء محاضرات فلسفية في روما ، ولكن الرومان لم يكرهوا الفلسفة اليونانية وحدها بل كرهوا معها كل جديد أيضاً . . كانوا أشد الشعوب القديمة في الغرب محافظة وحرصاً على القديم ، ومع أن دينهم لم يكن أشهر من الدين اليوناني تعقيداً ، ومع أنه لم يكن كالديانات السماوية يعتمد على كلام أو لاهوت ، فقد كان يمتاز عن الدين اليوناني امتيازاً قوياً من وجهين : الأول أنه كان أشد من الدين اليوناني تسلطاً على حياة الفرد والجماعة ، فقد كان الفرد الروماني أشد الناس طيرة وإشفاقاً ، يخاف من كل شيء ويرى تأثير الآلهة في كل شيء ، ويحرص على أن يتملقهم ويتراضاهم . . ونحن لانعرف عن اليوناني زجراً ولا عياقة ولا قيافة ولكننا نرى هذا كله عند الرومان ، ونراه مؤثراً أشد التأثير في الحياة الخاصة والعامية جميعاً . الثاني أن هذا الفرق بين الفرد اليوناني والروماني من حيث التأثير بالدين ، قد استتبع نتيجة الطبيعة ، وهي أن تكون عناية السياسة بالدين ملائمة لشدة ما لهذا الدين من التأثير في نفوس الأفراد والجماعات ، فنظمت حماية السياسة بالدين في روما تنظيمًا قوياً ، وقام في روما شيء يشبه « الأكليروس » له سلطته الدينية وله امتيازاته أيضاً ، وإذ كان رئيس الدولة سواء أكان ملكاً أم قنصلاً ، إنما يستمد سلطته من الشعب بعد استشارة الآلهة ، أو قل من الآلهة بعد استشارة الشعب ، فقد كان الواجب الأول على الملك أو القنصلية حماية الدين ، وكذلك قامت بحماية الدين في روما جماعة

الأكليروس وهيئة الحكومة ومجلس الشيوخ الذي كان ، واجه الأول حماية ما ترك الآباء ، فلا تعجب إذا رأيت الرومان يقاومون الجديد مهما يكن ويشدون في مقاومته إذا مس الدين ، ولا تعجب إذا رأيت الرومان في عصورهم الأولى يبغضون أشد البغض ويناهضون أشد المناهضة هذه الديانات... الخ،

كلمة أخيرة :

وإذن فقد كانت حرية النظر العقلي عند اليونان - بوجه عام - حقاً طبيعياً لكل إنسان ، فهو أشبه ما يكون بالهواء الذي يتنفسه ، وقد اتفقت كلمة الجميع عند هذا الحق ، وإذا كانت أثينا قد عرفت سبعة أو ثمانية مفكرين قد عوقبوا من أجل الاتهام بالهرطقة ، فقد كان الاتهام في بعض هذه الحالات ، أو في أكثرها - مجرد تعلل وادعاء ، يستر وراءه أحقاداً مردّها إلى الأسباب السياسية أو البواعث الشخصية ، فإن المستنيرين من هؤلاء القدامى ، كانوا من أشياع العقل والانتصار لشريعته ، ينفرون من كل سلطة تنزع إلى الهيمنة عليه ، ويرون أن الحجته وحدها هي الطرق إلى سيادة الآراء ، ولكن هذه الحرية لم تكن نتيجة لسياسة تحرروا وضعها عن وعي ، وتوخوا توكيدها عن اقتناع أكدته البراهين عن قصد . ولم تكن مشكلة حرية التفكير والتسامح ونحوه ، مفروضة على المجتمع ، ولا موضع بحث جدى بتاتاً ، فلها واجهت المسيحية الحكومة الرومانية ، كان لابد من تجربة النظرية ، وبممارسة الاضطهاد زمناً طويلاً ، لكي تستقيم حرية التفكير وتتوطد في أمان ، وكانت سياسة الكبح التي أقرتها الكنيسة المسيحية ، وما أدت إليه من نتائج ، هي التي دفعت العقل لمواجهة هذه المشكلة والتصدي لها ، وسرعان ما اهتدى العقل إلى اكتشاف تبرير لحرية الفكر .

حسبنا هذا عن حرية النظر العقلي عند القدامى من أهل أوروبا ، ولنتبع

موقف المسيحية من العقل منذ نهض رجالها لمقاومة شريعته :

أهم مصادر الفصل

1. Prof. J. B. Bury, A History of Freedom of Thought (1920)
وكتابتنا ماثل للطبع ، ظهرت ترجمة عربية لكتاب بيوري تحت عنوان «حرية الفكر»
للاستاذ محمد عبد العزيز إسحق .
2. Livingstone, Greek Genius, its meaning to us.
3. F. M. Conford, From Religion to Philosophy
4. A. Taylor Socrates.
5. Encyclopedia Br. art. Socrates by Jackson
6. Platon, Apologie de Socrates.
7. Roberston, A Short Hist. of Free Thought, (Ancient & Modern 2 vols).
ثم من كتب تاريخ الفلسفة :
- Th. Gomperz, Les Panseurs de la Grèce (2 vols).

مترجم عن الألمانية وله نسخة انجليزية بعنوان
Greek Thinkers (ويمكن الرجوع إلى Zeller و Erdmann و Burnet و Brhier وغيرهم)
ويوسف كرم في تاريخ الفلسفة اليونانية وطه حدين في « من بعد » ومقدمة سانتهيلير
لكتاب السكون والفساد لأرسطو (في ترجمة أحمد لطفى السيد باشا)... إلخ

الفصل الثالث

موقف الأكليروس من شريعة العقل

في العصور الوسطى

تمهيد — التقاليد الممهدة لاضطهاد العقل — مسألة العقل للكنيسة في العصور المظلمة
بدء النزاع بين العقل والسلطة — أوروبا بين الطابع الأفلاطوني والأرسطاطاليسى — موقف
الأكليروس اليهودى من ارسطو — موقف الأكليروس المسيحى من ارسطو وشراحه من
المسلمين — كلمة اخيرة

خلق النظر العقلى فى جو الحرية الرحب أيام اليونان على ما عرفنا فى
الفصل السالف — ولكن الشيخوخة قد أدركته فى أواخر عصرهم ، فخضع
لسلطان دين فتيّ جديد نزل بأرضه ، واستبدّ بقلوب أهله . وآثر العقل الواهن
حياة الأمن والهدوء ، واستطاب السلامة واتفق أسباب النزاع قروناً طوالا ،
فلما دبّت اليه اليقظة وعاوده النشاط ، تأهب — فى العصر المدرسى —
لإعلان تمردّه والجهر باستعداده للنزال ، فكان هذا بدء عهد جديد ، شهد
صراعا دائما آثما ، استشهد فيه الكثيرون من رواد الفكر الحديث ، على يد
أصحاب السلطة من رجال الكهنوت .

وإذا كان النزاع الذى يعيننا فى هذا البحث ، لم يقع إلا بعد انقضاء يتّصف
وعشرة قرون على قيام الدين إلى جانب العقل ، فردّ هذا إلى أن النزاع يتطلب
اجتماع أمرين لا يكفى أحدهما لقيامه سلطة فى يد رجال الكنيسة ، يتمتع
بدونها كل اضطهاد ، يصاحبها عقل يتمرد على مألوف أحاطه بالقداسة أتباع
السلطة . والقدرة على هذا التمرد والمروق ، هى الشاهد على يقظة العقل
وجرأته معاً ، ومن أجل هذا عاشت المسيحية فى أوروبا فترة من الزمن ،

لا تملك الاضطهاد ، لأن السلطة تعوز رجالها — فوق تغيب العقل الجريء .
الناضج — ثم تهبأت السلطة لرجالها بعد قرونها الأولى ، ولكنها لبثت زماناً
طويلاً لا تمارس اضطهاداً ، ولا تطارد من أحرار الفكر أحداً ، لأن العقل
اليقظ الناضج ، الممتاز بجرأته ، لم يكن قد وُجد بعد . فلما بدت بشائر هذه
اليقظة العقلية ، وتجلت في القرن الثاني عشر ، مع قيام السلطة الأكليرية بدت
في الأفق بوادر هذا النزاع .

ولا يعيننا في هذا البحث ، أن نعرض لحياة العقل المطمئن المسلم ، ولهذا
كان المنتظر أن تتخطى العصر الذي هادن فيه العقل الدين — عصر الآباء
وشطراً من العصر المدرسي — ولسكنا مضطرون إلى الوقوف عنده قليلاً ،
لنرى الجو الذي تنفسه أهله ، ونقف على التقاليد التي توطدت في ظله ،
والشرائع التي سُنّت على يد رجاله ، وكانت أساس الصراع العنيف الذي
أعقب هذا الوتام :

التقاليد الممطرة واضطهاد العقل :

فرق لفرنجستون بين التفكير الهيليني والتفكير المسيحي من ناحية الوضع
الديني ، فقرر أن الأول يستغنى عن حاجته إلى إله ، وإن تطلع إلى الحياة المقبلة
والعالم الروحي المحض ، فإن استبعدنا من التفكير اليوناني هذه الفكرة ،
لاحظنا أن اليوناني لا يزال يعيش نفس الحياة التي كان يعيشها ، فليست الدنيا
كلها تأوها ونصباً وأنيناً ، إنه لم يكن في انتظار مجد يتكشف له بعد هذه الحياة
ويعوضه عن شرها خيراً ، كان المجد الذي يطمع فيه حاضراً بالفعل أمامه ،
ففي استطاعته أن يعيش راضياً بحاضره ، أما في العالم المسيحي فقد كان على عكس
هذا تماماً ، إنك إن استبعدت منه العالم المجهول غير المرئي ، غيرت كل ما للحياة
من معنى وقيمة .. اعلت صيحة العقل عند اليونان ، ثم خبت وأخذ مكانها نداء
الوحي في العصور الوسطى ، وفي ضوء هذه التفرقة تلمس أسباب النزاع بين
رجال السكهنوت ودعاة العقل .

وقد أشرنا فيما أسلفنا إلى أن الاضطهاد الديني في أوروبا ، قد بدأ يوم خرجت السياسة الرومانية على شريعته في إطلاق الحرية الدينية لرعاياها ، وضنت بالتسامح على الدين المسيحي الجديد منذ ظهوره ، فكتب المشتغلون بالفلسفة من آباء الكنيسة في القرن الثاني دفاعات ذادوا بها عن دينهم ، وردوا فيها على حملات الوثنيين من خصومهم ، واستغلوا فيها أساليب الجدل الفلسفي الذي أخذوه عن اليونان ، وكانوا ينطون على كراهية عميقة للبدنية الرومانية التي كانوا يعيشون في ظلها ، كما يشهد بهذا معاصرهم Tatian (١) . وكان المسيحيون في إبان القرنين الأولين طائفة منبوذة أعوزتها فيهما السلطة وأحاطها مقت المجتمع ، فأعلنوا مبدأ التسامح ، وصرحوا بأن المعتقد الديني أمر اختياري لا سبيل إلى إكراه الناس عليه ، فلما تمكن دينهم ، واستبد بقلوب الناس ، وأيدته الدولة بقوتها ، تنكروا لمبدأ التسامح ، وفرضوا رقابتهم على آراء الناس في السكون وظواهره وأسراره ، ثم شرعوا في وضع سياسة محددة لقهر الفكر وكبح العقل ، وسلم الامبراطرة والحكومات بهذه النزعة ، لأسباب بعضها سياسية ، وأخذ المسيحيون يبشرون بنظرية مؤداها أن « الخلاص » لا سبيل إليه إلا عن طريق الكنيسة الكاثوليكية وحدها ، وروجوا للإيمان بأن الذين لا يستسلمون للكنيسة ، ويعتقدون بصحة نظرياتهم تحقيق بهم اللعنة الابدية لا محالة ، فأفضى هذا الاعتقاد بطبيعة الحال إلى الاضطهاد ، والتشكيل بكل من جنح عما اعتمده الكنيسة من آراء ، واعتبرت الهرطقة (الإلحاد) أعظم خطيئة ، لا يقاس ما يبتلى به أصحابها في الدنيا من صنوف الآلام ، بما ينتظرهم من عذاب الجحيم ، وأضحى إنقاذ الدنيا من أعداء الله واجبا مقدسا ، والاتصاف بالفضيلة لا ينهض عدرا للروق ، فإن الطفل على براءته وخلو ساحته من كل خطيئة ، متى مات من غير تعميد ، قضى بقية حياته في جهنم ، فالطبيعي بعد هذا أن يستهدف المتهمون بالمروق من أهل

(١) في كتابه A Discourse of the Greeks

الفكر لأشد صنوف العذاب ، فلنتتبع تطور هذه النظرة في الجوسكنسى .
كان اعتناق المسيحية في القرن الثالث لا يزال محرماً (١) ، ولكن أهلها
كانوا يعيشون في أمن لا ريب فيه ، فشرعت الكنيسة تنظم نفسها في هذا
الجوس الأمن دون تخف أو تستر ، وتمسكت المجامع الإكليريكية من تنظيم
اجتماعاتها ، دون أن تخشى تدخلا من السلطات (٢)

خلا تاريخ المسيحية في قرونها الثلاثة الأولى من كل أثر لاضطهاد رسمي
تنزله بخصوصها ، لأن السلطة تعوز رجالها ، بل بشرأباؤها الأول بمبدأ التسامح ،
وصرح أمثال أوريجان Origen (٢٠٤ ؟) ولاكتانتوس Lactantius (٣)
(+ ٣٤٠ ؟) برفضهم لفكرة الاضطهاد

والواقع أن الأصل في المسيحية أنها تدعو الناس إلى أن يحب بعضهم
بعضاً ، ومن هنا جاء نفور رجالها الأول من عقوبة الإعدام ، وكان تحريم
ترتليان Tertullian ولاكتانتوس قتل المسيحي رقيقاً له ، أيا كانت ظروف
هذا القتل ، وكانت الهيئات الدينية كلها سلبت مذنباً للسلطات المدنية ، توسلت
إليها ألا تلجأ إلى إعدامه ، ولكن الكنيسة حين بدأت تظفر بالسلطان ،
قد غيرت سنن شريعته على نحو ما سنعرف بعد قليل .

وفي مطلع القرن الرابع انتهى الاضطهاد بصدر مرسوم عام ٣١١ م
يقضى بالتسامح ، ثم أصدر قسطنطين فرمان ميلان ، الذي أعلن فيه نفس المبدأ
الذي يقضى بالتسامح ، واعتنق المسيحية بعد عشر سنوات من صدور هذا

(١) في عهد تراچان وضع المبدأ الذي يقول : إن اعتناق المسيحية لثم عقوبته الاعدام
ولكن الامبراطرة قد نزعوا إلى استئصال المسيحية دون لإمراق الدماء ، وحالات الاعدام
التي عرفت في القرن التالي ، أدى إليها بوجه عام تعصب الدماء .

(٢) واسكن المسيحيين استندوا إلى حالات إعدام قليلة واخترعوا أسطورة صوروا
فيها فظاعة الامبراطرة وروعة الاستشهاد من أجل الدين ، فيما يقرر الاستاذ بيوري الذي يلتبس
الاعذار للامبراطرة في اضطهاد معتنق المسيحية .

(٣) يسمى شيشرون المسيحي .

الفرمان — عام ٣٢٣ م — فبدأت بهذا القرار الخطير ، عشرة قرون شداد ، استُعيد فيها العقل الأوربي ، ووقف تقدم المعرفة ، فسنت القوانين لمحاربة الهرطقة والتسكيل بدعاتها ، في عهد فالنتينيان الأول (Valentinian) (في النصف الثاني من القرن الرابع) (وتيو دوسوس الأول Theodosius I, + ٣٥٩ م) فاستهدف الملحدون للتقى ، وسلبوا حقهم في الوراثة ، وتعرضت أملاكهم للصادرة ، وأضحوا عرضة للإعدام في بعض الحالات ، وبدأ الإعدام في نهاية هذا القرن (عام ٣٨٥ م) عند ما أدين الملحد الاسباني « بريسيليان » Priscillian وأعدم بأمر الإمبراطور ماكسيموس Maximus ، فأثار إعدامه جدلا عنيفا ، وغضب لهذا بعض القديسين من أمثال القديس مارتن (من أهل تور) رغم حماسه في تحطيم تماثيل الوثنيين ، والقديس امبروز رغم نشاطه في قمع عبادة الوثنيين واليهود ، واحتج هؤلاء على القساوسة الذين تسبوا في إعدامه ، وطالب القديس Chrysostom بإباحة حرية الكلام ، والإذن للهرطقة بتنظيم مجالسهم ، وصرح بأن إعدام الملحد إقرار بارتكاب جريمة لا سبيل إلى غفرانها أو التكفير عنها .

وفي النصف الثاني من القرن الرابع ظهر عاملان كان لهما خطرهما في تأييد سياسة الاضطهاد : أولهما أن الكثير من مجالس الأكليروس قد طلبت إلى السلطات المدنية معاقبة الهرطقة أو نفيهم ، وكان لقراراتها أثرها الملحوظ في مسلك الحكومة إزاءهم ؛ وثانيهما استقرار نظام الرهبة ونموه ، وقد دعت الرهبة إلى إنكار الذات ورفض الترف والتحرر من المطامع والأهواء واحتقار الرغبات والذات ، والاعتصام بالتعصب الصارم والشجاعة المجيدة والميل إلى تعذيب الجسم رغبة في التكفير عن الخطايا . . . والرهبان هم الذين حطموا تماثيل الوثنيين وأبطلوا عباداتهم في الامبراطورية الرومانية ، وانتهى هذا بشيوع الروح الديني وخلو العالم المسيحي من مظاهر الاضطهاد عدة قرون .

وفي مطلع القرن التالي تمكن نظام الاضطهاد على يد القديس أوغسطين

+ ٤٣٠ أوسع آباء الكنيسة نفوذاً وأعلام صوتاً ، إذكادت تجتمع عند شروحه للنصوص المقدسة كلمة الذين عرضوا لتفسيرها بعد ، والاستشهاد به كثيراً ما يكون فصل الخطاب وعك الصواب ، لأن أقواله قد ارتفعت بعده إلى مرتبة القداسة ، بهذه الصولة صاغ أوغسطين مبدأ الاضطهاد ، لهداية الأجيال التالية ، وأقامه على أساس من الكتاب المقدس ، فاستند إلى كلمات فاه بها يسوع المسيح في مثل من أمثاله التي كان يسوقها لحوارييه إذقال : « أجبروهم على اعتناق دينكم » . ومضت الكنيسة بعد هذا لمحاربة خصومها وتمشياً مع هذا المنطق سلم « أوغسطين » بمعاينة الملحد بالنفي والجلد وفرض الغرامات ، ووضع للكنيسة دستوراً تلتزمه إزاء كل حركة عقلية ، فصرح في كتابه « تعليقات على سفر التكوين » ، بأن ليس في الوسع التسليم برأى لا تؤيده الكتب المقدسة ، لأن سلطانها أقوى من كل سلطان أمر به العقل البشرى "major est scripturae auctoritas quam a monis humani ingenii capacitas"

فضت الكنيسة بعده تعمل جاهدة لقمع الهرطقة وجدلة دعائها ، وكان لموقف هذا القديس أبلغ الآثار في عرقلة النظر العقلي ووقف التقدم العلي ، كما ستعرف بعد (١) ومنذ هذا الوقت أصبح الكتاب المقدس أساس العلم ومصدره . وبعد مئات هذا القديس يبضع عشرات من السنين ، صدرت — بأمر قسيس روما — أول قائمة بالكتب التي حرمت قراءتها على المؤمنين وهي : "Notitia Librorum apocryphorum quae non recipiuntur"

وتولى البابا Gelaius تنقيحها (عام ٤٩٤ م) في عدة مناسبات .

(١) ومن طريف المفارقات أن ينال رب الاضطهاد ثمرة عرس يده ، ويتجرع من الكأس التي أهداها لغيره ، فيظهر بعد مائة بأحد عشر قرناً لاهوتي يسوعي (Suarez) يضيق بموقف القديس أوغسطين من الخلق وهدم التزامه للمعنى الحرفي للنصوص المقدسة ، فيعلن اتهامه بالهرطقة ١ . . وقد لخصنا موقفه عن « هويت » و « بيوري » وقد دلل على هذا الموقف « دراير » فعرض في كتابه مختارات من « اعترافاته » في دراسته لسفر التكوين ، أدت إلى جعل اللاهوت في عداه مع العلم (أنظر ص ٥٨ وما بعدها من كتابه) .

وفي إبان هذه الفترة (٤٧٦ م) قوض البرابرة الدولة الرومانية الغربية ، فزادوا الحياة العقلية اضمحلالا ، ومكنوا للجباله وكادوا يقضون على ما كان معروفًا من تراث اليونان ، وعندما أقبل القرن التالي — السادس — كانت الجلمعات تشرف على الاحتضار ، وكان چستينيان يضطهد الوثنية ويطارد أتباعها ، فأصدر أمره عام ٥٢٩ م باغلاق مدارس الفلسفة جميعا ، وتوارت من الوجود جامعة أثينا ، وإن بقي تراثها في ذمة التاريخ . وإغلاق هذه المدارس — مع اضمحلالها — دون العمل على إحيائها ، وإنعاش الدراسات العلمية بها ، شاهد ينهض للتدليل على عداء الروح المسيحي للعلم والفلسفة منذ قيام الدين الجديد . فقد كان بعض القدماء من رجاله — أمثال ترتليان — لا يقنعون بالجهر بأن إيمانهم مجرد من كل صبغة فلسفية ، بل يكادون أن يفاخروا بذلك ، وعلى الرغم من استغلالهم الجدل الفلسفي في رد حملات خصومهم ، وتشبع بعضهم — كالقديس أوغستين — بالأفلاطونية والأفلاطونية المحدثة وغيرها مما يساير الروح الديني ، فإن موقف المسيحية إزاء العلم والفلسفة كان موقف احتقار صريح فيما يقول ولف A. Wolf .

وقد تجلى هذا العداء في الشرق كذلك — فيما يقول درابر — ففي عام ٣٩٠م حطم إحدى مكاتب الاسكندرية أحد المطارنة تيوفيلوس Theophilus وبعد قرن كامل وقع حادث وحشي مفرع ، ذلك أن «هيپاتيا» Hypatia ابنة الفلكي طيون Theon كانت من المشتغلات بتعليم الرياضة والفلسفة ، وعرض مذهب أفلاطون وأرسطو بوجه خاص ، وكانت قاعة درسها تكتظ بأثرياء الاسكندرية وأكبرها ، كانوا يختلفون إلى قاعتها ليستمعوا إليها وهي تبحث في هذه الموضوعات التي أثارَت الجدل منذ زمان على غير طائل : من أنا وأين مصيري ، وماذا في استطاعتي أن أعرف ؟ فضاق بهذا القديس سيريل Cyril وهو ابن أخت تيوفيلوس الذي أسلفنا ذكره ، فأثار عليها الشعب بتعصبه، فتربص بها بعض الدهماء من المسيحيين وانقضوا عليها وهي في طريقها

إلى قاعة درسها وجردها عن ثيابها وحملوها إلى كنيسة ثم مزقوا جسمها إربا إرباً ، وجردها اللحم عن العظم وألقوا ما بقى منها إلى النار ! ويقول درابر Draper أن سيريل لم يُسأل عما فعل ، وكانت الغاية مبررة لأبشع الوسائل .
ومضت الكنيسة في هذا التيار ، حتى إذا انتصف القرن الحادى عشر ، طالب القديس Theodivrn of Liége باستخدام السلاح الديوى فى معاقبة الملحدىن ، وفى القرن التالى احتج بطرس المغنى على عقوبة الاعدام ، وأبى التسليم بغير السجن على أكثر تقدير ، ثم اتفق البابا لوكيوس الثالث Locius III وفردريك برباروسا - عام ١١٨٤م - على مطاردة الملحدىن ، ونفيهم ومصادرة أملاكهم وهدم بيوتهم وسلب حقوقهم المدنية . ثم أصدر بطرس الثانى ، عام ١١٩٧ قراراً بأحراق الملحدىن إذا لم يغادروا مملكته - أراجون - فى مدة محددة ، وقوى البابا انوسنت الثالث حركة الاضطهاد ، فنجح فى عام ١١٩٨ فى حشد الأمراء - الديويين - لمعاونة الكنيسة فى التتكيل بخصوصها ، فأقر محاكم التفتيش عام ١٢٠٨ ، فهضمت بأداء مهمتها الأئمة على النحو الذى عرفناه فى الفصل الأول ، وهو مع خلفائه الذين رسموا خطة منظمة لسحق الملحدىن واستبعادهم من العالم المسيحى ، وفى عام ١٢٠٩ بدأ دى مونفورت فى مذبحه الالبيجىن ، وفى عام ١٢١٥ طلب مجلس لاتران الرابع إلى جميع الحكام أن يقسموا غير حائثىن أن يبذلوا أقصى ما فى وسعهم لاستئصال الهرطقة فى أقاليمهم وإبادة أهلها فى غير رفق ولا رحمة .
حسبنا هذا إشارة مقتضبة لوجهات النظر التى أدت بعدد إلى الحد من طلاقه العقل والتضييق على التفكير الحر ، ولنعرض لموقف العقل إبان هذه العصور :

مسألة العقل للكنيسة فى العصور المظلمة :

نذتها للكنيسة هذا الحول والطول ، والعقل الأوربى على شفا الاحتضار ، يعوزه الإبداع وتنقصه أصالة التفكير ، فيردد بعض ما انحدر

إليه من تراث القدامى ، منساقاً في ركاب الكنيسة ، يسبح بحمدها ويكبر
لسلطاتها ، ويبشر بتعاليمها ، فلبث الجو بينهما على صفاء ، حتى دبت فيه اليقظة
وواتاه النضج ، واستشعر الضيق لاستبعاد الكنيسة له ، وتأهب للتمرد على
سلطانها ، فأذن هذا التغير باكفهرار الجو وتوتر العلاقات ، فلنفسر
هذا قليلاً :

كان بعض آباء الكنيسة يشتغلون بالفلسفة قبل اعتناقهم الدين الجديد ،
فاتجهوا منذ العصور الأولى إلى استغلال الفلسفة لخدمة الدين وتأييد عقائده ،
وإذا كان النظر العقلي عند اليونان قد تحرر من كل قيد ، لأن اللذة العقلية
كانت جماع بواعثه ، واكتشاف الحقيقة كان أقصى غاياته ، وإذا كان الرومان
قد احتضنوا هذا النظر لخدمة الأغراض العملية ، فأن مفكرى المسيحية منذ
عصورها الأولى ، قد جنحوا إلى رفض هاتين النزعتين ، فاعتبروا نزعة اليونان
ترفا لا طائل محته ، ونزعة الرومان حرصاً على الدنيا التى بشرت المسيحية
بالاستخفاف بها إيثاراً للأخرى ، ومن أجل هذا وجهوا نشاط العقل إلى
خدمة الدين ، فسلك المتفلسفة فى أوربا المسيحية مسلك المتكلمين فى الإسلام ،
أقاموا منهج البحث على أساس البدء بالاعتقاد بصحة ما نزل به الوحي ، ثم
استخدام العقل فى محاولة تأييده والبرهنة على صحته ، على عكس ما يقضى به
منهج البحث عند الفلاسفة والعلماء معاً ، من عدم التسليم برأى ما ، إلا بعد
إقامة البرهان على صحته بالنظر العقلي الحر ، أو الاختبار التجريبي ، وعند
هذا المنهج الكلاسي انعقد الرأى عند فلاسفة العصور الوسطى — من
أفلاطونيين كأوغسطين وأنسلم ، وأرسطاطاليسيين كألبيركبير وتوما
الأكوينى — وفى هذا يقول چانيه وسياى : إن الفلسفة منذ عصور المسيحية
الأولى كانت متضمنة فى تكوين العقيدة الدينية ، وقد جدّ الفلاسفة فى العصور
الوسطى ، فى التوفيق بين العقل والايان ، لكنى يجعلوا سلطة العلم القديم ،
وسلطة الدين الجديد على وفاق واتساق ، وكانوا ينزعون إلى البرهنة على أن

الحقائق التي نزل بها الوحي الإلهي ، تسير منطق العقل ، ومن ثم تكون قوانين المادة والعقل وطبيعة الانسان وقوانين منطقته متضمنة كلها في المسيحية ، وكان هذا مطمح كبار المفكرين في هذه العصور ، فالقديس أنسلم + ١١٠٩ — كبير الأفلاطونيين في العصر المدرسي — يرى أن الإيمان ضروري للعقل ، بل شرط لصحة التفكير وسلامته ، والقديس توما + ١٢٧٤ — كبير المشائين وزعيم اللاهوتيين في هذا العصر — يذهب إلى التمييز بين مجال العقل وميدان الايمان ، ويجعل وظيفة العقل تهيئة الطريق إلى الإيمان ، وإرشاد الناس إليه ، ويقرر بأن الحقائق التي يقدمها الايمان ، لا يقوى العقل على التدليل عليها ، ففي استطاعة العقل أن يتصور وحدة ماهية الله Essence ولكنه لا يستطيع أن يدرك تثليث الأقانيم ، ومن دلال على عقيدة التثليث في الأقانيم حقر من شأن الإيمان .

ورأى أن الفلسفة تمتاز من الدين في المنهج كذلك ، إن منهجها يقوم على البرهان العقلي ، ومنهج الدين يستند إلى الوحي الالهي . ولكن القديس توما مع اقراره بهذا التمايز قد عاجل التوفيق بينهما ، وإن أوجب على العقل أن يتقيد بالوحي ، لأن تجاوزه نطاق الوحي ، دليل على فساد تفكيره .

وإذا كان العقل لا يقوى على التمسك لحقائق الايمان ، ففي وسعه أن يدحض الاعتراضات التي توجه اليها ، وقد بدا «توما» في فترة من الزمن ، وكأنه نجح في التوفيق بين العقل والايمان ، ولكن وليام أوكام W. Occam باعث المذهب الاسمي في القرن الرابع عشر — قد أعلن أن كل ما كان وراء التجربة ، لا يدخل نطاق العقل ، ومن ثم يكون موضوعا للإيمان^(١) . ومن هذا نلاحظ ما أسلفناه من قبل ، من أن محاولة التوفيق بين العقل والايمان —

P. Janet et G. Sèailles: L' Histoire des Problèmes de la Philosophie (١)

وقد نشر هنري جونز أسناذ المدفئة الحلقية في جامعة جلاصجو ترجمة انجليزية للشطر الأول من الكتاب في جزئين ترجمتهما إذا موناهان . والفقرة المقدسة ص ٩ — ١٠ في النسخة الانجليزية .

عند فلاسفة العصور الوسطى - كانت تقوم على إخضاع الأول للثاني ،
وتسخيره لخدمة الحقائق التي نزل بها الوحي ، لا لبحثها وتعريف وجه
الحق فيها .

وهكذا انصبّت الدراسات الفلسفية في شتى صورها في قوالب لا هوتية
محضة ، وحتّى العلوم الطبيعية - وكانت مذابة في الفلسفة - كانت فيما يقول
هوايت موضع استخفاف ، مالم تسخر لإقرار ما جاءت به الكتب المقدسة ،
وغاية البحث عند أهلها هي الكشف عن جلال الله ، وروعة حكمته البادية في هذه
الخليقة ، وكانت النصوص المقدسة ، مصدر التفكير في العالم الطبيعي ، أكثر
من عشرة قرون من الزمان ، ووجه الطرافة في هذا ، استمرار هذه النزعة ،
وتجاوزها العالم الكاثوليكي فيما بعد إلى البروتستانت الذين انشقوا على
الكنيسة الكاثوليكية ، وهذا يفسر لنا استخفاف الكنيسة الأولى بعلم الهيئة ،
إذا لم يحقق غرضاً دينياً ، وفي موقف القديس أوغسطين منه ، شاهد عدل
على ما نقول . وسرعان ما اتصل الدين بموضوع العلم والفلسفة ، فاتصلت
فكرة الخلق بنظرية الفداء في المسيحية ، وأفضى هذا إلى استبعاد علم طبقات
الأرض ، وعلم الحيوان وعلم الانسان ، من ميادين البحث الحر واعتبرت
الحقيقة متضمنة في ظاهر النصوص المقدسة ، وتكفل تفسيرها بهداية الناس
إلى وجه الحق فيما يبحثون ، فأدى هذا إلى الأخطاء الجسيمة التي سنعرض
ليانها في الفصول التالية .

على أن من الإنصاف أن نقول مع « بيورى » ، إن الأوضاع الاجتماعية
في العصر الوسيط كانت لاتلائم الروح العلمي الذي ينزع إلى اكتشاف الحقيقة
لذاتها ، ولم يكن من المعقول - فيما يبدو في نظر بيورى - أن يبعث العلم
من جديد لو ظلت هذه الأوضاع الاجتماعية قائمة في القرن الثالث عشر وما
بعده . ومعنى هذا أن العقائد التي كانت سائدة في المدة التي تفصل الحضارة

الحديثة عن الحضارة القديمة ، لم تكن السبب في إعاقة إحياء العلم وابتعائه ، وكل ما تحمله هذه العقائد من تبعات ، إنما يقوم في العوائق التي أقامتها في وجه العلم حين همّ بالانبعاث والظهور من جديد .

بدء النزاع بين العقل والسملة :

هذا هو الجو الذي عاش فيه العقل الأوربي إبان عصر الآباء ، وشطراً من العصر المدرسي ، فلما أقبل القرن الثاني عشر ، أفاقت أوربا المستغرقة في سباتها الأمن ، على دعوة جديدة لا تسير روح العصر ، نادى بها « أيلارد ، وطالب فيها بتحرير العقل من كل قيد ، واعتباره الحَكَم الذي يفصل في كل رأى ، ويعرض بالمناقشة الحرة حتى لحقائق الوحي المنزل ، وتعاليم الكنيسة المقدسة .. ! وبهذا أقام البحث اللاهوتي على أساس من منطق العقل ، ورفض كل ما لا يتمشى مع منطق دعوته ، فسخر من آلام المسيح لقاء رحمة الله وغفرانه ، وعزا تألمه إلى حبه لله ورغبته في أن يرد الناس إلى طاعته والاعتراف بحمليه ، وتمادى فوضع كتابه « نعم ولا Sic et Non وعرض فيه بآباء الكنيسة . ! وعرض إلى عقيدة التثليث في الأقانيم ، فأولها تأويلا يساير منطق العقل ، وهال رجال الدين مارأوه من كلف الناس بدعوته ، وتهاقهم على الاستماع لمحاضراته ، فتصدوا لمقاومته . واضطلع القديس برنارد St. Bernard of Clairvaux باثارة الرأى العام في وجهه ، وكان هذا القديس يستلهم الانجيل في دفاعه ، وينساق في خصومته بوقدة الايمان الذي كان يعمر قلبه ، فأذعن للمنهج الديني وأعلن أن الحقيقة الالهية لا يتكشف عنها عقل ولا ظن ، وإنما تصدر عن الوحي الذي يهدى العقل سواء السبيل ، فأتهم أيلارد بالهرطقة وانعقد لمحاکمته بجمع سواسون Soisson عام ١١٢١ ، وأدان المجمع رأيه ، وقرر إحراق كتابه — الذي تناول فيه عقيدة التثليث ، وأستدعى أيلارد

وأكره على إلقائه في النار بيده ، ثم سجن في دير St Médard في سواسون .
ولكنه عاد إلى مواصلة بحثه في حدود منهجه العقلي ، ونجح القديس برنارد
في عقد مجلس لمحاكمته في Sens عام ١١٤١ ، فخفف أيلارد إلى روما
مستنجداً بالبابا ، ولكن خصمه قد كشف عما تتضمنه آراؤه من بدع ،
وتمسك - في العام التالي - من استصدار قرار بأدائه ، ووافق البابا على
حرمه مع تعاليمه ، وإلزامه الصمت بعد ذلك .

لقي أيلارد عنتاً كثيراً ، ولكنه لفت العالم الأوربي إلى نداء العقل ،
ومهد الطريق لسلطان أرسطو الذي علا بعد ثمانه بنحو نصف قرن من الزمان ،
ولكن قصة غرامه مع هيلونيز قد فتنت العالم وصرفته عن فلسفته ، فلبث
مجهولاً حتى كشف عنه كوزان Cousin عام ١٨٣٦ حين نشر «Ouvrages
inédit d'Abelard» آثار غير معروفة لأيلارد .

هذا ما لقيه أول من دعا لتحكيم العقل في أوروبا ، فجرت الفلسفة في عصرها
الحديث على دعوته ، وفي القرن التالي ، نهضت في أوروبا دعوة جديدة لم تسكن مألوفة
عند أهلها ، هي الالتجاء إلى التجربة ، واستقاء العلم من معينها ، وعدم الركون إلى
السكتب والمراجع^(١) وفي ضوء هذه الدعوة ، جرى العلم الطبيعي في عصرنا
الحديث ، أما صاحب هذا الاتجاه الجديد ، فهو روجر بيكون ١٢٩٢ وهو

(١) جدة الدعوة ملحوظ فيها الزمن الذي قبلت فيه ، وإلا فقد عرفت من قديم الزمان ،
فأرسطو على وجه أخص ، قد دعا إليها ومارسها ، قال في كتاب السياسة « لا ينبغي أن
يطلب الضبط من الاعتبارات النظرية المجردة بقدر ما يكون في مشاهدات الحوادث الواقعة
تحت الحس » وقال أيضاً « وهنا كما في كل موطن آخر ، الصمود إلى مبدأ الأشياء والعناية
بتتبع تطورها هو آمن طريق للمشاهدة » ومن هنا اعتبره إمام الفلسفة الوضعية « أوجست
كونت » أول من بدأ بنقل التفكير الفلسفي من طوره اليتايزيقي إلى طوره الوضعي . فيما
قرر في الجزء الأول من دروسه في الفلسفة الوضعية وفيها أشار أحمد لطفى السيد باشا في تصديره
الإخلاق ص ١٧ بل لأنه لا يكتفى بإبشار الاعتماد على الحواس أكثر من الاعتماد على
الاستنتاج ، بل قرر عدم الثقة بالاستنتاجات إلا متى طابقت الحقائق الملاحظة ، لأنه أوجب
التحقق من صدق الفروض بالرجوع إلى هذه الحقائق ، وقيل إن في كتبه لفتات مثورة
جمت مبادئ المنطق الاستقرائي الحديث كله . . .

راهب فرنسيسكاني صيغ عقله من روح عصره ، ولكن لهفتات سبقت زمانه، منها الثورة على الجهل والتمرد على تحكم السلطات والدعوة إلى التجربة العلمية ، وقد أفضت به دراسته للغة الربية ، إلى الإعجاب بتراث أهلها ، والتفوق من طريقة الجدل الأرسطاطاليسية ومهاجمة الاعتقاد على التأمل العقلي وحده ، وبهذا أبطل المنهج النظري ونزع الى الاحتكام إلى التجربة في كل معرفة نستقيها من الطبيعة ، واهتدى إلى الكثير من المخترعات وعرف الروح العلمي الصحيح ومال إلى الكشف عن مغالطات السحرة وأضاليلهم واشتد في حملاته على معاصريه من الفرنسيسكان والدومينكان والعلمانيين على السواء ، فأثمهم بمزاولة السحر ، وانعقد مجمع فرنسيسكاني وقرر « حرم » كتاباته مع حبسه في غرفته ، فلبث سجيناً من عام ١٢٧٧ إلى ١٢٩٢ م . وبماتته كادت تموت دعوته إلى التجربة ، حتى إذا أقبل عصر النهضة ، وأشرف العصر الحديث ، استيقظت حماسة الترويج لها في رواد الفكر الحديث ولا سيما خلفه وسميه في الاسم : فرنسيس على نحو ما سنعرف بعد .

على أن روجر — رغم هذه اللفات الطيبة — لم يكن إلا نتاج عصره ، لا رائداً لحرية التفكير ، ولا نائراً على الروح المدرسي كله — فيما يقول D. A. Sharp — لا يتردد في الاعتقاد بحجر الفلاسفة والايان بعلم النجامة .¹ ولهذا قال عنه فولتير : ذهب وقد رانت عليه جميع أقدار عصره . .

أما عن موقف الكنيسة من أرسطو ، إبان العصر المدرسي — فلا ينبغي أن نمر به ، دون أن نقف عنده ، وأن نطيل الوقوف قليلاً ، لأن الكنيسة قد اعتنقت أرسطو — الذي بدا بعد مسيحياً — مذهباً رسمياً لها ، وأقامت على هذا ، منذ ذلك العصر حتى يومنا الراهن ، وترتبت على هذا آثار لها خطرها الملحوظ في تاريخ النزاع بين الدين والفلسفة .

أوربا بين الطابع الأرسطوني والأرسطاطاليسي :

منذ عصور المسيحية الأولى ، والفلسفة موضع نفور عند بعض المسيحيين ،

تولوا منذ القرن الثاني مناهضة الاشتغال بها ، وإثارة الرأى العام ضد أهلها ،
وآتت دعوتهم ثمها حتى علت راية العقل حديثاً ، وطمست نفوذ هؤلاء
الخصوم ، ولكن تاريخ الفكر قد سجل إلى جانب هذا التيار ، تياراً مضاداً
بدا عند آباء الكنيسة الذين كانوا يشتغلون بالفلسفة قبل اعتناقهم الدين الجديد ،
فواصلوا الانتصار لها ، واستغلال أساليبها ومذاهبها في تأييد العقيدة الدينية
والتحكيم لتعاليمها ، ومقاومة الوثنية وحملات رجالها ، وكانت الأفلاطونية
- القديمة والمحدثه - أكبر عون لهم في هذا الجهاد الدينى ، وانتصر هذا
الاتجاه فى العالم الأوروبى منذ عصور المسيحية الأولى ، وكان مردّ الانتصار
إلى انطواء الأفلاطونية على نزعات روحية لاتبدو فى غيرها من المذاهب على
هذا النحو من الوضوح ، وهى نزعات تُيسّر قبول المسيحية ، وتمهد للتوفيق
بين الدين والفلسفة ، وقد كان عَلم هذا الاتجاه القديس أوغسطين + ٤٣٠
الذى طبع التفكير الأوروبى بطابعه الأفلاطونى حتى القرن الثانى عشر ، وهكذا
جهل العالم الأوروبى تراث أرسطو منذ بداية المسيحية ، بل انصرف عن
دراسته باعتباره طبيعياً ملحداً ، وإن سلم بما عرف من مباحثه فى المنطق منذ
القرن الخامس والسادس لليلاد (١) . ولبث العالم الأوروبى على هذا حتى
أقبل القرن الثانى عشر وانتقل إليه تراث أرسطو فى الطبيعة والاخلاق
والميتافيزيقا وعلم النفس ، وذلك حين اجتاحت قوات ألفونس السادس
- أمير قشتاله - مدينة طليطلة عام ١٠٨٥ م (٢) . وأنشأ المونسنيور ريموند

(١) يقول جيوم إن أحداً من أهل الغرب لم يحظر له أن أرسطو كان فيلسوفاً حتى جاء
زمن جنديز امس ، وكانت ترجمة Boethius للمقولات والعبارة وأبحاثه فى المنطق كل ما بلغ
أوروبا من علم أرسطو حتى عام ١١٥٠ تقريباً (تراث الأسلام ٢٣٩ فى ترجمتنا لفلسفة واللاهيات) .
(٢) وسرعان ما اصطبغ بلاطه المسيحى بالثقافة الاسلامية ، فأعلن نفسه « امبراطور
القيديتين » وحجج إلى طليطلة طلاب العلم من كل أنحاء أوروبا وأضحت طليطلة مدرسة
للترجمة من اللغات الشرقية كما يقول J. B. Trand فى مقاله عن أسبانيا والبرتغال فى « تراث
الاسلام » من ترجمة صديقنا الدكتور حسين مؤنس ص ٥٤ - ٥٦ وراحت مكتبة مسجدنا
مثابة للعلماء فيها يقول ايرانت باركر E. Barker فى مقاله عن الحروب الصليبية فى الكتاب
السالف من ترجمة صديقنا الأستاذ طى أحمد عيسى ص ١٠٨ .

Raymund كبير أساقفة المدينة — بين سنتي ١١٣٠ - ١١٥٠م — ديوانا لترجمة الكتب العربية في الفلسفة ، على يد مترجمين من اليهود ، وأمر رئيس الشمامسة السالف الذكر دومنيك جنديرفالفس D. Gundisalvus أرشيدوق سيجوفيا (١) ويوحنا أفنديث الأشبيلي Juan Avendeth بترجمة التراث الفلسفي الإسلامي ولا سيما ما خلفه ابن سينا ، ثم تكفل الديوان بعد هذا بترجمة الفارابي والسكندی ، وفي النصف الأول من القرن الثالث عشر ، تولى ميخائيل الإيقوصي Micheal the Scot ومن حذا حذوه ترجمة تراث الشارح الأعظم ابن رشد تحت رعاية الأمبراطور فردريك الثاني الذي اتصل بالعالم الإسلامي في حروبه الصليبية ، ومهر في العربية واستخفه الإعجاب بفلاسفتها ، فتاق لنقل تراثهم إلى اللاتينية والعبرية . وعلى هذا النحو عرفت أوروبا فلسفة أرسطو منقولة إلى اللاتينية عن كتب شراحه ومفسريه من المسلمين ، واستطاع مفكرو أسبانيا أن يقدموا للغرب تراثه قبل أن تنتعش فيه الدراسات الإغريقية بعدة قرون ، وأضحت ترجمتهم مرجعاً للعلم في القرن الثالث عشر . وقد انتقل أرسطو إلى أوروبا عن غير أسبانيا ، لأن الحروب الصليبية حين ربطت المسيحية اللاتينية بالدولة البيزنطية والمسيحية اليونانية — فوق ربطها بالشرق الإسلامي — قام وليم المورييكي W. of Moerbeke — بطريق كورنثة الفلينكي وزميله هنري البربنوتي Henry of Brabant — بنقل كتابي الأخلاق والسياسة لأرسطو بمساعدة القديس توما — في القرن الثالث عشر — وفي نهاية القرن الرابع عشر ، وفي خلال القرن التالي له حمل علماء بيزنطة إلى إيطاليا التراث اليوناني كاملاً وغذوا به النهضة الإيطالية ، فيما يقول ، ايرنست باركر .

وعلى هذا النحو استحوذت أوروبا على خلاصة الفلسفة الأرسطاطاليسية ، أي على دائرة المعارف القديمة ، وما اتصل تراثه بأوروبا حتى ضاق به رجال

(١) انظر The Legacy of Israel ص ٢٥٤ — ٢٥٦ .

الأكليروس ، لأن اسمه كان لا يزال موصوما بالإلحاد ، وإذا كان مذهبه في نظرهم لا يساير تعاليم الكتاب ، وعندئذ جد رجال الاكليروس في مقاومة آرائه الطبيعية والميتافيزيقية ، إذ لم يكن ثمة مسيحي مؤمن ، يرضى عن رأيه في الله وصفاته وموقفه من العالم وخلود النفس ونحو ذلك .

ولكن بعض المتفلسفة من المسيحيين قد جدوا في التوفيق بين مذهبه وتعاليم الكتاب ، ولم ينتصف القرن الثالث عشر حتى تكفل ألبير السكبير + Albertus Magnus ١٢٨٠ والقديس توما الأكويني St Thomas Aquinas + ١٢٧٤ بالانتصار لثرائه وإبدائه في صورة مسيحية عقلية ، ضاقت بها الكنيسة أول الأمر ثم رضيت عنها واعتمدت القديس توما مذهباً لها ، فأنحصرت في أرسطو بعد هذا فلسفة المدرسين ، واعتنقه العالم الكاثوليكي ديناً إلى جانب دينه ، أو اعتبره صورة عقلية لدينه المنزل ، فاتهم بالإلحاد كل من خرج على ما اعتمده الكنيسة من آرائه ، فكانت هذه هي « السلطة العلية » التي يتحدث عنها مؤرخو الفلسفة كثيراً ، وأخص ما يميزها تقيد المفكرين بما قال أرسطو ، وسخط الكنيسة - والعالم الأوربي من ورائها - عمن ينتهي إلى غير ما قرر من رأى ، ومطاردة الذين يبشرون بفسكرة لم ترد في ثرائه ، أو لا تكون على اتفاق مع ما ارتأى من قل ، وسوف نرى فيما يلي من بحثنا ، أهم الآثار الخطيرة التي ترتبت على هذه السلطة العقلية ، وكان لها أكبر الخطر في تاريخ النزاع بين الدين والفلسفة .

موقف الأكليروس اليهودي منه أرسطو :

حمل اليونان مشعل الفلسفة عدة قرون من الزمان ، ثم خبا النور في أوربا منذ عصور المسيحية الأولى ، فحمل المسلمون القبس في العصر الوسيط ، ثم سلموه إلى بني إسرائيل ، وصله هؤلاء بدورهم إلى المسيحيين في أوربا إبان العصر المدرسي ، فلنتحدث في إيجاز عن موقف الأكليروس اليهودي من أرسطو ، ثم نعقب عليه بالحديث عن موقف الأكليروس المسيحي :

مثل ابن ميمون في اليهودية دور القديس توما في المسيحية، وابن رشد في الإسلام، من حيث محاولة التوفيق بين الدين والفلسفة، وانتهى إلى القول بأن العالم غير قديم، وأول ما ورد في سفر التكوين بشأن الخلق، فقال إن المراد ترتيب الكائنات بعد خلقها، وصرح مع هذا بأن القول بقدم المادة لا يعتبر كفراً ومضى في هذا الاتجاه طويلاً، فاتهم بالكفر والتعطيل - فيما يقول المقرئ - وأخذ الأكليروس اليهودي في مقاومة فلسفته واضطهاد أشياعها، فاضطر الكثيرون منهم إلى مغادرة الأندلس والانصراف عن العربية، ونقل ابن رشد ومن إليه إلى العبرية واللاتينية، وتولى فردريك الثاني تشجيع هذه الحركة ورعاية رجالها، ولكن هذه النهضة قد تكشف عن آراء لاتساير الشريعة اليهودية من استحالة الخلق من عدم، وقدم المادة ونحوها مما حاول فلاسفة اليهود أن يؤسولوا الشريعة بحيث تسير هذه المذاهب الفلسفية، أي أنهم حاولوا - كفلاسفة، وعلى عكس ما يفعل المتكلمون - إخضاع الدين للفلسفة في عملية التوفيق - وهو منهج ابن رشد ومن إليه من فلاسفة الإسلام. ثم أخذت الفلسفة اليهودية في الاضمحلال منذ القرن الخامس عشر وأخذ ساعد الأكليروس اليهودي يشتد ويقوى، حتى إذا أقبل القرن السادس عشر، اشتدت حملته على الفلسفة، واستعان في مقاومتها بالغزالي الذي اشتد في هجومه على الفلسفة في العالم الإسلامي على ما سنعرف في الفصل التالي، فترجم اليهود كتابه، تهافت الفلاسفة، حول عام ١٥٣٨ م ليدحضوا به أتباع ابن رشد وأرسطو، ولبثت الحال على هذا حتى احتلت الفلسفة الأوربية الميدان في العصور الحديثة.

موقف الأكليروس المسيحي من أرسطو وشراعه من المسلمين:

نقل اليهود أرسطو إلى أوروبا عن كتب المسلمين في القرن الثاني عشر، على نحو ما أبنا منذ حين، فنهض الأكليروس لمقاومته، حتى ظهر أرسطو مسيحياً في القرن التالي، فانشطرت أوروبا المسيحية إزاء التراث الأرسطاطاليسي

إلى معسكرين : معسكر ينتصر لأرسطو الذى بدأ مسيحياً عند توما وألبير ومن جرى مجراها ، وقد جدت في تأييد هذا الاتجاه جامعة السوربون وإخوان الدومنيكان بوجه خاص . أما المعسكر الثانى فكان يناصر أرسطو الذى تكشفت عنه السكتب العربية ، وأرندى في أوروبا ثوبا لاتينياً ، ولم يتمثل تراثه صدى وحى دينى سماوى ، بل بدأ نتاج عقل انسانى عبقرى ، لأن محاولة المسلمين التوفيق بينه وبين الاسلام كانت تقوم على اخضاع الدين للفلسفة وتأويل آياته حتى يسايرها ، وتولت رعاية هذا الاتجاه جامعة باريس على قلة علمائها منذ النصف الثانى من القرن الثالث عشر حتى القرن التالى ، حين فر علماءها - تحت ضغط الاضطهاد الى جامعة بادوا ومثلوها الأرسطاطاليسية أصدق تمثيل - إبان القرنين الخامس عشر والسادس عشر كما سنعرف عند الحديث على النزاع فى عصر النهضة .

كان للدومنيكان من أمثال ألبير الكبير + ١٢٨٠ والقديس توما الاكوفى + ١٢٧٤ أكبر الأثر فى التمسك لتراث أرسطو ، والمظنون أن البير الكبير كان أول من ميز بين نور العقل (العلم الطبيعى) ونور الوحي (علم اللاهوت) ، فتكفل هذا بضمان شيء من الحرية للعلم والفلسفة اللذين كانا مسخرين فى العصور الوسطى لخدمة الدين - فيما يقول ولف - واذا كان ألبير قد روج للذهب الأرسطاطاليسى ، وأضاف اليه أقوال شراحه ، فقد كان يتحلى عن تأييده كلها بدا على غير اتفاق مع تعاليم الدين ، ولهذا أنكر على أرسطو قوله بقديم العالم ، وآمن بخلود النفس ، ورفض تعريف الله بالمحرك الأول ، ، واعتبره موجوداً لامتناهياً . وقد أكد القديس توما نزعة ألبير ، فميز فى وضوح بين الفلسفة والإيمان فى الموضوع والمنهج معا ، وكفل الغلبة للإيمان الذى يستند الى الوحي ، على الفلسفة المكتسبة بالعقل - كما أشرنا من قبل - واعتبر الوحي محكاً للحقيقة إن خالفه العقل ضل سواء السبيل .

وقد ضاق الفرنسيسكان بموقف الدومنيكان ، فرفض أمثال دانزسكوت Dunz Scotus + ١٣٠٨ ووليام اوكام + ١٣٤٩ أية محاولة يراد بها التوفيق بين الايمان (اللاهوت) والعقل (الفلسفة أو العلم الطبيعي) ، وصرحوا بأن ما يسلم به العلم ، قد لا يدعن الايمان له ، وجأهروا بأن كلمة الدين هي العليا ورفضوا المذهب العقلي الذي روج له القديس توما ، وقرروا أن الخير مقدم على الحق ، والخير ما أمر به الله ، وأوامر الله ليست في ذاتها خيراً ، ولكنها خير لأن الله قد أمر بها ! ومن واجب الإنسان طاعة الله .

وقد اعتنقت الكنيسة — الكاثوليكية — الأرسطاطاليسية كما بدت في فلسفة القديس توما مذهباً لها ، وأقامت على هذا حتى يومنا الراهن ، وقد كان لهذا الموقف خطره البين في تاريخ النزاع بين الدين والفلسفة ، ولهذا يحسن بنا أن نقف عنده قليلاً :

كان القديس توما أكبر أرسطاطاليسى في أوروبا المسيحية كلها ، وكان ابن رشد أعظم شراح أرسطو في العالم الإسلامي — شرقيه وغربيه على السواء ، ومع هذا فقد خصمه توما خصاماً شديداً ، وإن كان من الإنصاف أن نقول مع « رينان » ، إنه كان أكبر تلامذته ، وأن نقرر مع بيورى أن شيوع تأملاته كانت من الأسباب التي أدت الى ظهور فلسفة القديس توما ، وأن نسلم مع ألفرد جيوم بأن وجوه الاتفاق بين إلهيات توما وابن رشد في منتهى الكثرة ، بالإضافة الى أن محاولته التوفيق بين الدين والفلسفة تسير عندهما في طريق واحدة ، وتجرى على نسق واحد^(١) ، وكان

(١) كان لابن رشد نموذ واسع الطاق في العالم المسيحي ، رغم أنه سوء حظه في العالم الاسلامي ، لم يخلفه تلميذ واحد يواصل فلسفته — فيما لاحظ « رنان » Renan وكان أثر فلسفته وشروحه على أرسطو ضئيلاً جداً في العالم الاسلامي — فيما يقول « دي بوير » De Boer ، بل لقد كان ابن رشد آخر فيلسوف كبير في العالم الاسلامي كما ستعرف في الفصل التالي ، وقد واصل فلسفته ابن مبيون ومدرسته . ويبدو لنا أن مرد هذه الحسومة التي كان لها أبلغ الآثار في موقف الكنيسة من كل من توما وابن رشد الى الخلاف في النهج الذي اتبعه كلاهما في فلسفته ، فإن رشد كان يوفق بين الدين والفلسفة بتأويل الآيات الدينية تأويلاً

توما إذن أقوى خصوم ابن رشد جميعا ، وقد تكفل بدحض ما لا يسائر
تعاليم المسيحية من مذاهب الفلسفة العربية عامة والرشدية بوجه خاص ، من
قدم المادة وإنكار العناية الألهية ووحدة العقل واستحالة الخلق من العدم
ونحوه ، واستطاع هذا القديس أن يستنبط من فلسفة أرسطو خلود النفس
والقول بأن الله واجب الوجود ، ... الخ .

وخطأ أرسطو في القول بقدم الزمان والحركة . كما خطأ ابن رشد في
استنتاجه استحالة الخلق من ذلك ، وتكفل هذا كله بأن يدنى مذهبه من قلوب
رجال الكنيسة ، بقدر ما باعد بين الكنيسة ومذهب ابن رشد بوجه خاص .
ونهض الأكليروس لمقاومة الأرسطاطاليسية ، وبدأت المقاومة في عام
١٢٠٩ م ، حين انعقد مجمع اكيركي في باريس ، وقرر إدانة المشتغلين بفلسفة
أرسطو الطبيعية وشراحه ، ثم عاد الأكليروس فقرر منع تعليم أرسطو ،
وخاصة كما بدأ في تراث ابن سينا ، وقرر البابا جريجورى التاسع عام ١٢٣١
تحريم الاشتغال بدراسة الفلسفة الإسلامية ، وكان يكفى تبريراً لهذا التحريم ،
إنكار أرسطو لخلود النفس ، وموقفه من قدم العالم وخلقها ، ونظرته الى
الكون باعتباره خاضعاً لنواميس طبيعية - في وقت جهل فيه العلم الطبيعي
هذه النواميس .

وقد كان ابن رشد هدف هذه الحملات فيما يالوح ، وهو الشارح الأعظم
الذى اشترك في خصومته ألبير السكبير وتوما الأكويني معا ، فكان المحقول أن
يكون محط السخط من رجال الكنيسة . وكان المظنون خطأ أنه يقول إن
الفلسفة على حق ، وأن الأديان المنزلة على ضلال ، ومرد هذا الخطأ في فهم

== يؤدي الى اتفاق معناها مع مايقول أرسطو ، أما توما فكان في توفيقه بينهما يؤمن بالفكرة
الدينية أولاً ثم يأخذ في تفسير المذهب الفلسفى وتوجيهه الى حيث يتفق مع النصوص الدينية ،
أى أن ابن رشد أخضع الدين للفلسفة ، أما توما فقد أخضع الفلاسفة للدين ، فكان الطبيعى
بعد هذا أن تقوم الخصومة بينهما ، وان تختلف نتائج البحث الواحد عند كليهما ، وان
تنصر الكنيسة للأدبىس توما وتختصم مع ابن رشد وإن كان كلاهما شارحا لفلسفة أرسطو !

ابن رشد إلى سيجر Siger o Brabant لأنه كان لا يذكر نظرية تتعارض وتعاليم المسيحية إلا استند إلى أرسطو ، وعزا الإبهام الذي يصادفه في شرحه ، إلى تعليقات ابن رشد ، وكان من رأى سيجر أن العقل والعقيدة متناقضان ، ولما كانت الكنيسة لا تجد في تناولها دراسة دقيقة لتعاليم ابن رشد وكتاباتة ، فانها لم تتردد من أن تضم إلى سخطها على سيجر ، سخطها على المصدر الذي ادعى أنه استمد منه نظرياته (١) .

والواقع أن ابن رشد كان لا يقل عن القديس توما حماسة في تأييد المثل الأعلى القائل باتساق العقل مع العقيدة ، والثابت أن توما قد أفاد منه كثيراً في تأييد هذا الاتساق (٢) . ولكن توما - بوجه خاص - قد شوه سمعته ، فوضع رسالة « في وحدة العقل رداً على أتباع ابن رشد de unitate intellectus contra averroistas عارض فيها الرأى القائل بأن الاعتقاد في وحدة العقل - كونه واحداً لجميع الناس - ضرورى من وجهة النظر العقلى ، بينما ينبغي رفض الاعتقاد بها رفضاً باتاً من وجهة العقيدة الدينية ، وناقش رأيه في وحدة العقل « مارتن » في كتابه الدفاع عن الايمان ، وكتب « استيفن » أسقف باريس رسالة قدم بها للنسع عشرة ومائتى مسألة ، المنسوبة لأتباع ابن رشد ، الذين أدانتهم الكنيسة ، وعرض مارتن لمناقشة وحدة العقل

(١) كنت اثناء ترحيلى للفلسفة والالهيات في كتاب « تراث الاسلام » على اتصال بواضع هذا الجزء الموقر « الفرد جيوم » بالجنلتر ، وقد جاء في رسالة منه إلى : « يابنى ان تتكلم عن ابن رشد حذرين ، وأنا لا أرى في تعاليمه ما يناقض عقائد الاسلام . الخ انظر ص ٣٦٥ - ٦٦ ج ١ تراث الاسلام .

(٢) انظر كتابه : فصل المقال فيما بين الضريبة والحكمة من الاتصال وكتابه : مناهج الأدلة في عقائد الملة ، وقد تناول الأولى بالدرس المستشرق الفرنسى ليون جوتيهيه L. Gauthier ونشر الثانى بالأسبانية المستشرق ميغيل بين M. Bain مع مقارنته بكتاب توما « الخلاصة الفلسفية » وقام بنشرهما مولر Müller وترجمهما إلى الألمانية ونشرت الرسالتان بالقاهرة تحت عنوان فلسفة ابن رشد ١٣١٣ ، ١٣٢٨ - وانظر ما كتبه الفرد جيوم في بحثه عن « الفلسفة والالهيات » المنشور في كتاب تراث الاسلام The Legacy of Islam الذى ترجمناه إلى العربية ونشرته لجنة الجامعيين لنشر العلم في عام ١٩٣٦ .

عند ابن رشد في كتابه «الدفاع عن الايمان» واعتبرها شبيهة «بهذيان عفيف» فتكفل هذا وأمثاله بتصوير ابن رشد في صورة رب الزندقة وأبي الفكر الحر.

ولكن جامعة باريس قد نهضت بتعليم ابن رشد، وتمثل فيها التراث الأرسطاطاليسي مستقلاً عن الروح الديني، وكان أظهر ما في برنامجها — من الفلسفة الرشدية — القول بقدوم العالم وإنكار خلود النفس وإقرار فناؤها بفناء الجسم^(١)، والنظر إلى الحوادث باعتبارها متعاقبة تعاقباً لا مجال فيه للعناية الإلهية... ونحو هذا مما لا يرتضيه مسيحي مؤمن، فنشأت عن هذه الجامعة مدرسة من أحرار الفكر الذين ذهبوا إلى أن قصة التكوين وبعث الأجسام ونحوه من العقائد الرئيسية، ربما كان صحيحاً من وجهة النظر الدينية، ولكنه باطل من وجهة النظر العقلية! ولم يُسَخ هذا الاتجاه رجال اللاهوت الذين كانوا يرون الاتفاق معقوداً بين العقل والوحي، وخُيِّل إلى الرجل العادي وكأن أصحاب هذا الاتجاه يقولون إن نظرية خلود النفس صادقة أيام الأحاد، باطلة في سائر أيام الأسبوع، وأن عقيدة الحوارين تبطل في نظرك متى كنت في حجرة الجلوس، وتصدق إن كنت في قاعة الطعام... ١١٠

واشدد حنق الدومنيكيين على أرسطو المستقل عن المسيحية، وتمكنوا في مدى ست أو سبع سنوات من استصدار أربعين أمراً من البابا يحظر الفلسفة الإسلامية، وحرّم، المشتغلين بها، وقرر بجمع باريس المنعقد في عام ١٢٦٩ تحريم مبادئ كانت معروفة عند ابن رشد، منها وحدة العقل الانساني في الناس جميعاً، وقلم العالم وفناء النفس بفناء الجسم، وإنكار علم الله

(١) انظر في تناقض ابن رشد في رأيه في خلود النفس وتأويله هذا التناقض في كتاب «ابن رشد وفلسفته» للمرحوم فرح أنطون ص ٧، وما بعدها، وخبر ما فيه استناده فيما يقول الى نصوص ابن رشد نفسه.

للجزئيات ، وعدم تأثير العناية الإلهية في أفعال البشر . . الخ . وأدان البابا جون الحادى والعشرون^(١) مذهب ابن رشد في ازدواج الحقيقة ، ونكلت الكنيسة بالمتفلسفة في جامعة باريس حرقاً وإعداماً ، حتى اضطروا إلى الفرار إلى بادوا ، حيث كانت البندقية بمجلس شيوخها كفيلة بتوفير الحرية لأهل الفكر الحر ، وعندئذ انتصر ابن رشد وعاش أتباعه طوال القرنين الخامس عشر والسادس عشر آمين في هذه الجامعة التي لم يكن في أوربا كلها مكان أكثر منها أمناً . وهذا ما نعرفه في الفصل الذى عقدناه على عصر النهضة .

ويسجل تاريخ الاضطهاد أن جامعة باريس التي اضطهد فيها أتباع ابن رشد قد طلبت من خريجيها بعد مضى قرن من الزمان ، أن يقسموا غير حائثين ، ألا يعلموا إلا الأشياء التي تتفق مع تعاليم أرسطو كما فسرها ابن رشد^(٢) . . . ومن وجوه الطرافة أن المسيحيين الذين خصموا الفلسفة إجمالاً ، قد استعانوا بخصوم الفلسفة من المسلمين ، فوقف الغزالي العقلى والدينى قدراق علماء المسيحيين منذ اللحظة التي تيسر لهم فيها الاطلاع على كتبه ، ولا يزالون مهتمين بدراسة أبحاثه والعناية بها ، والمعروف أن الغزالي قد هاجم الفلسفة ، وذهب في هجومها إلى تكفير أهلها من أفلاطون وأرسطو ، إلى الفارابى وابن سينا ، مهد لدراستها بكتابه « مقاصد الفلاسفة » ، ثم حمل عليها في كتابه « تهافت الفلاسفة » ، وسرعان ما راج كتابه الثانى عند خصوم الفلسفة من المسيحيين ، فنلاحظ أن ريموند مارتن R. Martin — الذى يحتمل ألا يكون لعلمه بمؤلفى العرب نظير فى أوربا بأسرها حتى العصور الحديثة — فيما يقول جيوم — قد نهض بعد مئات القديس توما بمقاومة فلاسفة الإسلام وعلمائه ، واستجاب لمطلب ريموند بنافورت Raymund Pinnaforte رئيس هيئة

(١) تولى عرش البابوية من سبتمبر ١٢٧٦ إلى مايو ١٢٧٧ م . .

(٢) Rashdall, universities, 1. 368.

الدومنيكيين ، في وضع كتابه « الدفاع عن الإيمان » Pugio fidei وأدخل فيه الكثير من آراء الغزالي ، ومنذ ذلك الحين أفاد الكثيرون من علماء المسيحية من آراء الغزالي في إثبات الخلق بعد العدم Creatis ex nihilo وبراينته في التدليل على أن علم الله شامل للجزئيات ، وعقيدة البعث بعد المات . وانتفع القديس توما - الذي عاصر مارتن - برسالة الغزالي في « الاقتصاد في علم الاعتقاد » في وضع كتابه المعروف « الخلاصة الفلسفية في الرد على الأمم غير المسيحية » الذي وضعه استجابة لطلب رئيس هيئة الدومنيكيين السالف الذكر ، وأوجه الشبه بين آراء توما والغزالي كثيرة^(١) .

وهكذا نلاحظ أن الغزالي كان ويلا على الفلسفة عند اليهود والمسيحيين على السواء . . . ١ وسنعرف أثره الهدام في فلسفة العالم الإسلامي في الفصل التالي ، وكان أثر كتابه « تهافت الفلاسفة » عند هؤلاء جميعاً ، أعمق - فيما يلوح - من أثر « تهافت التهافت » الذي فند فيه ابن رشد موقف الغزالي من الفلسفة .

وعند ابن رشد كان يلتقي إعجاب أتباعه وسخط خصومه من المسيحيين^(٢) امتد نفوذه وعلا ذكره منذ القرن الرابع عشر ، حتى غلب ابن سينا في أوروبا كلها ، ولبت عاملاً حياً في التفكير الأوربي حتى مطلع العصر الحديث في القرن السابع عشر ، وكان هذا يزيد من حقد خصومه وسورة غضبهم ، على نحو ما أبنا من قبل .

بل لقد سرت عند بعض المسيحيين موجة من السخط الشديد ، أتت على التراث العلمي للمسلمين جميعاً ، وتجلت هذه الظاهرة عند أمثال بترارك وريموند لل R. Lull + ١٣١٥ ، وقد وقف الأخير جهوده على

(١) تراث الاسلام في ترجمتنا لفلسفة والالهيات ص ٣٠١ وما بعدها

(٢) كان بين المعجبين به رجال دين ا يقول كارا دي فو Carra de Vaux في مقاله عن ابن رشد بدائرة المسارف الاسلامية : « كان الاعجاب بشروح ابن رشد عظيماً ، حتى بين رجال الدين الذين كانوا يرون في مذهبه خطراً يهدد العقيدة »

الطواف بالبلاد الأوربية من باريس إلى فينا إلى مونبليه إلى جنوه وناپلى وبيزا ، وإثارة الناس ضد المسلمين وفلسفتهم ، وعندما انعقد مجمع فينا عام ١٣١١ م أرسل عريضة إلى البابا يطلب فيها حرمان ، كل مسيحي ينتصر لابن رشد ، وحظر تدريسه في مدارس أوروبا ، وتضمنت العريضة غير هذا مما يدخل في محاربة الإسلام ، ولكن المجمع لم ياق إليها بالا ، (١) .

هذا هو موقف المسيحيين عامة ، والأكايروس المسيحي بوجه خاص ، من أرسطو وشراحه من فلاسفة الإسلام ، ولعل للكنيسة بعض العذر في موقفها من أحرار الفكر ، ومقاومتها للذاهب التي بدت على خلاف مع تعاليم الدين ، فقد تسكفت حرية التفكير - منذ بدأت يقظة العقل الأوربي - عن موجة من الإلحاد المروّع ، كادت تأتي على الحياة الروحية ، التي تقوم الكنيسة على حراستها بحكم وظيفتها ، وقد ثارت في القرن الثالث عشر شكوى دينية نسب بعضها إلى المفكر الحر ، فردريك الثاني ، + ١٢٥٠ الذي شجع حركة النقل عن فلاسفة الإسلام واعتبره أول رجل حديث ، (٢) ، وامتدت هذه الموجات من الشك حتى شملت الأديان المنزلة جميعها ، وتجاوزتها إلى الرسل عليهم السلام ، وهذا بالإضافة إلى ما حملته فلسفة أرسطو المنقولة عن شراحه من آراء لا تسير أبسط العقائد المسيحية ، ولا تتمشى مع أظهر المبادئ المعروفة في التقاليد الدينية .

كلمة أخيرة :

وعلى هذا انقضت العصور الوسطى ، خلا عصر الآباء وبعض العصر المدرسي من مظاهر النزاع ، الذي يرتفع إلى مرتبة التضيق والاضطهاد ، لخلو هذه المرحلة الطويلة من وجود عقل يقظ جرى ، ولكن بعض آباء

(١) لم يكن هذا غريبا على « ل » الذي جعل مثله الأعلى تقديم العقيدة المسيحية للشرقيين على أسس عقلية ، والذي استشهد فيها يقال أثناء تبشيرة لرب تونس ، وقصد إلى تحويل آسيا إلى المسيحية ، وطالب باستبدال الحملات الصليبية ببعثة تبشيرية . تراث الاسلام (٢) أورد بيورى مثالا لهذا (س ٧٠) آثرنا إغفاله لجرأته على الرسل والأديانات الثلاث المنزلة .

الكنيسة قد اضطلع — منذ العصور الأولى — بوضع السنن والشرائع التي مهدت — فيما بعد — لاضطهاد العقل ، ومكنت من مطاردة أهله ، وهيمنت الكنيسة على عقول الناس وقلوبهم معاً ، واستسلم العالم الأوربي لتعاليمها ، وسارت الفلسفة في ركابها ، وتكفلت بتأييد عقائدها ووجهات نظرها ، فصصفاً الجو بينهما قروناً طويلاً ، حتى إذا دبت اليقظة إلى العقل ، وتكشفت أمامه دائرة المعارف القديمة — ممثلة في التراث الارسطاطاليسي المنقول عن فلاسفة الإسلام — ضاق العقل باستكاته لاستعباد السلطات ، وأعلن في منتصف العصر المدرسي تمرده ، فنهض الأكايروس لمقاومته ، حتى إذا ضاق بأهله ، زج بهم إلى السجون ، اتقاءً لشرهم ، ولكن بعض دعاة العقل قد أسرفوا في الالتجاء إلى منطقهم وتغليبهم على كل شريعة ، فأفضى هذا إلى إنكار العقائد الدينية ، وامتهان التقاليد المقدسة ، فأندر هذا بكفرار الجو واشتداد النزاع ، وعندئذ تاهب الأكايروس لحشد قواته وتعبئة جنوده وتنظيم محاكمه ، والاستعداد للانقضاض على خصومه ، فلم تنقض العصور الوسطى ، حتى أشرف العالم الأوربي على عهد إرهابي ، ملوث بالدم الآثم ، وهذا ما سنعرفه عند الحديث على النزاع بين اللاهوت والفكر الجديد في عصر النهضة :

(مصادر الفصل)

- ما ذكر في هوامش الفصل مع كتب تاريخ الفلسفة التي تناوت العصور الوسطى ثم :
W. E. H. Lecky, Hist of the Rise & Influence of Rationalism in Europe
vol. 2 ch. I.
A. D. White; A Hist. of the Warfare of Science with Theology in
Christendom vol. I.
J. B. Bury, Hist. of Freedom of thought.
J. Robertson, A Short Hist. of Freethought vol. I.
Ch. Watts, Freethought: Its rise, Progress & Triumph.
J. W. Draper, Hist. of the conflict between Religion and Science.
Encyclopaedia Britannica. art, Inquisition, Persecution, Toleration,
St Augustine... etc.
E. Renan, Averroes et l'Averroïsme ed. 1925.
Charles de Rémusat, Abelard 1845.

ففرح انطون : ابن رشد وفلسفته ١٩٠٣

ترات الاسلام ترجمة لجنة الجامعيين لنشر العلم — ولا سيما الجزء الذي ترجمناه عن
١٠١. جيوم في الفلسفة والأهليات .

وفي تصوير التقاليد المهددة للاضطهاد ، يقرأ كتابنا « قصة الاضطهاد الديني » وسيطبع قريباً

الفصل الرابع

موقف الاسلام وفقهائه

من التفكير الفلسفي

موقف فلاسفة الاسلام من الدين — موقف رجال الدين من العلوم القاسية — عدااء
الغزالي للفلسفة وأثره — موقف ابن رشد من الدين والفلسفة — محنة ابن رشد — منشور
الحليفة بتحريم الاشتغال بالفلسفة — فتوى ابن الصلاح بتحريم الاشتغال بالفلسفة والمنطق
— أثر فتوى ابن الصلاح فيمن تلاه — عدااء ابن تيمية وابن قيم الجوزية للفلسفة —
قيام الفلسفة في الاسلام رغم حملات خصومها المتزمتين — موقف القرآن من حرية النظر
العقلي — تفسير الاضطهاد في الاسلام — الاضطهاد في المسيحية والاسلام .

عرف العالم الاسلامي من رجال الدين أحراراً يسايرون التطور
ويسبقون الزمن ، وينتصرون للعقل ويحاربون الجحود والجهل والتعصب ؛
وعرف إلى جانب هؤلاء متزمتين يجمدون والدنيا من حولهم في حركة دائمة
ونشاط متصل ، فيطمعون في أن يوقفوا الركب ويعرقلوا حركته ، لأنهم
لا يطيقون في الرأي جدّة ولا خلافاً ، ولا يهتمون من أحد أن يخرج على
مألوف ، أو يصيب عند الناس شهرة أو عند الحكام عطفاً ورعاية ، فإن
وقع شيء من هذا فهم المناعون للخير المشاؤون بالسوء ! فلنعرض لبيان
موقفهم من العلوم الفلسفية الغربية عنهم ، وبيان رأيهم في أهلها إن بدا في
تفكيرهم جدّة أو خلاف لما عرف ، فإذا فرغنا من عرض المحن التي نزلت
بهؤلاء ، عقبنا ببيان موقف القرآن الكريم من حرية النظر العقلي ، ورأيه
في هؤلاء المتزمتين وخصومهم من المفكرين على السواء .

موقف فلاسفة الاسلام من الدين :

ذهب جمهرة فلاسفة الإسلام إلى القول بأن غاية الدين تتشابه مع غاية
الفلسفة ، من حيث إن كليهما يرمي إلى تحقيق السعادة عن طريق الاعتقاد

الحق وعمل الخير ، ويقولون إن موضوعات الدين والفلسفة واحدة ، لأن كليهما يعطى المبادئ القصوى للموجودات ، ويفيض عن واجب الوجود على عقول البشر بواسطة العقل الفعال ، لأن المعارف كلها — ما كان منها بوحى أو عن غير وحي — تصدر عن واجب الوجود بواسطة العقل الفعال . وقد حاول فلاسفة الإسلام التوفيق بين الدين والفلسفة « في أسلوب ليس فيه — في الغالب — عنف ولا نزوع إلى كبرياء ، وإن كان بعضهم تسمّ أساليبه عن العنف أو مهاجمة الدينين^(١) . وكانت هذه المحاولة مناط الابتكار أو معقد الطرافة في الفلسفة الإسلامية فيما يقول ليون جوتيه ، وإن أفضت في رأى غيره إلى انقلاب هؤلاء الفلاسفة مبشرين بالدين ودعاة له .

موقف رجال الدين من الفلسفة الإسلامية :

هذا موقف الفلاسفة إجمالاً ، أما علماء الدين فقد نزعوا غير ذلك المنزع ، فهم « في أكثر الأمر خصوم للفلسفة في غير هوادة ولا رفق ، وإن لم نجد عند بعضهم من تأثروا بالفلسفة تلك الجفوة التي نجدها في أساليب المتأخرين من أمثال ابن الصلاح — كما سنعرف بعد قليل .

وقد كان مفكرو الإسلام — فيما يقول جولدتسيهر — يطلقون على دائرة معارف اليونان من رياضيات وطبيعات وإلهيات اسم « علوم الأوائل أو علوم القدماء أو العلوم القديمة ، وهي تقابل عندهم علوم العرب والعلوم الشرعية بوجه خاص ، وقد كانت علوم الأوائل مشار الشكوك والريب عند المتطرفين من أهل السنة ، حتى حين كانت موضع عناية في البيئات الدينية الإسلامية . منذ القرن الثاني للهجرة ، ومن هنا كان من السهل اتهام الرجل بالزندقة متى نحا في كتبه نحو أفلسفياً ، كما حدث مع علي بن عبيدة الرباحي وأبي زيد البلخي وغيرهما . وقد بالغ هؤلاء المتطرفون في هذا النزوع ، حتى

(١) انظر تفصيل هذا في الفصل الرابع من كتاب أستاذنا الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق « شيخ الجامع الأزهر » تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية .

كانوا ينفرون من كل علم ينسب إلى الفلسفة أو يتصل بها ، وليس أدل على هذا التطرف من أن يشكو منه الغزالي في منقذه ، وهو أكبر خصوم الفلسفة وأصلبهم قناة ، ويقول أصحاب هذا الاتجاه إن النبي حين سأل ربه أن يعينه « من علم لا ينفع » ، إنما قصد علوم الأوائل . بل يرى ابن تيمية الحنبلي في الجزء الأول من مجموعة رسائله الكبرى أن العلم ما كان موروثاً عن نبي ، وكل ما سواه فهو علم لا ينفع ، أو ليس بعلم وإن سُمِّي به . . . !
ويصف جمهرة المتكلمين من السنيين علوم الأوائل بأنها « حكمة مشوبة بكفر » لأنها تؤدي إلى التعطيل « أي تجريد ذات الله من كل حسنة إيجابية » ، وبدا الاشتغال بها مسيراً للاستخفاف بالدين ، وكل من عُنى بهذه العلوم ، دل بعنايته على أنه مغموز في عقيدته متهم في دينه ، وليس ينجيه من هذا الاتهام أن يكون ثقة في العلوم الشرعية ، مزاولاً للتعاليم الدينية ، بل إن مجرد الاتصال بهذه العلوم ، كقيل بأن يحنح بصاحبه إلى طريق الدين القويم ، وهذا هو السبب الذي جرّ المأمون إلى القول بخلق القرآن — فيما يرى تاج الدين السبكي .
ومن أجل هذا كان أهل السنة ينصحون طلاب العلم بتجنب الاتصال بالمشتغلين بعلوم الأوائل ، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، وكان هؤلاء بدورهم يخفون اشتغالهم بالدراسات الفلسفية متى كانوا حريصين على سمعتهم أن يمسها سوء ، ومن هؤلاء ابن الطيب + ٤٣٦ الذي روى عنه القفطي أنه كان يتقى أهل زمانه في التظاهر بعلم الأوائل ، فيخرج ما عنده في صورة متكلمى الملة الإسلامية . . . فإذا قيل إن أحد الفلاسفة قد ثاب إلى رشده وعدل ساعة موته عن ضلالات الفلسفة وأكاذيبها ، أثار هذا الغبطة والرضا في نفوس الناس ، وقد قيل هذا عن ابن نجاء الأربلي + ٦٦٠ وهو فيلسوف رافضى يختلف الكثيرون إلى داره بدمشق ليأخذوا عنه ، « قيل عنه في لهجة يمازجها سرور المنتصر الظافر ، إن آخر كلمة صدرت عنه وهو على فراش موته : « صدق الله العظيم وكذب ابن سينا . . . »

وكان طبيعياً أن تشبع الدعوة إلى تجنب الاطلاع على الكتب الفلسفية ، وقد سوسى الجاحظ في بخلائه بين الكتاب المتهم والشراب المسكروه - عند حديثه على الأشياء التي تخفى عن عيون الناس بعناية ، . وطولب المحترفون من نساخي الكتب في بغداد (عام ٢٧٧ هـ) بأن يقسموا صادقين بالآي نسخوا كتابا في الفلسفة ! - فيما يروى ابن الأثير .

والمعروف أن الزنادقة قد فثمت في العصر العباسي لأسباب منها أن الزنادقة بمعنى الشك أو الإلحاد ، تقترن عادة بالبحث العلى وهو في العصر العباسي أبين وأظهر ، ، إذ انتشرت فيه ، مذاهب الكلام والجدال الديني حول المسائل الأساسية في الأديان ، والبحث الفلسفي على النحو الذي يبحثه أرسطو وأفلاطون وغيرهما في المادة والصورة والجزء الذي لا يتجزء والجوهر والعرض وما إلى ذلك ، وانساق الخلفاء إلى مطاردة الزنادقة استجابة لنزعاتهم الدينية أو مجارة للرأى العام ، وكان المهدي ، أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب في الرد على الملحدين ، وإقامة البراهين على المعاندين وإزالة شبه الملحدين مع إنشائه إدارة للبحث عن الزنادقة ومحاکمتهم ؛ وقد نصح ابنه الهادي في مطاردة أصحاب ماني واستجاب ابنه لنصح ، وكذلك فعل هارون الرشيد والمأمون والمعتصم ، فقتل الكثيرون أو صلبوا وأحرقوا بالنار ، وكان من هؤلاء الزنادقة من كان يدعو إلى الشعوبية والمذاهب الدينية ويعلن شكه في الأديان ويقول « بسطان العقل إلى أقصى حدوده ، فهم لا يريدون أن يؤمنوا إلا بما يرون بأعينهم ويحكمون العقل حتى فيما ليس للعقل فيه مجال ، فنبذوا الأديان جملة ودعوا إلى الإلحاد ، (١) .

وكان من اليسير أن تحرق كتب الأوائل متى عثر عليها عند المشتغلين

(١) أحمد بك أمين في ضحى الاسلام ج ١ في الفصل السادس من الباب الأول عن حياة الزنادقة وحياة الايمان .

بها ، وقد حدث هذا مع حفيد عبد القادر الجيلاني الصوفي المعروف ، وهو ركن الدين (محمد بن عبد السلام + ٦١١ هـ) ولما وجهوا الاتهام إليه ، زعم اتقاء لشرم أنه نسخ هذه الكتب توطئة لتفنيدها والرد عليها ، ولكن دفاعه لم يُجدِ فتيلًا ، فأوقدوا أمام مسجد مجاور لمسجد الخليفة ناراً عظيمة ، واعتلى السطح العلماء والقضاة وجمهور غفير من الناس ، ثم أُلقيت الكتب من فوق سطح المسجد في النار ، ونهض أحدهم بتعريف الحاضرين بهذه الكتب كتاباً كتاباً ، وهو يقول — وعبد السلام حاضر معهم — : العنوا من كتب هذه الكتب ومن آمن بما فيها ، والعامّة يهتفون باللعة التي تجاوزت عبد السلام إلى الشيخ عبد القادر نفسه ، ونهض الشعراء بهجو الملحد والسخرية من أمثاله . أما عبد السلام فقد أدين بالفسق ، وجرّد من طيلسان العلماء ، وزج به في السجن ، وانتزعت منه مدرسة عبد القادر . . . ومثل هذا كان كثيراً ما يقع ، وسنعرف بعد قليل محنة ابن رشد وإحراق كتبه وصدور منشور بتحريم الاشتغال بالفلسفة .

وقد كانت إلهيات أرسطو — أولاً وبالذات — محط السخط عند أهل السنة ، إذ اعتبروا مقدماتها ونتائجها متعارضة كل التعارض مع مقدمات عقائد الإسلام ، وتجاوز سخطهم ذلك إلى العلوم الرياضية لأنها تمهد للدراسات الفلسفية ؛ لانت نظرهم إلى الحساب ، لأن الاشتغال به من مستلزمات علم الفرائض ، فوق أنه يعين الخبراء في أحوال التورث . أما الهندسة فقد كانت مثالا للشك عند أهل السنة ، وكانت الأشكال الهندسية تثير قلقهم ، وتدين صاحبها بالزندقة ، وقد وقع هذا زمن أبي نواس وتجاوزه إلى العصور المتأخرة ، وقد تحدث أبو الحسين بن فارس في كتابه ، الصاحب في فقه اللغة وسند العرب في كلامها ، عن خطر الهندسة على الدين مع قلة نفعها . وانتهى إلى أن الخوض في الرياضيات يؤدي إلى الانخلاع عن الدين . ولما كان الاشتغال بعلوم الأوائل قد ارتبط بالتقاليد الأفلاطونية

المحدثة ، فقد دخل في جملة هذه العلوم مزاولة السحر والطلسمات والنازنجيات إلى جانب علم التنجيم ، ومن هنا كان محط السخط عند أهل السنة ، فاتفق المعتزلة والأشاعرة على إنكار علم النجوم ، بل تجاوز الإنكار ذلك إلى علم الهيئة (الفلك) رغم منفعته في تحديد مواعيد الصلاة والقبلة وسمتها ، وحسبنا في الدلالة على هذا الاتجاه أن يكون مفسر متكلم معروف كالفخر الرازي ، ضعيف الثقة في هذا العلم — رغم اعترافه بعلم النجامة ، فيصرح في الجزء السادس من مفاتيح غيبه بأنه « لا سبيل إلى معرفة السموات إلا بالخبر » . وكان يرر شك السنين في هذا العلم تأييده للقول بأن الشمس تطلع في بعض البلاد في منتصف الليل ، وأنها تشرق من المغرب ، مع أن الحديث يقول إن هذا من علامات الساعة . . الخ .

وإذا كان أهل السنة قد حذروا من خطر العلوم اليونانية على الدين ، فقد حاربوا المنطق اليوناني في غير رفق ولا هوادة ، لأن طرق البرهان الارسطاطاليسية كانت خطراً على صحة العقائد الإيمانية ، ومن هنا ذهب غير المثقفين إلى القول بأن « من تمنطق تزندق » .

ومن معسكرات المتكلمين — معتزلة كانوا أو أشاعرة — صدرت كتب كثيرة تهاجم الفلسفة والمنطق بوجه خاص — منها كتاب « الرد على أهل المنطق للنووي وغيره ، وقد اتهم إخوان الصفا — في الجزء الرابع من رسائلهم — المعتزلة — وفي اتهامهم بعض الغلو — بأنهم يعتبرون المنطق والطبيعات كفراً وزندقة . وإن كان هذا كله لا ينفي القول بأن بعض أئمة رجال الدين قد حسن ظنهم بالاشتغال بالمنطق ، وأنهم قد انتفعوا به في خدمة الكلام والدراسات الدينية .

فاذا نزلنا بالغرب الإسلامي ، لاحظنا أثر هذا التعصب بعد موت الخليفة الحكم عام ٣٦٦ هـ فالمنصور بن أبي عامر يأمر باحراق الكتب المؤلفة في العلوم القديمة ولاسيما ما كان منها في المنطق والنجوم ، وقد أيد حكمه

في هذا الصدد رجال الدين ، وقد فصل صاعد في « طبقات الأمم ، في وصف إحراق هذه الكتب . وليس ينبغي هذا أن يؤيد المنطق — بعد هذا التعصب — ابن حزم ، وهو من أشد المتحمسين لنصرة السنة بمعناها الضيق ، ويدود عن رأيه في مله ونحله ، وفي غيره من كتب . وقد كان المنطق مثار الضيق عند بعض رجال الدين في عصر الازدهار الذي كان أيام دولة الموحدين ، فالمتزمتون من فقهاء المالكية يهاجمون الفلسفة في عنف وغضب ملحوظ ، وفي القرن الثاني عشر يهجو ابن جبير الفلسفة بقوله :

قد ظهرت في عصرنا فرقة ظهورها شؤم على العصر
لا تقتدى في الدين إلا بما سن ابن سينا وأبو نصر

ولعل الغزالي قد قصد إلى إخفاء اسم المنطق من عناوين كتبه اتقاء لضيق أهل السنة والجماعة ، ومن هنا جعل كتبه « معيار العلم ، و « محك النظر ، و « القسطاس ، وقد عرض له في مقدمة « المستصفي ، و مقدمة « المناصد ، . . وقد أبان — كما فعل ابن حزم — عن منفعة هذا العلم للباحث الدينية ، وإن لم يمنع هذا من إبداء سأمته وضجره من هذا العلم في « محك النظر ، ، وتحذيره في « المنقذ ، من التسرع في الوقوع في الكفر استناداً إلى زندقة أهل المنطق (١) .

وفي العصر الذي تلا الغزالي وصلت معارضة المنطق أوج شدتها ، فلنقف هنا وقفة قصيرة ، نكشف خلالها عن موقف الغزالي من الفلسفة إجمالاً ، عسى أن يلقى هذا ضوءاً على ترمت العصور التي تلته .

عماء الغزالي للفلسفة وأثره :

يعرض الغزالي « في المنقذ من الضلال ، إلى بيان موقفه من الفلسفة ، ويقول إن من لا يقف على منتهى علم لا يقف على فساد ، وأنه لم ير « أحداً

(١) اقرأ تفصيل ما سبقت في الفصل الذي عقده جولدتسيهر من « موقف أهل السنة

القدماء ، بازا ، علوم الأوائل ، في كتاب « التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية »

من علماء الإسلام صرف همته وعنايته إلى ذلك (الرد على الفلاسفة)
وليس في كتب المتكلمين الذين اشتغلوا بالرد عليهم إلا كلمات معقدة
ظاهرة التناقض والفساد ، وعلم الغزالي أن رد المذهب قبل فهمه
والاطلاع على كنهه ، رمى في عمائة ، ومن أجل هذا جدد في تحصيل الفلسفة
من كتبها دون استعانة بمعلم ، حتى انتهى بعد ثلاث سنوات إلى الكشف
عما فيها من خداع وتليس وتحقيق وتخيل ، ورأى أن الفلاسفة « على كثرة
أصنافهم تلزمهم سمة الكفر والإلحاد ، وإن كان بين القدماء منهم
والأقدمين ، وبين الأواخر منهم والأوائل ، تفاوت عظيم في البعد عن الحق
والقرب منه .

وتمشياً مع منهجه السالف في دحض ما يبدو في الفلسفة منافياً للدين ،
وضع كتابه « مقاصد الفلاسفة » للإبانة عن مذاهبهم وكأنه واحد منهم ،
ثم اضطلع في « تهافت الفلاسفة » بتفنيد مزاعمهم وإبطال دعاويهم وإثبات
ضعف عقيدتهم في مذاهبهم التي قرروها متأثرين بفلاسفة اليونان ، وقد قصد
من وراء هذا كله أن يبين عن عدم وفاق الفلسفة للدين ، وأن يصرف الناس
عن أهلها ويزجر من يخوض في علومها ، إذ قلَّ « من يخوض فيها إلا وينخلع
من الدين » ، فإذا انتهى من هذا ، قرر أن التصوف يلي الوحي طريقاً إلى
اكتشاف الحقيقة ، وأنه يفوق العقل الذي يتشبث به الفلاسفة مع قصوره
عن إدراكها .

وقد قسم الفلاسفة في المنقذ إلى ثلاثة أصناف : دُهريون وهم الزنادقة
لأنهم جحدوا الصانع المدبر العالم القادر وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً
بنفسه ولم يزل الحيوان من نطفة ، والنطفة من حيوان كذلك . . . ثم
طبيعيون وهم الذين سلبوا بوجود قادر حكيم مطلع على غايات الأمور
ومقاصدها ولكنهم أنكروا معاد النفس وجحدوا الآخرة والحساب فلم يبق
عندهم للطاعة ثواب ولا للبعصية عقاب ، وهؤلاء أيضاً زنادقة . ثم إلهيون :

وهم المتأخرون منهم كسقراط وأفلاطون وأرسطو ، وقد هاجموا الدهرية والطبيعيين ولكنهم استبقوا من ردائل كفرهم بقايا فوجب تكفيرهم وتكفير متبعيهم من متفلسفة الإسلاميين كابن سينا والفارابي وأمثالهم . ويرى أن مجموع ما صح من فلسفة أرسطو بحسب ما نقله هذان الفيلسوفان ينحصر في ثلاثة أقسام : قسم يجب التكفير به ، وقسم يجب التبديع به ، وقسم لا يجب إنكاره أصلاً .

وقد قسم الغزالي علومهم إلى رياضية ومنطقية وطبيعية وإلهية وسياسية وخلقية ، وبجمل رأيه في الأولى والثانية أنها لا تتعلق بالدين نفيًا أو اثباتًا ، ، ، ويمضى في حديثه حتى يصل إلى الإلهيات ، وهي بيت القصيد ، لأن فيها ، أكثر أغاليطهم ، ، ، و « مجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلًا يجب تكفيرهم في ثلاثة منها ، وتبديعهم في سبعة عشر ، وقد صنف تهافته لإبطال هذه المسائل العشرين . فأما المسائل الثلاث التي خالف فيها الفلاسفة كافة الإسلاميين فكروا من أجلها فهي :

(١) إنكار بعث الأجساد فهي في رأيهم لا تحشر ، والمثاب والمعاقب هي الأرواح المجردة ، والعقوبات روحانية لا جسمانية .

(٢) قصر علم الله على الكليات دون الجزئيات ، وهو كفر صريح ، إذ لا يغرب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، .

(٣) قولهم بقدم العالم وأزليته .

وليس بين المسلمين من ذهب إلى شيء من هذه المسائل - وأما ما وراء ذلك من نبي الصفات وقولهم أنه عالم بالذات - وما يجري مجراه ، فذهبهم فيه قريب من مذهب المعتزلة ، ولا يجب تكفير المعتزلة بمثل ذلك . ومن رأى تكفير أهل البدع من فرق الإسلام ، كفرهم من أجل هذه المسائل السبع عشرة .

وقد ندد الغزالي في تهافته بالفلاسفة ، ورماهم بالغباوة والحق والزيف وسوء الظن بالله ، والغرور والادعاء والاعتداد بالعقل ونحوه ، ولكن

تكفيرهم كان أقسى ما في حملته التي أماتت الفلسفة في الشرق الاسلامي - فيما لاحظ المستشرق مونك - ووضعت التفكير الفلسفي في العالم الاسلامي وسخرت الدراسات الفلسفية لخدمة الدين باقتباسات من أرسطو أو ابن سينا أو غيرهما ، وانصرف المفكرون في المغرب الاسلامي عن الطبيعة وما بعد الطبيعة ، واتجهوا إلى العلوم العملية من أخلاق وسياسة - فيما لاحظ المستشرق دي بوير .

وليس بدعاً منه هذا الهجوم ، فان علماء الكلام - فيما يقول البارون كارادى فو في كتابه عن الغزالي ، قد زاولوا محاربة الفلاسفة منذ ظهرت مدارس الفلسفة ، لأن مذاهبهم - بالغاً ما بلغ إخلاصهم في إيمانهم - خطر يهدد الدين في رأى حماه ، لأنهم يعتزون بالعقل أكثر مما ينبغى .

ولكن من الإنصاف لهذا الرجل أن تقول إنه مع عدائه للعقل ومحاولته دحض الفلسفة ، لم يحرّم الفلسفة جملة من غير تفصيل ، لأن الخلاف بينهم وبين غيرهم من الفرق ثلاثة أقسام : قسم يرجع النزاع فيه إلى اللفظ ، وقسم لا يصدم مذهبهم فيه أصلاً من أصول الدين ، والقسم الثالث ما يتعلق النزاع فيه بأصل من أصول الدين ، كالقول في حدوث العالم وصفات الصانع وبيان حشر الأجساد والأبدان ، ثم يعقب قائلاً في تهافته « فهذا الغش ونظائره هو الذى ينبغى أن يظهر فساد مذهبهم فيه دون ما عداه » . ثم هو - على ما أشرنا من قبل - يشكو في « معيار العلم » وفي « المنقذ » من نفرة رجال الدين من الحساب والمنطق لمجرد أنهما من علوم الفلاسفة الملحدتين ، وهو يقرر أن الرياضيات مفيدة في ذاتها ، وأنها في أصلها لا تتعلق بالدين نفيّاً أو إثباتاً ، وإن عاد فحذر مما ينجم عنها من آفات ، ينص عليها في المنقذ وفتاحة العلوم معا .

ولم يكن الغزالي أول من اضطلع بالتصدي لمهاجمة الفلاسفة وتبيان باطلهم ، فقد سبقه الى ذلك ابن حزم في فصله ، والجويني في برهانه في

أصول الدين وإرشاده في قواعد الاعتقاد، وغير هذين من أسلافه،
ولكن الغزالي كان في مجال الهجوم على الفلاسفة وتفنيدهم مراعياً، أقوامهم حملة
وأغزروهم مادة وأصلبهم قناة وأطولهم باعاً، فطبع هذه الحملة بطابعه القوي
الغلاب، وبهذا مكّن لها وهياً أذهان الناس لقبولها، ومهد الطريق للتكبير
بالفلسفة على يد ابن الصلاح وأمثاله. وإذا كان بين من تقدموا الغزالي من حارب
الفلسفة في غير رفق ولا هوادة، فقد كان هذا الصنف ممن لم يتذوقوا طعم
الفلسفة، ومن هنا بدا الخلط في كلامهم، ومن أمثلة هذا قول الخوارزمي + ٣٨٣هـ
(٩٩٣ م) في «الباب الثالث في الرد على الفلاسفة»، من كتابه «مفيد العلوم
ومبيد الهموم»: «وهم قوم من اليونانيين تحذلقوا في المقالات حتى وقعوا
في وادى الحيرة والخُباط— وهو كالجنون وليس به— وتخيروا في الإلهيات،
وبنوا مقالاتهم على التشبهى المحض والدعاوى الصرف ويزعمون أنهم أكيس
خلق الله، وسياق مذهبهم يدل على أنهم أجهل خلق الله وأحمق الناس،
وأساس الإلحاد والزندقة مبني على مذهبهم، والكفر كاه شعبة من شعبهم...»
وعمضى بعد هذا إلى ذكر شيء من مذاهب سقراط وأفلاطون وأرسطو عن
جهل بهذه المذاهب.

موقف ابنه رستم البربر والفلاسفة:

قضت حملة الغزالي على الفلاسفة في الشرق الإسلامي بل امتد لطيها إلى
الغرب الإسلامي وأتى على التفكير الفلسفي عند أهله؛ ولما مات الحكم الذي
بعث الحركة العلمية وأجزل لأهلها العطاء، خلفه ابنه هشام الذي اغتصب
ملكه الحاجب المنصور، وناهض العلم واضطهد العلماء والفلاسفة، وحاصر
قرطبة وأسقط قصر الخلفاء، وأمر بإحراق ما فيه من كتب الفلسفة والمنطق
والفلك، فأحرقت في ساحات قرطبة أو طرحت في آبارها، وبيع سائر
الكتب في الأسواق بأبخس الأثمان؛ وقد فعل هذا كله رغبة منه في استئالة

رجال الدين ويُرضى الشعب بعد اغتصابه الملك من هشام ، وليكون بهذا بطل الدفاع عن شريعة الناس ودينهم . ثم خلفه الخليفة عبد المؤمن الذي اجتمع في بلاطه أعظم فلاسفة العصر ، وفي طليعتهم ابن رشد ، فشجعه الخليفة على شرح كتب أرسطو ، فاستجاب له وكان الشارح الأعظم . . .

وكان علي ابن رشد أن ينتصف للفلسفة من هجمات الغزالي ، فوضع كتابه « تهافت التهافت » ليدحض به حملة الغزالي ، وليثبت إمكان التوفيق بين الدين والفلسفة ، فهدى إلى هذا « بالاستدلال بالقرآن على وجوب النظر العقلي » ومتى صح هذا وجب الانتفاع بتراث اليونان ، ومحاولة التوفيق بين حرفية النص وتراث العقل القديم ، بتأويل ظاهر النصوص وجعلها متمشية مع منطوق العقل السليم ، وقد وقف على هذه الغاية كتابه : « فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال » و« الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الأمة » ومردّ الأمر في هذا إلى أن للآيات ظاهراً وباطناً ، ولا ينبغي أن نقف عند الظاهر حتى لا تتكشف العلاقة بين الدين والعقل عن تناقض وتنافر ، وإن كان من الخير للعامة أن يقفوا عند ظاهر النص ، لأن التأويل يضرهم ولا يجدى معهم قليلاً .

وقد حاول ابن رشد أن يوفق بين الوحي والعقل ، فصرح بأن للعقل ميداناً يحسن التفكير فيه ، فإن تجاوزه ضل سبيلاً ، ومن هنا مست الحاجة إلى الوحي الذي جاء متمماً للعقل ، فمن ذلك معرفة الله تعالى ، والسعادة والشقاء في الدنيا والآخرة ، وأسبابها ووسائلها . . . واتصال الإنسان بالعقل الفعال يسلم إلى هذه السعادة ، ويلهم العقل الحقائق ، وقد فصل ابن رشد في بيان طرق الاتصال وكيفيته ، فليرجع إلى كتاباته من شاء مزيداً .

وحاول ابن رشد أن يرد على الغزالي ، معنياً بالمسائل الثلاث التي كفى الفلاسفة من أجلها ، وهي إنكار بعث الأجساد ، وقدم العالم ، وقصر علم الله

على الكليات ، ولكن التوفيق قد أخطأه في ذلك ، وإن كانت المحاولة ذاتها كفيلة بتقدير صاحبها ، وإثابته على ما قدم من جهود طيبة^(١) .

محنة ابيه رشد :

وقد خلف يعقوب الملقب بالمنصور أباه يوسف أبا يعقوب + ٥٨٠ هـ ، ورغم ما صادفه ابن رشد في رحاب هذا الخليفة من عطف وتقدير ، فقد ثارت الرّيب والظنون بعقيدته ، ومهد هذا لمحتته بعد ، وذلك أن المنصور قد أضمر له الشر ، فجمع كبار الفقهاء في قرطبة ، وعرض عليهم كتب ابن رشد ، توطئة لتعليقها أو تحريمها ، ويقول الأنصارى في وصف هذا المجلس :

« لما قرئت (فلسفة ابن رشد) بالمجلس ، وتداولت أغراضها ومعانيها ، وقواعدها ومبانيها ، خرجت بما دلت عليه أسوأ مخرج ، وربما ذيلها مكر الطالبين ، فلم يمكن عند اجتماع الملاء ، إلا المدافعة عن شريعة الإسلام ، ثم أثر الخليفة فضيلة الإبقاء ، وأحمد السيف التماس جميل العزاء ، وأمر طلبة مجلسه وفقهاء دولته بالحضور بجامع المسلمين ، وتعريف الملاء بأنه (ابن رشد) مرق من الدين ، وأنه استوجب لعنة الضالين . وأضيف إليه القاضي أبو عبد الله ابن ابراهيم الأصولي في هذا الازدحام ، ولُفّ معه في فريق هذا الملام . . . ثم أمر أبو الوليد (ابن رشد) بسكنى اليسانة (بقرب قرطبة وسكانها من اليهود) لقول من قال إنه ينسب في بني اسرائيل وأنه لا يعرف له نسبة في قبائل الأندلس ، وتفرق تلاميذه أيدي سباً . »

وفي المجلس السالف الذكر ، مثل القاضي أبو عبد الله ابن مروان المدعى العام ، إذ نهض برفع الدعوى على ابن رشد ، ثم نهض بتعريف الناس بالاتهام الخطيب أبو علي بن حجاج ، ولم يدافع ابن رشد عن نفسه ، ولم ينهض لهذا الدفاع أحد من أصدقائه ؛ وبعد هذا صدر الحكم بنفيه على

(١) انظر تعليقتنا المنصور في هامش ص ٣١٠ و ٣١٣ في ترجمتنا للفلسفة والاهليات في كتاب تراث الاسلام .

مأعرفنا ، ثم نشر الخليفة في الأندلس والمغرب منشوراً كتبه كاتبه أبو عبد الله ابن عياش لتحريم الفلسفة وإعدام كتبها واضطهاد رجالها ، وتحذير الناس من شرها كأنما كان قيام الفلسفة واشتغال المفكرين بها ، ونهوض العقل بأداء وظيفته الطبيعية في النظر العقلي ، مرهوناً بقرار يدعو إليه خصومها ، ويصدره من يستجيب إليهم من الحكام وهذا هو نص المنشور :

مفسور بتحريم الفلسفة :

« قد كان في سالف الدهر قوم خاضوا في بحور الأوهام ، وأقر لهم عوامهم بتفوق عليهم في الأفهام ، حيث لا داعي يدعو إلى الحى القيوم ، ولا حاكم يفصل بين المشكوك فيه والمعلوم ، فخلدوا في العالم صحفا مالها من خلاق ، مسودة المعاني والأوراق ، بُعدها من الشريعة بُعد المشرقين ، وتباينها تباين الثقلين ، يوهمون أن العقل ميزانها ، والحق برهانها ، وهم يتشعبون في القضية الواحدة فرقا ، ويسيرونها فيها شواكل وطرقا ، ذلك بأن الله خلقهم للنار ، وبعمل أهل النار يعملون ، ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ، ألا ساء ما يزرون ! .
« ونشأ منهم في هذه السمحة البيضاء شياطين أنس يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ، يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ، ولو شاء ربك ما فعلوه فتذرهم وما يفترون ، فكانوا عليها أضر من أهل الكتاب ، وأبعد عن الرجعة إلى الله والمآب ، لأن السكتاني يجتهد في ضلال ، ويجد في كلال ، وهؤلاء جهدهم التعطيل ، وقصاراهم التمويه والتخييل ، دبت عقاربهم في الآفاق برهة من الزمان ، إلى أن أطلعنا الله سبحانه منهم على رجال ، كان الدهر قد أملى لهم على شدة حروبهم ، وأعنى عنهم سنين على كثرة ذنوبهم ، وما أملى لهم إلا ليزدادوا إيما ، وما أهلوا إلا لياخذهم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علما .
« وما زلنا - وصل الله كرامتكم - نذكركم على مقدار ظننا فيهم ،

و ندعوهم على بصيرة إلى ما يقربهم إلى الله سبحانه وتعالى ويدنيهم ، فلما أراد الله فضيحة عمايتهم ، وكشف غوايتهم ، وقف بعضهم على كتب مسطورة في الضلال ، موجبة أخذ صاحبها بالشمال ، ظاهرها موشح بكتاب الله ، وباطنها مصرح بالإعراض عن الله ، ليس منها الإيمان بالظلم ، و جىء منها بالحرب الزبون في صورة السلم ، مزلة الأقدام ، وهشم يديب في باطن الإسلام ، أسياف أهل الصليب دونها مقلولة ، وأيديهم عما يناله هؤلاء مغلولة ، فانهم يوافقون الأمة في ظاهرهم وزيهم ولسانهم ، ويخالفونهم بباطنهم وغيرهم وبهتانهم .

« فلما وقفنا منهم على ما هو قدى في جفن الدين ، ونكثه سوداء في صفحة النور المبين ، نبذناهم في الله نبذ النواة ، وأبغضناهم في الله كما أتانا نجب المؤمنين في الله ، وقلنا اللهم إن دينك هو الحق اليقين ، وعبادك هم الموصوفون بالمتقين ، وهؤلاء قد صدفوا عن آياتك ، وعمت أبصارهم وبصائرهم عن بيناتك ، فباعد أسفارهم ، وألحق بهم أشياعهم حيث كانوا وأنصارهم ، ولم يكن بينهم إلا قليل وبين الاجام بالسيف في مجال السننهم ، والإيقاظ بحدة من غفلتهم وستهم ، ولكنهم وقفوا موقف الخزي والهون ، ثم طردوا من رحمة الله ، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون .

« فاحذروا - وفقكم الله - هذه الشرذمة على الإيمان ، حذركم من السموم السارية في الأبدان ، ومن عثر له على كتاب من كتبهم ، فجزاؤه النار التي بها يعذب أربابه ، وإليها يكون مآل مؤلفه وقارئه ومآبه ، ومتى عثر منهم على مجيد في غلوائه ، سمع عن سبيل استقامته واهتدائه ، فليعاجل بالتثقيف والتعريف .

« ولا تركنوا إلى الذين ظلّموا فتمسكتم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون - أولئك الذين حبّطت أعمالهم - أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون .

« والله تعالى يظهر من دنس الملحدين أصقاعكم ، ويكتب في صحائف الأبرار تضافركم على الحق واجتماعكم ، إنه منعم كريم ، .

هذا هو المنشور الذي ظن مصدره والمرجوه له أنهم بهذا قد قضوا على الفلسفة وأعدموها كتبها وأزالوا من الوجود المشتغلين بها ، فكتب للفلسفة الخلود ولخصومها الفناء . وقد نكب مع ابن مرشد أبو جعفر الذهبي والقاضي عبد الله بن ابراهيم الأصولي ، وأبو الربيع الكفيف وأبو العباس الشاعر . . . وقد نفاهم المنصور إلى غير المنفى الذي استقر فيه ابن رشد .

يقول الذهبي إن المنصور قد كتب إلى البلاد يأمر بحراق الكتب ، إلا ما كان منها في الطب والحساب والمواقيت ، وقد استيقظ الشعروأيّد نار الفتنة ، فسار أهله في ركاب هذه الحملات ، ومن ذلك قول ابن جبير :

لم تلزم الرشد يا ابن رشد لما علا في الزمان جدك
وكنت في الدين ذا رياء ما هكذا كان فيه جدك

ويقول :

نفذ القضاء بأخذ كل مؤوه متفلسف في دينه متزندق
بالمنطق اشتغلوا فقبل حقيقة إن البلاء موكل بالمنطق

ويقول :

خليفة الله أنت حقا فارق من السعد خير مرقى
حيمت الدين من عداه وكل من رام فينا فتقا
أطلعك الله سر قوم شقوا العما بالنفاق شقا
تفلسفوا وادعوا علوما صاحبها في المعاد يشقى
واحتقروا الشرع وازدروه سفاهة منهم وحمقا
أوسعتهم لنا وخزيا وقلت بُعداً لهم وسحقا
فابق لدين الإله كهفا فإنه ما بقيت يسقى

ويقول :

بلغت أمير المؤمنين مدى المتى لأنك قد بلغتنا ما نؤملُ
قصدت إلى الإسلام تعلى مناره ومقصداك الأسنى لدى الله يقبلُ
إلى أن يقول :

وأوعزت في الأقطار بالبحث عنهم وعن كتبهم والسعى في ذلك أجل
وقد كان للسيف اشتياق إليهم ولكن مقام الخزي للنفس أقتلُ
كانت هذه المحنة انتصاراً لرجال الدين على أهل الفلسفة في هذه الفترة
من الزمن كما لاحظ رينان من قبل ، وإن كان انتصاراً لم يكن في حكم العقل
أن يكتب له الدوام ! وقد طال الأمد الذي ركبت فيه ربح الفلسفة في العالم
الإسلامي ، ولكن قد آن لها أن تبعث من جديد .

ويقول ابن رشد إن أعظم ما آلمه في محتته أنه دخل مع ابنه مسجداً
في قرطبة وقد حانت صلاة العصر ، فثار بعض سفلة العامة وأخرجوهما من
المسجد . . ! فإن صح هذا استبعد ما قيل من أنه فر من منفاه إلى فاس ،
وأن أهلها أمسكوه ونصبوه أمام باب المسجد ، للبق عليه عند الدخول
والخروج .

على أن محتته لم يطل أمرها ، فقد استجاب الخليفة لمسعى الوسطاء ، فعفى
عنه وعن أصحابه ورضى عن الفلسفة وألغى منشور تحريمها والتكليف برجالها .
وقد رد رينان Renan هذه المحنة وأمثالها من وجوه الاضطهاد الذي
عاناه أحرار الفكر ، إلى تعصب الموحدين ، وصرح بأنهم يتصلون بمدرسة
الغزالي اتصالاً مباشراً ، وأن المهدي مؤسس دولتهم في أفريقية كان يتلبذ على
حجة الإسلام .

وقد لاحظ المستشرقون من قبل أن الفلسفة قد تلاشت في العالم الإسلامي
بعد مئات ابن رشد (٧٩٥ هـ - ١١٩٨ م) فلم يعرف تاريخ الفلسفة واحداً
من تلامذته ، قد واصل فلسفته فيما يقول « دي بوير » ، ولم يعرف العالم
الإسلامي منذ مطلع القرن الثالث عشر فيلسوفاً مشائياً خالصاً ، بل عرف

مفكرين دينيين كالإيجي صاحب المواقف فيما يقول « مونك » . وفقدت
الفلسفة الإسلامية بموت ابن رشد آخر ممثليها في الإسلام كما يقول « رينان »
وقد مكنت مكانة الغزالي لمحلته على الفلاسفة ، وكان لها خطرهما المروسع
على العقل في نفوس الناس ، وكان العالم الإسلامي مهتماً لقبولها ، فأسلس لها
قيادته زمناً طويلاً ، حتى أفاق وزايله النعاس .

فتوى ابنه الصريح بحرميم الفلسفة والمنطق :

وقد ظهرت مبالغة المتأخرين من رجال الدين في النفور من الفلسفة ،
وكرهية الاشتغال بعلومها ، والتبرم برجالها من القرن السابع للهجرة ، واتصل
العنف في معارضة المنطق باسم محدث معروف منذ بدء الانحلال ، هو
كمال الدين بن يونس الموصلى الذى عاصر ابن خلكان وكان واسع العلم
بالأديان والرياضيات والطبيعات والعلوم الفلسفية والأدييات ونحوها ،
وكان ممن يختلفون اليه ويتلقون عنه : ابن الصلاح الشهرزورى + ٦٤٣ هـ
الذى أصبح من أكبر أئمة الحديث بعد ذلك ، فقد رحل إلى الموصل ليتعلم
عليه المنطق سراً ، وعلى غير جدوى كان تحصيله ، فقال الشيخ لتلميذه :
« يا فقيه ، المصلحة عندى أن تترك الاشتغال بهذا الفن ، فقال له « ولم ذلك
يا مولانا ؟ قال « لأن الناس يعتقدون فيك الخير وهم ينسبون كل من اشتغل
بهذا الفن إلى فساد الاعتقاد ، فكأنك تفسد عقائدكم فيك ، ولا يُحَصِّل
لك من هذا الفن ، واستجاب ابن الصلاح لرأيه ، فترك الاشتغال بالمنطق
وخاصمه باسم الدين خصاماً عنيفاً ، وبدا هذا في فتواه المعروفة التى أجاب بها
عن سؤال هذا ملخصه : هل الشارع قد أباح الاشتغال بالمنطق تعليماً أو تعليماً ،
وهل يجوز أن تستعمل الاصطلاحات المنطقية فى إثبات الأحكام الشرعية ؟
وماذا يجب على ولى الأمر فعله بإزاء شخص من أهل الفلسفة معروف
بتعليمها والتصنيف فيها وهو مدرس فى مدرسة من المدارس العامة . . ؟
فأجاب ابن الصلاح قائلاً : الفلسفة أس السّفه والانحلال ، ومادة الحيرة

والضلال ، ومثار الزيغ والزندقة ، ومن تفلسف عميت بصيرته عن محاسن
الشرعية المطهرة ، المؤيدة بالحجج الظاهرة والبراهين الباهرة ، ومن تلبس بها
تعلماً قارنه الخذلان والحرام ، واستحوذ عليه الشيطان ، وأى فن أخزى
من فن يعمى صاحبه ويظلم قلبه عن نبوة نبينا

وأما المنطق فهو مدخل الفلسفة ، ومدخل الشر شر ، وليس الاشتغال
بتعليمه وتعلبه مما أباحه الشرع ، ولا استباحه أحد من الصحابة والتابعين
والأئمة المجتهدين والسلف الصالحين ، وسائر من يُقتدى بهم من أعلام
الامة وساداتها ، وأركان الامة وقادتها ، قد برأ الله الجميع من ذلك وأدانسه
فطهرهم من أوصابه . وأما استعمال الاصطلاحات المنطقية في الأحكام
الشرعية فمن المنكرات المستبشعة والرقاعات المستحدثة ، وليس بالأحكام
الشرعية - والحمد لله - افتقار إلى المنطق أصلاً . وما يزعمه المنطقي للمنطق
من أمر الحد والبرهان فقعا ، قد أغنى الله عنها كل صحيح الذهن لاسيما من خدم
نظريات العلوم الشرعية . ولقد تمت الشريعة وعلومها ، وخاض في بحر الحقائق
والدقائق علماًؤها ، حيث لا منطق ولا فلسفة ولا فلاسفة . ومن زعم أنه
يشتغل مع نفسه بالمنطق والفلسفة لفائدة يزعمها ، فقد خدعه الشيطان ومكر
به ، فالواجب على السلطان أن يدفع عن المسلمين شر هؤلاء المياشيم (لعلها
المشائم) ويخرجهم عن المدارس ويبعدهم ، ويعاقب على الاشتغال بفهم ،
ويعرض من ظهر منه اعتقاد عقائد الفلاسفة على السيف أو الإسلام ، لتخدم
نارهم وتمتحي آثارها وآثارهم ، يسر الله ذلك وعجله . . ! ومن أوجب هذا
الواجب ، عزل من كان مدرس مدرسة من أهل الفلسفة والتصنيف فيها
والإقراء لها ، ثم سجنه وإلزامه منزله ، وإن زعم أنه غير معتقد لعقائدهم ، فإن
حاله يكذبه ، والطريق في قلع الشر قلع أصوله ، وانتصاب مثله مدرساً من
الغضائهم جملة ، والله تعالى ولي التوفيق والعصمة وهو أعلم .

وقد سئل ابن الصلاح يوماً عن حكم الشرع فيمن يدرس ابن سينا
ومصنفاته ، فقال : « إن من فعل ذلك فقد غدر دينه وتعرض للفتنة العظمى . .

لأن ابن سينا لم يكن من العلماء ، بل كان من شياطين الإنس ا .

أثر فتوى ابن الصلاح فيهم نراه :

هذه هي الفتوى التي وضعها صاحبها ليُسَهِّلَ من جموح الفلسفة ويظامن من شرها ، فأضحت وثيقة عند أهل السنة ، يستندون إليها كلها هموا بمهاجمة الفلسفة والمنطق ، ومالوا إلى اضطهاد المشتغلين بهما ، وفي الحق لقد ناءت الفلسفة بعبء هذه الحملات ، التي أنقضت ظهرها ، وأخرجت صدرها ، وشتتت أتباعها ، وملاّت قلوب الناس ضيقاً بها وسخطاً على أهلها . ولعلنا لاحظنا من خلال هذه الفتوى ، عند الحديث عن استخدام المنطق في الأحكام الشرعية ، أن ابن الصلاح يعرض بالغزالي الذي أدخل في هذه الأحكام مناهج المنطق .

والنخمة التي فلاحظها في هذه الفتوى قد ترددت في أقوال من خاصموا الفلسفة بعد ذلك ، ومن هؤلاء طاش كبرى زاده + ٩٦٢ هـ (١٥٥٤-٥٥) الذي يقول في «مفتاح السعادة ومصباح السيادة» : « وإياك أن تظن من كلامنا هذا أو تعتقد أن كل ما أطلق عليه اسم العلم ، حتى الحكمة الموهوبة التي اخترعها الفارابي وابن سينا ، ونفحه نصير الدين الطوسي ، بمدوحا ، هيئات هيئات ، إن ما خالف الشرع فهو مذموم ، سيما طائفة سموا أنفسهم حكماء الإسلام ، عكفوا على دراسة ترهات أهل الضلال ، وسموها الحكمة ، وربما استهجنوا من عرى عنها ، وهم أعداء الله وأعداء أنبيائه ورسله ، والمحرفون كالم الشريعة عن مواضعه قيل (فيهم) :

وما اتسبوا إلى الإسلام إلا لصون دماهم عن أن تسالا

فيأتون المناكر في نشاط ويأتون الصلاة وهم كسالا

فالخذر الخذر منهم ! وإنما الاشتغال بحكمتهم حرام في شريعتنا ، وهم أضر

على عوام المسلمين من اليهود والنصارى ، لأنهم متسترون بزى الإسلام ... الخ

ومن آثار فتوى ابن الصلاح ، ما أصاب الأمدى + ٦٣١ من جراء

اتهمه بالاشتغال بالفلسفة والمنطق ، فقد كان واسع الاطلاع في العلوم الدينية والعلوم القديمة على السواء ، وقد نزل في القاهرة وتولى تدريس العلوم الشرعية فيها ، ولكن شهرته بالاشتغال بالفلسفة (المنطق بوجه خاص) قد آذته كثيرا ، رغم أنه كان لا يدخل شيئا من العلوم الفلسفية في دروسه ! حين اتهم بأنه فاسد العقيدة يقول بالتعطيل ويذهب مذهب الفلاسفة . وقد كتب بهذا محضر وقع عليه الكثيرون ، وأعلنوا فيه استباحة دمه ، فيما يروى ابن خلكان . . . ! ولكنه فر إلى الشام ، وقام بالتدريس في مدرسته بدمشق ، فاتهم بمثل ما اتهم به في القاهرة ، وعزل من منصبه . . . !

حرم المنطق على المؤمنين بعد فتوى ابن الصلاح ، ولكن اشتغال الغزالي به ، قد ألان من أحكام خصومه على المشتغلين به ، فن ذلك أن تاج الدين السبكي الشافعي + ٧٧١ هـ كان خصيما عنيدا للفلسفة حتى جره هذا إلى معاداة المتأخرين من المتكلمين الذين مزجوا كلامهم بكلام الفلاسفة ، ! وحمله على أن يوافق من غير قيد ولا شرط فيما يقول في « مفيد النعم ومبيد النقم » ، على ما أفتى به جماعة من أئمتنا ومشايخنا ومشايخنا مشيختنا بتحريم الاشتغال بالفلسفة ، ومع هذا يرى إمكان الاشتغال بالمنطق متى اطمأن المشتغل به على قواعد الشريعة في قلبه .

عراء ابن تيمية وابنه فقيم الجوزية للفلسفة :

ولا يملك الباحث في هذا الموضوع أن يغفل عن ذكر ابن تيمية الحنبلي الكبير + ٧٢٩ هـ في عدائه المرير للفلسفة ، وقد بدا هذا في مؤلفاته ، ولا سيما « الرد على عقائد الفلاسفة » ، و « نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان » ، وهو الذي لخصه السيوطي بعد ذلك وسماه « جهد القرينة في تجديد النصيحة » ، وزاد فألف « صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام » ، واتجه في هذه المباحث كلها إلى تحريم الاشتغال بالمنطق .

وقد جرى ابن قيم الجوزية + ٥٧١ هـ مجرى أستاذه ابن تيمية في عدائه للفلسفة ، ولكنهما كانا - فيما يقول أستاذنا الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرزاق - « من اتصل بها - بالفلسفة - وألمَّ بعلومها فيما ألما به من مختلف العلوم ، وأسلوبهما في النقد والجدل عنيف ، غير أن نفحات النظر العميق والاطلاع الواسع تخفف من لذع أسلوبها . »

وقد عرض ابن قيم في « مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والارادة » لنقد العلوم الفلسفية والإبانة عن تهافت المنطق وقلة جدواه ، وأشار في حديثه إلى صلته بالدين وحكم الشرع في تعلمه ، وما قاله في ذلك :

واعجباً لمنطق اليونان	كم فيه من إفك ومن بهتان
مخبط لجيد الأذهان	ومفسد لفطرة الإنسان
مضطرب الأصول والمباني	على شفا هارٍ بناه الباني
أحوج ما كان إليه العاني	يخونه في السر والإعلان
يمشى به اللسان في الميدان	مشى مقيد على صفوان
متصل العثار والتواني	كأنه السراب بالقيعان
بدا لعين الظمى . الخيران	فأتمه بالظن والحسبان
يرجو شفاء غلة الظمان	فلم يجد ثم سوى الحرمان
فعاد بالخيبة والخسران	يقرع سن نادم حيران
قد ضاع منه العمر في الأمانى	وعاين الخفة في الميزان

ثم يعود إلى مهاجمته للمنطق نثراً حتى يقول : « وما دخل المنطق على علم إلا أفسده وغيّر أوضاعه وشوش قواعده . »

قيام الفلسفة في الإسلام رغم صعوبات فهمها :

ولكن من الإنصاف أن نقول بعد هذا كله ، ما قاله « جولدتسيهر » من قبل « من أن الرأي المتعصب الذي قضى بتحريم المنطق ، لم يقدر له التوفيق في السيطرة على الدراسات الدينية الإسلامية ، فقد احتلت متون

المنطق -- للأبهري والكاتبى والأخضرى وغيرها -- مكاناً فى التدريس إلى جانب العلوم الإسلامية ، ويشهد هذا بأن معارضة المعتصبيين فى مهاجمة المنطق قد ذهب هباء ، بل استند علم الكلام فى إقامة قواعده ومقدماته وتطوره إلى الفلسفة الأرسطاطالية -- ولا سيما منذ أيام الفخر الرازى + ٦٠٦ هـ . وما أكثر ما وضع فى المنطق حديثاً من فنون وشروح وتعليقات ومنظومات ؛ ومثل هذا يقال فى غير المنطق من علوم الأوائل ، وهذا هو الشاهد العدل على أن تزمت غلاة المعتصبيين من رجال الدين لم يقض على الدراسات الفلسفية ، وإن كان قد مكّن لإيذاء بعض المشتغلين بها ، ثم إن رجال السنة فى أيامنا الحاضرة لا يقاومون العلوم الفلسفية فى وضعها الراهن ، ولا يميلون إلى معارضتها والسخط عليها -- فيما يقول جولدتسيهر .

ولم يمنع تزمت المتطرفين من ظهور أمثال زكريا الرازى الذى هاجم الأديان والكتب المقدسة ، وتناول على القرآن الكريم ، وصرح بإبطال النبوة ، بل لم يحل هذا التزمت دون ظهور ابن الراوندى -- فى القرن الثالث للهجرة -- بإلحاده المفضع ، كما بدا فى كتابه الزمرد الذى كشفه پاول كراوس ، وغير هذا من آثاره التى هاجم فيها النبوة والقرآن ، واعتز بالعقل وجعله أداة للمعرفة الوحيدة ، والحكم الثقة حتى فى شئون الدين^(١) .

لم تؤثر الحملات التى شنّها على التفكير الفلسفى المتزمتون من أهل السنة ، لأن الدين الإسلامى فى أصله لا يعوق طلاقة النظر العقلى ، ولا يعرقل حريته ، ولو كانت تقاليد الإسلام تميل أصلاً إلى التشكيل بأحرار الفكر ، لحالت دون هذا حاجة المعتصبيين إلى « سلطة » تمكنهم من اجتياح خصومهم ، والسير على جثثهم ؛ وقد خلت الآيات القرآنية والمعتمد من الأحاديث

(١) انظر فى تفصيل موقف هذين الملاحدين كتاب زمبناسا الدكتور عبد الرحمن بدوى

النبوية من نص يشجع على عرقلة الفكر الحر والتنكيل بأهله ، وسنعرف بعد قليل علة الاضطهاد في بعض ما عرفنا من حالات .

على أن تيار الحركات العقلية في العالم الإسلامي قد اشتد في عهده الأخير ، فأخذ المستنبرون من رجال الدين يسرون في اتجاهه ، ويتمشون مع مقتضياته ، وقد استلزم هذا النوع منهم ، أن يعملوا على التوفيق بين المبادئ الجديدة وتعاليم الدين ، وإلى مثل هذا ذهب محمد عبده والسكواكي ومحمد نجيت ومحمد فريد وجدى والغلاييني وغيرهم . . . وطريقتهم في التوفيق تبدو في أكثر الأحيان في تأويل الآيات القرآنية تأويلاً يرهق ألفاظها بمعان يبدو أنها لا تطبقها ، فمن ذلك قول السكواكي (١) « إن الآية « ألم تر إلى ربك كيف مده الظل ولو شاء لجعله ساكناً وجعل الشمس عليه دليلاً ، تتضمن — هذه الآية — اختراع آلة التصوير — الفوتوغرافيا ، ! وقوله تعالى : « وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ، فيه إشارة إلى اختراع البخار والكهرباء ! وقوله « كل شيء عنده بمقدار ، إشارة إلى أن التغيير في التركيب السكياوى والمعنوى ينشأ عن اختلاف نسبة المقادير ! وإلى مثل هذا ذهب الغلاييني (٢) ، حين قال : إن قوله تعالى « صنع الله الذى أتقن كل شيء ، إقرار لقانون السببية ! ! وقوله تعالى « يكور الليل على النهار ، دليل على كروية الأرض ! وقوله « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمرّ — السحاب ، دليل على دوران الأرض . . . الخ وقد ردنا على هذا النزوع ، فى كتاب لنا (٣)

موقف القرآنة الكبريم منه مربة النظر العقلى :

تحدثنا فى الفصل الأول من هذا الكتاب عن موقف المفكرين من الأناجيل ، ورأينا كيف يتهم أمثال « درابر ، W. Draper و « بيورى ، Bury الكتاب المقدس بأنه أمد رجال الدين فى إعاقه النظر العقلى الحر

(١) السكواكي : طبائع الاستبداد ومصارح الاستبداد ص ٣٥

(٢) الغلاييني : الاسلام روح المدنية ص ١٩ وما بعدها

(٣) النبؤ بالنبي عند مفكرى الاسلام ص ٣٥ — ٣٦

والحيلولة دون انطلاقة ، وعرفنا مدى ما في اتهامهم من باطل ؛ وقد وجه بعض المفكرين مثل هذا الاتهام للقرآن الكريم ، ومن هؤلاء « تمان »
G. Th. Tennemann خليفة بروكر الألماني J. Brücher أبي تاريخ الفلسفة
فيما يقول فكتور كوزان V. Cousin

عرض تمان لبيان العقبات التي عاقت العقل العربي (الإسلامى) عن التفكير الفلسفى ، وردها إلى أسباب دينية وقومية ، وفسر الأولى بأنها :
القرآن « الذى يعوق النظر العقلى الحر » وحزب أهل السنة الذى يستمسك
بحرفية النصوص .

ويعلق على هذا رأى أستاذنا الشيخ الأكبر فيقول : « وقد لا يخلو
حديث تمان من العوامل المثبطة لرقى الفلسفة عند العرب من نغمة العاطفة
الدينية ، وتلك كانت يومئذ روح العصر ، حتى عند الفلاسفة المشتغلين بتاريخ
الفلسفة . . . » ويضيف إلى هذا عنصر تعصب جنسى على العرب تبدو بوادره
في كلام تمان ، وهو التعصب الذى زخرف له « ارنست رنان E. Renan
ثوباً علياً من أبحاثه في تاريخ اللغات السامية ، . . . ويعرض الأستاذ رأى
غيره من مؤرخى الفلسفة ، ومن بينها رأى « منك » S. Munk الذى يرى
أن الفلسفة العربية قد « تقلبت في جميع الأدوار التى مرت بها في العالم المسيحى »
وفي هذا مخالفة لقول تمان إن الكتاب المقدس يعوق النظر العقلى الحر ،
إذ يثبت « منك » « أن الإسلام ليس دون المسيحية اتساعاً لنمو الفلسفة
وتطورها » .

وإذا كان تمان قد رأى في القرن الغابر الرأى السالف بصدد القرآن ،
فقد وجد في مطلع القرن الحاضر أمثال جوتييه L. Gauthier الذى يقرر
الحدود بين العقل السامى والعقل الأرى حتى لا تتلاقى منازعهما ، ثم يبين
أن الإسلام دين قوى فى ساميته جداً ، فلا يمكن تصور نظام أشد منه معارضة
للفلسفة اليونانية القوية فى آريتها جداً ، وأنه كان أول واجب على الفلاسفة
المسلمين أن يوفقوا بين هذين التيارين . . . ولكن أكثرية العلماء فى القرن

الحاضر لا يؤيدون مثل هذا الاتجاه بصدد الإسلام ، فقد « تلاشى القول بأن الإسلام وكتابه المقدس كانا بطبيعتهما سجناً لحرية العقل وعقبة في سبيل نهوض الفلسفة أو كاد يتلاشى » ، ويدلل على هذا بنصوص لعلماء آخرين .
لم يكن عند العرب عند نزول القرآن للفلسفة معناها الدقيق ، فلنعرض موقف القرآن من حرية الجدل والبحث بجملاً فيما يلي (١) :

كان العرب عند ظهور الإسلام « يتشبثون بأنواع من النظر العقلي تشبه أن تكون من أبحاث الفلسفة العلية لاتصالها بما وراء الطبيعية من الألوهية . وقدم العالم أو حدوثه ، والأرواح والملائكة والجن والبعث ونحو ذلك ، وكانوا « حين نزول القرآن في منازعة وجدل في العقائد الدينية ، وكان البحث في إرسال الرسل والحياة الآخرة وبعث الأحياء من الموت موضع الأخذ والرد على الخصوص بين النحل المتباينة » وقد « جاء القرآن يقرر أن الدين الحق واحد ، وحى الله إلى جميع أنبيائه وهو عبارة عن الأصول التي لا تبدل بالنسخ ولا يختلف فيها الرسل ، وهي هدى أبداً ، أما الشرائع العملية فهي متفاوتة بين الأنبياء وهي هدى ما لم تنسخ ، فإذا نسخت لم تبق هدى
والإسلام يجمع بين الدين والشريعة ، أما الدين فقد استوفاه الله كله في كتابه الكريم ، ولم يكمل الناس إلى عقولهم في شيء منه ، وأما الشريعة فقد استوفى أصولها ثم ترك للنظر الاجتهادى تفصيلها ، جاء في القرآن المجيد : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » وهذا هو تفسير الطبرى والشاطبى والشافعى للآية ، وبهذا وجد الاجتهاد بالرأى أصلاً من أصول الإسلام .

وقد كان « على القرآن أن يجادل مخالفه من أرباب الأديان والملل في العرب رداً للشبهات التي كانوا يثيرونها حول عقائد الدين الجديد ، على

(١) وتفصيل ما سنقتبسه بجملاً مع تأييده بالآيات القرآنية في الفصل الأول من القسم الثاني من كتاب الأستاذ الأكبر « تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية » .

أنه كان لا يمد في حبل الجدل حرصاً على الألفة، وكثيراً ما تحتم آيات الجدل بمثل قوله (إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون) وقوله (وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون، الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون) وقوله (ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) وهذا الجدل في العقائد عرض له القرآن للحاجة وعلى مقدارها، من غير أن يشجع المسلمين على المضى فيه، بل هو قد نفرهم منه . . . ودعا القرآن إلى الأخذ في هذا الجدل برفق عند الحاجة إلى الجدل . . . وإذا كان القرآن قد نفر المسلمين من الجدل في أمور العقائد، فإن القرآن قد ذكر الحكمة التي كانت معروفة عند العرب، وكانت شرفاً لأهلها وجاهاً، وأثني عليها وشجع على حياتها ونموها، وقد كان لهذه المعاني الدينية التي قررها الإسلام منذ نشأته، أثرها العظيم في توجيه النظر العقلي عند المسلمين في عهدهم الأول، فسكروها البحث والجدل في أمور الدين دون أمور الأحكام الفقهية .

وقد كان المسلمون في الصدر الأول « يرون الأسييل لتقرير العقائد إلا الوحي، أما العقل فعزول عن الشرع وأنظاره، كما يقول ابن خلدون في مقدمته وابن تيمية في النبوات » وكانوا يرون أن التناظر والتجادل في الاعتقاد يؤدي إلى الانسلاخ من الدين، من أجل ذلك كان المسلمون عند وفاة النبي صلى الله عليه وسلم على عقيدة واحدة إلا من كان يبطن النفاق، ولم يظهر البحث والجدل في مسائل العقائد أو في أيام الصحابة، حين ظهرت بدع وشبه اضطروا المسلمون إلى مدافعتها . . . ومن ثم تفرقت الفرق ونشأ علم الكلام حجاجاً للبدعة الخائدين عن طريق السلف والمخالفين للدين، ونشأ على أنه ضرورة تقدر بقدرها .

« أما النظر العقلي في المسائل الشرعية فقد نشأ في الإسلام مؤيداً من الدين، وقد ورد في الكتاب والسنة الثناء على الحكمة والحكم والتنويه بفضلهما، فهد ذلك لانتعاش النظر العقلي في الشؤون العملية، وهو نوع من التفكير

كانت العرب مستعدة لنموه بينها . . . وحدث الاجتهاد في التشريع الإسلامي منذ عهد الإسلام الأول في كنف القرآن بترخيص من الرسول عليه السلام . . . وهذا الاجتهاد بالرأى في الأحكام الشرعية هو أول ما نبت من النظر العقلي عند المسلمين ، وقد نما وترعرع في رعاية القرآن وبسبب من الدين ، ونشأت منه المذاهب الفقهية ، وأينع في جنباته علم فلسفي هو علم « أصول الفقه » ونبت في تربته التصوف أيضاً ، وذلك من قبل أن تفعل الفلسفة اليونانية فعلها في توجيه النظر العقلي عند المسلمين ، إلى البحث فيما وراء الطبيعة والإلهيات على أنحاء خاصة . . . وكان التشريع في عهد النبي « يقوم على الوحي من الكتاب والسنة ، وعلى الرأى من النبي ومن أهل النظر ، والاجتهاد من أصحابه بدون تدقيق في تحديد معنى الرأى وتفصيل وجوهه ، وبدون تنازع ولا شقاق بينهم ، حسبنا الآن هذا تصويراً لموقف القرآن من البحث والجدل نقلاً عن مصدر موثوق لا يرتقى إليه إتهام .

نرى بما أسلفناه أن القرآن قد بغض المؤمنين في البحث والجدل في أمور الدين ، دون أمور الأحكام الفقهية ، ومن هنا نشأ في الإسلام القياس والاجتهاد بالرأى .

وقد كان طبيعياً بعد هذا - فيما يبدو لنا - أن يضيق رجال الدين بالنظر العقلي الحر متى امتد إلى العقائد الدينية وأخذ في بحثها ، أو تناول بالدراسة العقلية موضوعاتها ، وانتهى في أمرها إلى غير ما يألف رجال الدين ، ولعل هذا قد شجع على ضيقهم بالفلسفة وسخطهم على أهلها .

والحق « أن ليس في طبيعة الإسلام - ولا في طبيعة المسيحية - ما يدعو إلى الاضطهاد ولا إلى محاربة الجديد ولا إلى مناهضة حرية الرأى ، ولك أن تقرأ القرآن - والأناجيل - وتمعن في القراءة ، ولك أن تبحث وتمعن في البحث فلن تجد نصاً أو شبه نص ينكر التجديد ويدعو إلى مناهضته

أو يأخذ العقول بالجمود أو يحظر عليها حرية الرأي قليلاً أو كثيراً ، فيما يقول طه حسين (١) .

لقد روى بعض أئمة ورجاله ، أن من أصول الإسلام : النظر العقلي لتحصيل الإيمان ، وتقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض ، والبعد عن التفكير (فإذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مئة وجه ، ويحتمل الإيمان من وجه واحد ، حمل على الإيمان ، ولا يجوز حمله على الكفر !) ثم إلغاء السلطة الدينية (٢) (فليس لأحد بعد الله سلطان ، والخليفة ليس موضع عصمة ولا مهبط وحى) .

وقد هيات هذه الأصول السبيل لحرية العقل في أكثر عصور الإسلام ، حتى عاش غير المسلمين من العلماء والعالم الإسلامي وهم موضع رعاية وإكبار ، وليس بنا من حاجة إلى تفصيل القول في هذا الذي ذاع وانتشر ، فإن صح هذا فلماذا عرف العالم الإسلامي اضطهاد المفكرين في بعض مراحل تاريخه . . ؟

وأجمل ما في موقف القرآن المجيد بصدد الحرية العقلية ، قوله تعالى في سورة البقرة : « لا إكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي » ، فن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله ، فقد استمسك بالعروة الوثقى ، لا انفصام لها والله سميع عليم ، وقوله في سورة الكهف : « وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، وبهذا أطلق القرآن الكريم حرية النظر ، وسجل على المتزمتين اثم ما يفعلون وجعل رسول الله مبلغاً ومذكراً ، لا مسيطراً ومهيماً » فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر ، وبهذا

(١) طه حسين : من بعيد ص ٢٢٠ وفي القرآن الكريم عشرات الآيات التي تحض على التأمل والفكر والنظر .

(٢) الأستاذ الامام محمد عبده : الاسلام والنصرانية (جعل الاصول ثمانية ، وجعلها الاستاذ محمد فريد وجدى في الطبعة الخامسة من كتابه : المدنية والاسلام اثني عشر أصلاً وأيدها بفيض من الاحاديث النبوية والآيات القرآنية فليرجع إليها من شاء .

كاه خلا الإسلام من شيء اسمه السلطة الدينية ، والخليفة لا يحتكر تأويل الكتاب والسنة ولا يعتبر معصوما من الخطأ ، فإن زل ووجب تقويمه «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» ، فيما يقول الحديث النبوي .

تفسير الاضطهاد في الاسلام :

مرّد هذا الاضطهاد فيما نعلم ، إلى أسباب سياسية أو شخصية ، ونعني بالأخيرة حسد العلماء للمتفوقين منهم ، وضييقهم بشهرة غيرهم وذبوع اسمهم ، وقلقهم من ظهور رأى جديد لم يألفوه ، وحرصهم على رأى قديم ثبتوا عليه وآمنوا بصحته ، فحب القديم لقدمه ، وكراهة الجديد لجدته ، فطرة فطر الناس عليها من قديم الزمن ، ثم طبيعة المعتقد الدين في نفوس أهله — على ما عرفنا في الفصل الأول — لأن الإيمان كثيراً ما يسلم إلى التزمت ، والتزمت لا يستقيم مع إطلاق الحرية للعقل ، وتقبّل كل رأى يتكشف عنه البحث والنظر . وهذا بالإضافة إلى ضيق الأفق وضآلة التفكير عند هؤلاء المتزمتين . أما الأسباب السياسية فعني بها انسياق الحكام في ركب الرأى العام ، ومسايرتهم لشعور الجماعات ، وتمشيهم مع عقلية الجماهير — وقد يفعل هذا نفسه رجال الدين — اكتساباً للسمعة الطيبة بين الناس — وهذا بالإضافة الى جهل الجماهير وسرعة تأثرها وانسياقها إلى حيث تتوهم الجهاد في سبيل الله ، يضاف الى هذا كله ما يبدو في كتابات بعض الفلاسفة من جموح لا يستقيم مع قواعد الدين ، وما أشيع عن سلوكهم وأقوالهم — إن حقاً وإن باطلاً — مما لا يتفق مع احترام الدين وتوقير مبادئه .

فلنعرض نماذج من أسباب هذا الاضطهاد فيما عرفنا من حالاته :

كثيراً ما كان المضطهد من الفلاسفة تترجح حياته بين عطف الحاكم وسخطه ، يخضع في هذا المدى استجابة الحاكم لوشاية خصومه وحساده ، ووساطة أصدقائه وأتباعه ، ويفسر هذا بحنة محمد بن عبد السلام الملقب بركن الدين ، ، ونكبة أبى الوليد بن رشد ، وقد عرفنا أثرهما من قبل ، فأما

الأول فرداً محاكمته - فيما يروى جولد تسيهر نقلاً عن ابن رجب في مخطوطه عن طبقات الحنابلة - إلى انتقام الوزير بن يونس ، من حفيد عبد القادر الجيلافي الذي آذاه أولاده إيذاء شديداً ، وهذا بالإضافة إلى مؤامرات أبي الفرج بن الجوزي خصم عبد السلام العنيد . وقد أشرنا إلى أن مدرسة عبد القادر قد انتزعت من يد حفيده عبد السلام أثناء محنته ، ولكنها ردت إليه بعد ممات الوزير ابن يونس ، وأمضى عبد السلام بقية حياته في رضى من الخليفة تارة ، وسخط تارة أخرى .

ومثل هذا يقال في تفسير النكبة التي أصابت ابن رشد ، فإن مردها على اختلاف أقوال الرواة لا يكاد يخرج عما أسلفناه ، فمن ذلك ما يقال من أنه كان يؤثر أبا يحيى على أخيه الخليفة المنصور ، ومنها أنه عرض بالمنصور فكاتب بخطه يقول « رأيت الزرافة عند ملك البربر ، وهم المنصور بسفك دمه لولا وساطة أبي عبد الله الأصولي الذي أوهمه أنها « ملك البرين » (أى الأندلس والمغرب) . ومنها أنه استفاض بين الناس في الشرق والأندلس أن ربحاً عاتية - فيما تقول إحدى المنجات - ينتظر أن تهب في يوم كذا ، فيهلك الناس ، وأثار هذا النبأ جنح الجماهير حتى اتخذوا الكهوف والأنفاق والمغاور اتقاءً لشرها ، فاستدعى والى قرطبة أهل الرأى فيها ليعرف حقيقة هذه الريح ، فقال أبو محمد عبد الكبير : إن صح أمر هذه الريح فهي ثانية الريح التي أهلك الله تعالى بها قوم عاد ، فقال ابن رشد على الفور : والله وجود قوم عاد ما كان حقاً ، فكيف سبب هلاكهم ؟ فذهل الحاضرون وأكبروا هذه الزلة التي لا تصدر إلا عن صريح الكفر والتكذيب لما جاءت به آيات الكتاب المجيد - فيما يروى الأنصارى - ولكن الذهبي يروى ما يفيد أن الذى أثار غضب المنصور عليه ، إنما هو وشاية حساده وخصومه ، ومنها أنهم أخذوا بعض ملخصاته في الفلسفة وأطلعوا عليها المنصور فإذا فيها بخطه حاكياً عن بعض الفلاسفة « قد ظهر أن الزهرة أحد الآلهة » فاستدعاه

بمحضر من السكار بقرطبة وسأله : أخطك هذا ؟ فأنكر ابن رشد ، فقال له : لعن الله كاتبه ، وأمر الحاضرين بلعنه ، ثم أمر بإخراجه مهاناً .

وليس ينفي هذا ، ما نلاحظه في فلسفة ابن رشد ، من عدم اتساقها في بعض نواحيها مع المعروف من أمور الدين ، والواقع أنه لم ينجح في دفاعه عن الفلاسفة في الاتهام الذي وجهه الغزالي اليهم بصدده إنهاء بعث الأجساد ، وقصر علم الله على الكليات وقدم العالم وأزليته ، وهي المسائل الثلاث الذي كَفَّرَ الغزالي الفلاسفة من أجلها . وهذا بالإضافة إلى أن الفلسفة في ذاتها كانت بغضضة إلى سواد الناس والمتزمين من رجال الدين .

ولكن محنة ابن رشد لم تطل ، ونجح مسعى أصدقائه عند الخليفة في تزوير عقيدته ، فعفا عنه وعن صحبه وأولاه العطف حتى مات في العام التالي .

وحملة ابن الصلاح - وأمثاله - في فتواه التي هاجم بها الفلسفة والمنطق ، لها ما يبررها من اتجاهات عقله وتيارات قلبه ، وقد عرفنا أنها كانت دينية محضة ، وأنه أخفق في تعليم المنطق حتى قال له أستاذه « يا فقيه ، المصلحة عندي أن تترك الاشتغال بهذا الفن ، ومن هنا كانت خصومته العنيدة للمنطق والفلسفة باسم الدين ، ولعل السؤال الذي أفتى فيه فتواه كان من وضعه ، لأن فيه إشباعاً لنزعات نفسه ، وإرواء لظمأ قلبه في مهاجمة ما لا يحب ، وقد كانت روح العصر تلاثم هذه الفتوى وتتفق مع ما تنطوى عليه من تزمت وضيق نظر .

الاضطهاد بين المسيحيين والاسلام :

من الإنصاف أن نقول إن فتواه تذكرنا بشيء له خطره المروع في تاريخ النزاع بين الإيمان والعقل ، إن فيها نصاً يشهد بأن أمثاله من المتزمين من رجال الدين لو تهيأت لهم السلطة ، لقيدوا العقل وحجروا على حريته ونكلوا برواد الفكر الحديث ، وقضوا على التفكير الفلسفي في غير رفق ولا هوادة ، أليس يقول في فتواه « فالواجب على السلطان ، أن يدفع عن

المسلمين شر هؤلاء (المشائيم) ويخرجهم من المدارس ويبيدهم ، ويعاقب على الاشتغال بفنهم ، ويعرض من ظهر منه اعتقاد عقائد الفلاسفة على السيف أو الإسلام ، لتخدم نارهم ، وتمحى آثارها وآثارهم ، يسر الله ذلك وعجله .. !
ومن أوجب هذا الواجب عزل من كان مدرس مدرسة من أهل الفلسفة والتصنيف فيها والاعغراء لها ، ثم سجنه وإلزامه منزله ، وإن زعم أنه غير معتقد لعقائدهم (الفلاسفة) فإن حاله يكذبه ، والطريق في قلع الشر قلع أصوله .. الخ ، !

قد يذكرنا هذا بمحاكم التفتيش في العالم الأوربي الكاثوليكي ! وقد عرفنا شيئاً عن أنبائها المروعة ، وموقف رجالها من إعاقه النظر العقلي الحر والتنكيل بأهله . ويلوح لنا أن أول فارق ملحوظ بين الحالين ، استحواذ الهيئات الكنسية على «سلطة زمنية» لم تهباً لهؤلاء المترمتمين من رجال الدين الإسلامي ، ويشهد بصحة هذا الرأي ، أن المعتزله وهم الذين اعتصموا بالعقل في دفاعهم عن الدين ، نكلوا بخصوصهم في القول بخلق القرآن حين تبيأت لهم الساطة في عهد المأمون والمعتصم ، فلم يقنعوا بالحاجة والتزام المنطق العقلي ، بل حكّموا السيف في رقاب مخالفيهم ! ناهيك بغيرهم من رجال الدين الذين لا يقرون للعقل بسطان ! على أن مثل هذه السلطة كانت تعوز المترمتمين من المسلمين ، وقد يُرد إلى هذا السبب ، القول بأن تبعات هؤلاء المترمتمين في اضطهاد الفكر الحر ، وإعاقه النظر العقلي ، أخف بكثير جداً من تبعات السلطات الكنسية في أوربا ، وإذا كان من الإنصاف أن يقال إن حكام المسلمين قد جمعوا بين الحكم الديني والديني في الصدر الأول من الإسلام ، فلم يحدث من المحن بعض ما عرفنا في العالم الأوربي ، وأن بعض حكام المسلمين في غير هذه الفترة قد انساقوا إلى حيث أراد المترمتمون من رجال الدين . فحجروا على الفكر الحر واضطهدوا أهله ، ولكنهم لم يذنبوا محاكم تفتيش تطارد هؤلاء الأحرار أنى كانوا ، ولم يضعوا سجلاً يثبتون فيه أسماء

الكتب التي حرمت قراءتها على المؤمنين ، ويقضون بحرمان مؤلفيها وقرائها على السواء ، ولم يلجأوا إلى الإعدام والإحراق والتنكيل ونحوه إلا في حالات نادرة ، إذا كان من الحق أن يقال ذلك ، فمن الإنصاف أن نقول إن كثيرين من رجال اللاهوت في أوروبا وأمريكا قد أوتوا من سعة العقل ورحابة الصدر وصدق الإدراك ، ما مكّنهم من مسابرة الركب والتطور مع الزمن ، فباركوا حركات التجديد وأدّنوا من حضرتهم رواد الفكر الحديث ، وتولّوهم بالرعاية والتقدير ؛ وإذا كانت ساحة الإسلام قد برئت من آثام غلاة المتعصبين من رجاله ، فإن المسيحية — فيما يلوح لنا — غير مسئولة عن تاريخها الملتطخ بالدم (١) .

(١) كانت أهم مصادرنا في هذا الفصل : الفصل القيم الذي وضعه المستشرق الألماني جولدميهر عن « موقف أهل السنة القدماء بأزاء علوم الأوائل » وظهر في نصره مباحث أكاديمية للمسكية البروسية للعلوم عام ٩١٥ وقد نقله إلى العربية زميلنا الدكتور عبد الرحمن بدوي ثم نصره في « التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية » ١٩٤٠ وكتّاب أستاذنا الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الجامع الأزهر « تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية » وكتّاب فرح أنطون « ابن رشد وفلسفته » ١٩٠٣ والأستاذ الامام « محمد عبده » في « الإسلام والنصرانية » ومحمد يوسف موسى في « ابن رشد الفيلسوف » ٩٤٥ .

الفصل الخامس

النزاع بين اللاهوت والفكر الجديد

في عصر النهضة

التنافر الملحوظ بين روح النهضة وروح العصر الوسيط — مظاهر النضج في عصر النهضة — موقف العقل الجديد من المسيحية — بواعث النزاع في هذا العصر — مقاومة الروح الملى الجديد في العالم الكاثوليكي — مقاومته في العالم البروتستانتي — مقاومة الاكليروس لانشأة علم الفلك الحديث (نظرية دوران الارض — موقف الكنيسة من عمران الكرة الارضية) — فهرست الكتب المحرمة على المؤمنين — كلمة أخيرة .

التنافر بين روح النهضة والعصر الحديث :

تمكنت المسيحية من قلوب الناس منذ عصورها الأولى ، فاكتمح وحيثما العقل الذي كان قد شاخ ، وسيّره في ركابه ، وأكرهه على الدعوة لتعاليمه ، وانفرد الوحي بالنفوذ قرونا طويلا ، حتى نزعت أوروبا — في أواخر العصر الوسيط — إلى إحياء ما اندثر من تراث الفكر القديم ، واسترد العقل سلطانه ، وتمكن من إحداث انقلاب شمل مرافق الحياة كلها ، وامتد من إيطاليا إلى أوروبا الشمالية ، فكان هذا عصر النهضة ، الذي شغل القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وبدا بها على تنافر ملحوظ مع روح العصر الوسيط ، فلما أقبل العصر الحديث ، كان العقل قد استبد بهوى مفكره ، فالتمسوا عنده الخلاص من هذا التنافر ، واجمع بين الضدين في وحدة عقلية متسقة ، لم تلبث حتى اعترأها التفكك ، وخضع الوحي المسيحي لنقد العقل وسخريته — كما سنعرف في الفصل التالي .

فأما هذا الانقلاب الذي حمل اسم النهضة ، فردّه إلى يقظة العقل بعد

طول رقاد، ونشاطه بعد وفرة الاستجمام، وتاريخ العقل في الجماعات البشرية يشهد بأنه لا يقيم على حال واحدة من ركود أو نشاط، وكأنه يلتمس الراحة بعد السكد، ويميل إلى الجدم متى استوفى حظه من الراحة، وقد أدركت إيطاليا منذ القرن الثالث عشر تطورات غيرت من أحوالها الاجتماعية وظروفها السياسية، ومهدت لنشأة حركة عقلية واجتماعية تكفلت بتبديد الظلام، ومهدت الطريق لتقويض السلطة الدينية، وتحرير العقل من قيود الأسر، وسأقت المفكرين إلى إحياء الروح القديم، ومكنتهم من التحرر من سذاجة العصر السالف، وإدراك أنفسهم وفهم العالم من حولهم، وأحس الإنسان إنسانيته وفرديته، مستقلة عن قومه ووطنه، وشعر في هذا العالم الجديد بأنه محتاج إلى مرشد يهديه سواء السبيل، فالتمس الإرشاد في آداب اليونان والرومان، فكان هذا هو المذهب الإنساني، الذي أنشأ جواً عقلياً مكن الفكر من الانطلاق، ويسر للمعرفة أن تتقدم إلى الأمام، تقدماً أيدته اختراع المطبعة، ومكن له اكتشاف أقطار جديدة زادت من معارف الناس، وصححت الكثير من أخطائهم، وشجع على هذا الضمحلل نفوذ البابوات في العالم الأوربي، وانحلال الامبراطورية الرومانية المقدسة، وغير هذا من عوامل يسرت قيام الإصلاح الديني، ومهدت لقيام النزعة العقلية واشتداد بأسها.

فأما التنافر الملحوظ بين روح العصر الوسيط وروح النهضة، فما أكثر شواهدة...! كان العصر الأول يستجيب للوحي الإلهي ويميل إلى الزهد ويتجه نحو الروحية التي تتضمن التوجس من الجسم والتخوف من ميوله وشهواته، وتتهيب التمتع بالجمال، ويرضى عن الجهل الذي يجعل صاحبه أكثر استجابة لأوامر الدين! ويقصر البحث على نمو الحياة الروحية، والتماس الخلاص، وينزع إلى التجرد من الحياة، وتعذيب الجسم، ونحو هذا مما أدى إلى إدانة الفنون المتجسدة والعلوم التجريدية، وحصر المعرفة في اللاهوت

وما بعد الطبيعة ، لأنها الطريق الوحيد إلى الخلاص . أما عصر النهضة فقد عكس الآية ، إذ احتوته الثقة بالعقل ، واستغرقه حب الاستطلاع الحر ، واشتد كلفه بالعلم واحترامه لرجاله ، وأحب الجمال وشغف بالطبيعة وولع بالاستمتاع بملاذ الحياة ، ومن ثم توافر الفن على محاكاة الأوضاع الجسمانية ، وتمكن العلم من ملاحظة الظواهر الطبيعية ، وقوى النزوع إلى تبرير الشهوات ، ونبت العقائد التحكيمية المتعسفة والخروج على التقاليد المألوفة والمبادئ المرعية ، واتسعت هوة الخلاف بين النزعة الصوفية في العصر الأول ، والاتجاه العقلي في العصر الثاني - فيما يقول مؤرخو العصرين .

مظاهر الفضح في عصر النهضة :

كان الإنسان في العصر الوسيط فرداً في جماعة يسير في ركابها ويعمل بوحيا ، فاسترد في عصر النهضة استقلال شخصيتها ، واستكمل نزعة الفردية التي كانت قد انطمت منذ أواخر عهد اليونان والرومان ، وكان من أثر هذا التطور اشتداد حركة الإصلاح الديني ، التي تولت بالنقد أكبر هيئة دينية مقدسة ، وأتاحت لغير الكنيسة تفسير الأناجيل - وبهذا نادى زعمائها - وأفضت - عن غير قصد - إلى تحرير العقل من قيود العقيدة الدينية ، وتمثل هذا الانقلاب في اتجاه العقل الجديد في طريقتين : أولها إحياء الروح القديم الذي بدا على ما عرفنا قبل ذلك ، واسكنه اشتد في عصر النهضة ، فانطلق دعاة المذهب الإنساني - منذ القرن الرابع عشر حتى السادس عشر - إلى بعث ما عرف من آداب اليونان والرومان ، مسترشدين بها في إخضاع الدنيا لصالح هذا الإنسان الجديد ، وجدّ المشتغلون بالفلسفة في إحياء التراث الفلسفي القديم ، فانبعثت الأفلاطونية في أكاديمية فلورنسا^(١) ، ومنها انتشرت

(١) أنشأها كوزيمو دي مديتشي + ١٤٦٤ وتولى رياستها « مارسيل فيسان » Marsile Ficin ١٤٩٩ وهو الذي نقل آثار أفلاطون وأفلاطين إلى اللاتينية مع تعليقات عليها ، واستدعت فلورنسا كرسولراس وغيره ليعاشر فيها باليونانية .

في سائر أوروبا ، واستقامت الأرسطاطاليسية - كما بدت في تراث ابن رشد وغيره من فلاسفة الإسلام - في بادوا ، وامتدت حركة الإحياء إلى مذاهب الرواقية والشكاك وغيرهم من مدارس الفلسفة في العصر القديم ، ونشطت هذه الحركة بعد سقوط القسطنطينية^(١) وفرار العلماء منها إلى إيطاليا . وثانى الطريقين اللذين سلكهما العقل الجديد يتجلى في اهتمامه بالطبيعة الحافلة بالحقائق ، ونزوعه إلى ارتياد المجهول من آفاق العلم الطبيعي ، إذ انبعثت صيحة روجر بيكون في الدعوة إلى التجربة والاختبار ، واستجاب لها العلماء والفنانون ونشأت الجمعيات العلمية صدى لهذه الدعوة^(٢) ومهد هذا لنشأة العلوم الطبيعية مؤيدة بالمخترعات الحديثة ، وانساق الناس إلى الكشف الجغرافي التماساً لحقيقة تسفر عنها مشاهداتهم^(٣) ، واتفق رواد الفكر الجديد على استهجان الكتب القديمة والسلطة الدينية مصدرراً لعلمنا بالطبيعة الكونية^(٤) ومضى العقل في محاولة اكتشاف الجديد في شتى صورته ، وأمعن في تحطيم القيم المعتمدة في عصره ، حتى إذا أتى عليها جميعاً ، ارتد إلى نفسه ،

-
- (١) استولى الترك على القسطنطينية عام ١٤٥٣ فسقطت بسقوطها الدولة الرومانية الشرقية ، ونشر الترك الرعب في قلوب الناس ، ففادرها علماء الأغبقي بمخطوطاتهم إلى إيطاليا ، فأكرمت وفادتهم . وتولوا نشر العلم في جامعاتها حتى انتقلت النهضة إلى أوروبا الشمالية .
- (٢) فأنشأ Telesio + ١٥٨٨ أكاديمية البحث الطبيعي في نابلي عام ١٥٦٠ وقامت جماعة ليندوس في إيطاليا عام ١٦٠٣ وقوى هذا النزوع بعد فرنسيس بيكون + ١٦٢٦ فنشأت مدرسة الفلورنسيين عام ١٦٥٧ وقامت في لندن الجمعية الملكية عام ١٦٤٥ ونشأت أكاديمية العلوم الملكية في فرنسا عام ١٦٦٦ ثم الأكاديمية دل شيمنتو عام ١٦٥٧ م . الخ
- (٣) فظهر في القرن الخامس عشر هنرى الملاح + ١٤٦٢ ورنديودياز + ١٦٧٩ وفاسكودى جاما + ١٥٢٤ وكولب + ١٥٠٦ وماجلان + ١٥٢١ وغيرهم .
- (٤) اتفق في هذا النزوع أنشال Vesale + ١٥٦٤ منشىء علم تشريح الأعضاء وهارفي + ١٦٥٨ كاشف الدورة الدموية وكوبرنيكوس + ١٥٤٣ رائد علم الفلك الحديث وليوناردى الفنسى + ١٥١٩ الذى نثثت فيه روح النهضة ، وكابانيل ومن اليه ، وقوى التبشير بهذا المنهج الجديد عند Paracelsus + ١٥٤١ و Edward Wotton في إنجلترا وكتراجستر في الفارة إبان القرن السادس عشر .

وأعمل فيها معاولة .. أطاح بكل شيء ، ثم عاد إلى نفسه ، وأعلن شكه في قدرته على أداء وظيفته في التفكير بغية اكتشاف الحقيقة ، إذ هاله ما انتهى إليه رواد الفكر الحديث من كشف ما طواه التراث القديم من أخطاء ، وراعه الخلاف الملحوظ بين مذاهب الفلسفة ، وتعصب الطوائف لكل منها ، فكان الشك الهدام الذي أطاح بوحدة أوربا العلمية والدينية والسياسية في القرن السادس عشر — فيما يقول كواريه (١) .

فما موقف الدين المسيحي من هذا الانقلاب كله . . ؟

تمرد هذا العصر على تقييد الحرية في مجال الأخلاق والآداب ، وميادين العلم والفن والفلسفة جميعاً ، فتلاشت قيود الآداب والنظام ، وانطلقت الشهوات من عقالها ، وفشى الفساد حتى استغرق العصر كله ، وأصبح البرء منه شذوذاً لا يستقيم مع أوضاع العرف (٢) ، وكان أفدح خسران لحق بهذا العصر فقدان الإيمان والتحرر من قيود الأخلاق ، ومشاركة رجال الدين في هذا الفساد ، مما أدى إلى التهجم عليهم والنشهر بآثامهم ، وساهم في هذا التجريح رجال الإصلاح الديني ، وأسرفوا فيه حتى تحول مبدؤهم في إقرار حق الفرد في إصدار ما يرى من أحكام ، إلى عصيان روما في كل ما ترى ! واستخف الناس بالروح المسيحي ودعاتها ، حتى انطمس ذكر دانتى — شاعر المسيحية العظيم ، في روما وفلورنسا ، في نفس الوقت الذي أقبل فيه طلاب العلم على أفلاطون وشيشرون ، وهومير وفرجيل ، فكان العصر بحق ثورة على المسيحية وتقاليدها .

(١) أظن كواريه A. Koyrè في محاضراته الثلاث بالجمعية الجغرافية نشرت في الجامعة المصرية تحت عنوان Trois Leçons sur Descartes مع ترجمتها إلى العربية للأستاذ يوسف كرم وثلاثة دروس في ديكارته .

(٢) امتنع التمييز بين القديس والفاخر في مجال التبجيل والاحترام . وإذا كان الفساد خروجاً على مألوف المبادئ الخلقية ، تجرد القرن الخامس عشر من مثل هذا الفساد . وإن كان بحق عصر الأباحية والفساد فيما يرويه سدن دارك .

موقف العقل الجدير منه المسيحية :

على أن هذه الثورة لم تنته في كثير من الحالات بإخضاع الديانة المسيحية لنقد العقل ، واختبار عقائدها في ضوء منطقها ، وشتان بين الاستخفاف بتعاليمها والسخرية بتقاليدها ، والعمل بما لا يسير روحها ، وبين دحض معتقداتها وتفنيد قواعدها وأصولها ، ومن أجل هذا قيل إن الثورة العقلية التي استغرقت عصر النهضة ، لم تعصف بالعقيدة الدينية عصفاً مباشراً ، فأما المصلحون فإنهم كانوا على اتفاق في مقاومة انحطاط الكنيسة وفساد رجالها ، مع الإبقاء على الدين المسيحي كما ورد في الأناجيل ، وإن أبقى بعضهم - إرزمس - على العقائد الأساسية للذهب الكاثوليكي ، وعصف البعض الآخر - ويكلف وچون هس ولوثر - بهذه العقائد ، ودعا إلى المسيحية كما تصورها . أما غير المصلحين من رواد الفكر الحديث ، فقد أشفق جمهورهم من التهجيم على الدين ، في نفس الوقت الذي استجابوا فيه لنداء العقل ، فكان الجمع بين الإيمان الصادق قولاً والفساد الطليق وموت الضمير فعلاً ، من مميزات النهضة في إيطاليا ، التي كانت تعبد الإله « بان » - يامعناها في اللذات - ولا تجرؤ على أن تنسى المسيح كل النسيان ، فيما يقول سدني دارك ، - ومثل هذا يقال في سائر أوروبا ، فلم تُسْفِض ثقافة هذا العصر - فيما يقول بيوري - إلى ثورة عقلية صريحة أو عامة ترمي إلى اجتياح المعتقدات الدينية ، بل اتخذ العالم بالتدريج مظهراً معادياً - من غير شك - لتعاليم الدين التي ذاعت في العصر الوسيط ، ولكنه لم يتفجر سخطاً عليها وعداء لها ! ولم يكن أتباع المذهب الإنساني أعداء للسلطة اللاهوتية ، ولا خصوماً للعقيدة الدينية ، ولكنهم اكتشفوا ميلاً إنسانياً محضاً إلى تأمل هذا العالم ، واستغرق هذا الاكتشاف اهتمامهم ، فكلفوا بالأدب الوثني ، وشغفوا بالتعليم الدنيوي ، وكان هذا موضع اهتمامهم ، وعزلوا الدين واللاهوت في جناح مستقل عن العلم الدنيوي ، وكان بعض أصحاب النظر

العقلي ممن أدركوا التنافر بين هذين العالمين ، يحاولون التوفيق بين الدين القديم والفكر الجديد ، ولكن مفكرى عصر النهضة ، قد تحروا التمييز الكامل بين العالمين ، وممارسة الجرى على طقوس العقيدة الظاهرية ، دون إخضاع العقل لها إخضاعاً حقيقياً ، فكفوا بهذا استقلال العقل في تفكيره وتحرره من السلطة الكفيسية ، مع الإبقاء على العقيدة الدينية ، ويوضح هذا الاتجاه « مونتاني Moutaigne في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، إذ كان - مع ضيقه بالتقاليد وبغضه لكل سلطة تقيد العقل - كاثوليكياً وفيأ لدينه القديم ، غير ميال إلى اضطهاد الدين الجديد ، و « مقالاته » ، وإن بشرت بالمذهب العقلي ، قد جهرت بالكاثوليسكية الأرثوذكسية التي كان في الواقع مخلصاً لعقائدها ، ولم يحاول التوفيق بين هاتين الوجهتين من النظر ، بل إنه لزم الموقف الشكى الذي لا يرى إمكان التوفيق بين العقل والدين ، لأن العقل الإنساني قاصر في ميدان اللاهوت ، ومن أجل هذا وجب إبعاد الدين عن تدخل هذا العقل الذى يقصر دون بلوغه ، لكي يقبل الناس على اعتناقه من غير جدل ، وقد اعتنق « مونتاني » المسيحية لأسباب شكية ، كانت خليفة بأن تغريه باعتناق الإسلام ، لو قدر له أن يولد في القاهرة مثلاً ، والذين شككوا عقليته واستبدوا بهواه ، هم الفلاسفة القدامى من أمثال شيشرون وسنكا وبلوتارك ، وإلهم - لا إلى المسيحية - كان يرجع إذا عرض للبحث في مشكلة الموت وغيرها ، وتصور موقفه من الاضطهاد الدينى هذه العبارة : من المفيد أن يُشوى الناس لمصلحتهم الشخصية (١) .

(١) في تصوير النهضة إجمالاً كتب كثيرة فصلت في تحليل مظاهرها أهمها : بركاردت الألماني ترجمه إلى الإنجليزية S. G. C. Middlemere تحت عنوان .

Burckhardt, Jacob, The Civilization of the Renaissance in Italy

ونشرت الترجمة الانجليزية في طبعين

ولى الفرنسية والاطالية .

وكذلك J. A. Symonds (في سبعة أجزاء) : Renaissance in Italy

أما عن تصوير التنافر بين روح النهضة وروح العصر الوسيط فانظر : استهلال المحاضرة =

بواعث النزاع في هذا العصر :

على أن التهجم على قدسية الكنيسة، والجهر بنقد رجالها والنشهر بآثامهم، والتصريح بحق الفرد في إصدار الأحكام التي يميلها عقله، والخروج على المؤلف من سلطة الدين وسلطة العقل معاً، وإحياء المذاهب الفلسفية القديمة، وتعصب المفكرين لها من غير اكتراث بأرسطو الذي اعتمده الكنيسة وانفرد بالنفوذ قبل هذا العصر، ومجرد قيام المذهب الإنساني، والشغف بالعلم الطبيعي وما تسفر عنه المشاهدة والاختبار من حقائق، ولو خالفت ما قدرته الكنيسة من قبل، كل هذا كان يندرج بإضعاف السلطة الدينية، وإثارة الشك في قدسية رجالها، وكان هذا وحده كفيلاً بإغضاب الأكليروس ودفعه إلى مقاومة الروح الجديد، وهذا لا يمنع من وجود بابوات ورجال دين سايروا روح النهضة إلى أقصاها، لم يكتفوا باطلاق العنان لشهواتهم، بل كلفوا بالعلم وسعوا إلى احترام رجاله، كما كان يفعل غيرهم من الأمراء والحكام ومن إليهم من العلانيين في هذا العصر، ولكن جمهرة رجال الدين كانوا يقاومون الروح الجديد، وينزعون إلى التكنيل بالمتحمسين من رجاله، ويسرفون في الاضطهاد إسرافاً يتمشى طردياً مع عناد خصومهم من رواد الفكر الجديد، وكان هؤلاء قد وطفوا العزم على الدفاع عن مبادئهم والاستشهاد في سبيلها، فكان هذا إنذاراً بما وقع من مأس لطفخت بالدم هذا العصر الآثم .

ولقد كان الأكليروس على حق في الجزع من مظاهر الروح الجديد،

الأول من محاضرات « دانييل باروري » الثلاث التي نشرت في كتاب من الحكيم القديم إلى المواطن الحديث . وقد نقله إلى العربية زميلنا الدكتور محمد مندور (١٩٤٤) وفي تفسير النهضة ولا سيما الفساد الذي نشأ فيها كتاب سدي دارك عن النهضة الأوربية . وقد نقله إلى العربية الأستاذ محمد بدران (١٩٤١) وفي نجاة العقائد المسيحية من نقد العقل لبان النهضة يقرأ مع المصدر السالف : Bury, J. B., A Hist. of Freedom of Thought : الفصل الرابع في تحرر العقل من أسرته .

وحسبنا شاهداً على صحة ما نقول ، ما انتهى إليه شك « مونتاني » الذي أسلفنا الإشارة إلى إخلاصه لدينه ووفائه لتعاليمه ، فإن نتيجة شكه الهدام قد وضحت في تفكير صديقه Charron ، فقد نشر عام ١٦٠١ كتاباً « في الحكمة » ، صرح فيه بأن الأخلاق لا تقوم على الدين ، واستعرض تاريخ المسيحية ليكشف عن السوءات التي نجمت عنها ، وصرح بأن خلود النفس أدنى النظريات إلى معتقدات الناس وأكثرها نفعاً لهم ، ولكنه أقلها صدقاً في نظر العقل الإنساني ، وإن كان قد عدل عن هذا الرأي في طبعة أخرى ، ومن أجل هذا وضعه يسوعى معاصر في ثبت أعظم الملحدین الأشرار خطراً ، ولكنه كان في الواقع من أتباع المذهب الطبيعي الإلهي Deism ، الذي يقر بوجود الله ولكن الناس في عصر النهضة وما بعده ، كانوا يعتبرون غير المسيحيين ملحدین زنادقة ولو آمنوا بالله .. ! ولقد كان كتابه خليقاً بأن يصادر ، وكان هو جديراً بأن يضطهد ، ولكن الملك هنري وقاه شر هذا الاضطهاد — وحسناً فعل ، فإن كتاب « شارون » ينقلنا من جو النهضة الذي يتمثل في مقالات « مونتاني » إلى عصر جديد يعلو فيه نداء المذهب العقلي .

على أن الأكليروس وإن أصاب في التوجس من هذه الحركة الجديدة ، — رغم إبقاء جمهرة دعائها على العقائد الدينية نفسها — فقد أخطأه التوفيق في طرق العمل على اتقائها ، لأنه اعتصم بالشدة ونكّل بأتباعها وسار على جثث المتحمسين منهم ، ولكن تيارها الغلاب قد كتب لها النصر ، لأن الاضطهاد في شتى صوره لا يوقف التقدم ولا يغير مجرى التاريخ ، وإن تكفل بإثارة الفزع في النفوس . بل إن استشهاد هؤلاء الرواد قد مكّن لقضيتهم ، وأشاع بين الناس إيمانهم ، فكان النصر حليفهم .. فلنعرض في إيجاز بعض مظاهر النزاع الذي ثار بين أحرار الفكر ومعسكر خصومهم من رجال الدين .

مفارقة الروح العلمى الجهد فى العالم الكاثوليكى :

اندفع رواد الفكر الحديث جماعات وأفراداً ، لارتداد المجهول من آفاق الحقيقة ، والتبشير بالآراء الجديدة ، ومجاهدة السلطات الكهنوتية بأضاليل العلم القديم الذى اعتمده وأقرت حقائقه ، وكان البحث العلمى الحديث على خلاف ملحوظ مع أساليب التفكير القديم ، علا صوت المشاهدة والتجربة عند العلماء ، وأخذ مكان الوحي الذى انقرد بالنفوذ قبل ذلك ، فأزعجت هذه الحركة الجديدة رجال الأكلروس ، ووطدوا العزم على تطهير الجو من آثارها ، وتضافر الكاثوليك والبروتستانت على مطاردة أهلها ، وبدت المقاومة رفيقة مع من يستجيب لمطالب الكنيسة ويدعن لأوامرها ، فيوقف مراصلة أبحاثه ، ويكف عن التبشير بالجديد من آرائه ، ثم كانت المقاومة عنيفة دامية مع كل من ركب رأسه وجهر بالعناد من رواد الفكر الحديث ، واستمرت حركة المقاومة قائمة حتى بعد أن قوض عصر النهضة آثار الروح القديم ، وأخذ العصر الحديث يمكن لنفسه على حسابها .

ومن آثار هذه الظاهرة أن John Baptist Porta كان فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، يقوم بأبحاث علمية قيمة - رغم ما صحبها من بدع العهد القديم ، لم يكن يمارس السحر الأسود ، على ما كان معروفاً ، ولا يمكنه كان يزاول السحر الأبيض الذى كان يرمى إلى الكشف عن قوانين الطبيعة ، لتسخيرها لصالح الإنسان ، فكان السباق فى مجال العلم الطبيعى الحديث ، وكان كتابه الذى وضعه عن علم الظواهر الجوية أول بحث علمى فى هذا الموضوع ، ومن المحتمل أن تكون ذات فضل فى اكتشاف المرقب . أما فى الكيمياء فقد كان - فيما يلوح - أول من اهتمدى إلى طريقة تحويل الأكاسيد المعدنية ، فوضع بهذا أساس الكثير من الصناعات التى درت على الإنسانية الخير الوفير ، وهذا بالإضافة إلى أنه بذل جهوداً محمودة فى تحويل الفلسفة الطبيعية من سحر إلى علم واضح ممكن ، فضاقت به السياسة الأكلريكية ،

وسرعان ما انحلت جميعته التي أنشأها لخدمة البحث الطبيعي ، واستدعاه البابا بولص الثالث إلى روما ، وحرّم عليه مواصلة أبحاثه .

ومثل هذا يقال في فرنسا ، إذ عرفت باريس عام ١٦٢٤ طائفة من شبان العلماء المشتغلين بمنهج البحث التجريبي ، الذين انسلخوا عن أرسطو ، ولكن برلمان باريس قد قرر مسوقاً بمساعي رجال الكهنوت تحريم هذه المباحث الكيمائية الجديدة ، وأنذر من لا يذعن لقراره بعقوبات صارمة — فيما يقول هوايت White ، وإن كانت فرنسا — فيما رأى بيورى وروبرتسون — قد عرفت لوناً من الحرية أعوز غيرها من البلاد إذ بدا فيها تسامح نسبي في عهد هنرى الرابع والسكردينال ريشيليو ومازران إلى نحو عام ١٦٦٠ م .

وفي إيطاليا نهض الأكليروس لمقاومة الروح العلى ومطاردة رجاله ، فأكاديمية البحث الطبيعي Academy for the Study of Nature التي أنشأها تليزيو Telesio في نابلى عام ١٥٦٠ أثارت فزع الأكليروس ، فسارع إلى العمل على قمعها ، وأدت حركة المقاومة إلى القضاء على الجهود العلمية المشتركة ، فلم تظهر الجمعيات العلمية في أوروبا إلا بعد مضي ما يقرب من مائة عام ، حين عقدت في لندن اجتماعات أفضت إلى قيام ما سمي بعد ذلك بالجمعية الملكية Royal Society ثم تلتها أكاديمية العلوم في فرنسا وغيرها ، فأثار هذا جزع رجال اللاهوت ، وتملكهم الروع منذ عهد اربان الثامن حتى عصر بيوس التاسع — (أواخر القرن التاسع عشر) — وسنرى موقف رجال الكهنوت من الجمعية الملكية عندما نعرض للحديث على موقف العالم البروتستانتى — وقد استمرت مقاومة العلم الجديد في إيطاليا حتى بعد أن ضعف الاعتقاد في السحر ضعفا ملحوظاً ، وليس أدل على هذا من العنت الذى لقيته في فلورنسا أكاديمية « دل شيمنتو » التي عقدت أولى جلساتها في فلورنسا عام ١٦٥٧ تحت رئاسة الأمير ليوبولد دى مدتشى ، وكانت تضم الممتازين من أهل البحث العلى الذين اتخذوا شعارهم « دحض كل مذهب

فلسفي وإن كان حبيباً إلى النفس ، وضرورة البحث في ظواهر الطبيعة في ضوء التجربة وحدها ، واستغرتهم الحماسة في التزام هذا الشعار ، وكان لأبحاثهم أطيب الثمرات ، وحسبنا أن نشير إلى « بوريلي » Borelli في الرياضيات و« ريدي » Redi في التاريخ الطبيعي ، وكثيرين ممن ساهموا في البحث العلمي الصحيح ، ووسعوا من نطاق المعرفة الصادقة فعرضوا لدراسة الحرارة والضوء والمخاططيسية والسكرهباء وعلاقة المقدوفات بالجاذبية وعمليات الهضم وعدم إمكانية انضغاط الماء والتزموا في بحثهم المنهج العلمي الصحيح ، فكانت الأكاديمية على يدهم حصناً منيعاً للعلم الجديد . ولكن رجال اللاهوت قد ضاقوا بها فضربوا عليها حصارهم ، وأعلنوا اتهام الأعضاء بالهرطقة والادينية ، وقدموا لرئيسها قبعة السكردينالية ثمناً لخذلانها وخيانة مبادئها ، واستدعى هذا الرئيس إلى روما ، ولكن القلعة قد قاومت خصومها عشر سنوات طوال ، سقطت بعدها ، وخر أعضاؤها صرعى من عناء الجهاد ، فاضطهد Borelli « بوريلي » وحورب في رزقه حتى اضطر إلى التسول ، وأكره « أوليفا » Oliva على أن ينتحر فراراً من عذاب محكمة التفتيش^(١) .

ومثل هذا يقال فيما لقيته أكاديمية Lincei من ألوان الاضطهاد ، كان البابا إربان الثامن يتولى رعايتها ، وكانت تضم طائفة من أهل البحث العلمي الجديد ، فتحرى البابا شل حركتها وإعاقة أعمالها ، وواصل سياسة التضييق عليها البابا جريجورى السادس عشر - فيما يقول Carutti .

ولم تكن أساليب الوحشية التي اتخذتها السلطات الكنسية في التنكيل بأعضاء أكاديمية دل شيمنتو ، مثار الدهشة ، فقد سجل التاريخ قبل ذلك مثل

(١) انظر في أكاديمية دل شيمنتو هوابت من ٣٩٣ ، ٤١ ج ١ ثم Florentine Hist. vol. v. p. 495 وكذلك Henri Martin, Histoire de France ثم Jevous, Principles of Science vol. II p. 36-40 وعن أهمية أبحاث Borelli في نظر نيوتن و Huggens انظر Brewster, Life of Sir Isaac Newton لندن ٨٧٥ من ١٢٨ - ١٣٩ ويقول Libri في Essai sur Galilée من ٢٧ إن أوليفا قد استدعى إلى روما وتولت محكمة التفتيش تعذيبه حتى اضطر إلى الانتحار لكي يتخلص من هذا العذاب ، بالقاء نفسه من النافذة ا

هذه الوحشية في مأساة De Dominis ومصراع جيوردانو برونو ، فأما الأول فكان رئيساً لأساقفة Spaltra ، وقد ألفت محكمة التفتيش القبض عليه مهتماً بهرطقة العلم وغيره ، وألقت به في غياهب السجن ، حيث وافته منيته ، فأحرقت جثته مع كتاباته التي خلفها على مرأى من الجماهير .

وبعد ثمانية أعوام من مأساته كان مصراع برونو عام ١٦٠٠م ، الذي نادى بمذهب كوبرنيكوس الذي اشترك في إنكاره الكاثوليك والروتستانت على السواء ، ومضى إلى أبعد من هذا فاعتبر النجوم الثابتة شمساً لكل منها أقداره التي تدور حولها ولا تراها العيون ، وسائر رأى القائلين بالنشوء المعرضين عن ثبات الأنواع ، وإن تحرى الإبهام في حديثه ، وكان أول من مهد للرأى السديمي الحديث ، وقد حاول أن يوفق بين آرائه وتعاليم الإنجيل ، ولكن لم يكن من الميسور لمن اعتمق هذه الآراء وأذاعها في الناس أن يطيب له مقام ، فغادر إيطاليا حين حامت حوله شبهات الهرطقة ، وحط رحاله في سويسرة ثم لم يلبث أن غادرها إلى فرنسا ، فأنجلترا فألمانيا ، شريداً طريداً لا يحط رحاله في بلد حتى يغادره إلى غيره ، وفي عام ١٥٩٢ أغراه صديق خداع بالعودة إلى البندقية ، فلما استقر بها أمرت محكمة التفتيش بإلقاء القبض عليه ، واسكنه عاند وكابر ، فزجت به إلى السجن في روما ستة أعوام أقام فيها على عناده ، فقضت المحكمة بقتله دون أن تراق قطرة من دمه ، فأحرقت جثته عام ١٦٠٠ م على الكامپو دي فيوري Campo de Fiori ، وذرروا في الريح ما تخلف عنها من رماد ، وبعد مضي ثلاثة قرون من الزمان ، انعقد الرأى عند جمهرة من المفكرين على أن يكفروا عن هذه الجريمة ، بإقامة تمثال له ينصب في نفس المكان الذي شهد إحراق جثته^(١) .

كان هذا في روما ، أما في فلورنسا ، فقد أعدم ساثونارولا بقرار من

(١) أنظر لتوسع في ذلك Vie de Jordano Bruno باريس ١٨٩٦ ج ١ ص ١٢١

و ٢١٢ وما بعدها .

البابا اسكندر الخامس ، مع إخلاص هذا الشهيد للعقيدة الكاثوليكية ،
وتوقيره للركن البابوي وحرصه على حرفية النصوص المقدسة ، ولكن
تهجمه على أشخاص البابوات ، وقيامه بدور سياسي ، مكن خصومه من
التضافر عليه والنجاح في شقه ، ولو عاش في العصر الحديث لارتفع إلى
مصاف القديسين^(١) .

وفي تولوز حوكم العالم الطلياني Lucilio Vanini عام ١٦١٩ ؛ وأدين من جراء
آرائه الجديدة ، كقوله بالتطور من أدنى الكائنات إلى أعلاها ، فزق لسانه ، وأعدم
حرراً ، أما في بادوا فقد أشرنا في الفصل السالف إلى أن الفلسفة الأرسطاطاليسية
- الرشدية - قد هاجرت إليها من باريس حين اضطهد الداعون إليها ،
وعاشت في بادوا في ظل الحرية التي كفلها مجلس الشيوخ في البندقية ، ومنها
شاعت في كلية بولونيا بوجه خاص ، وفي البندقية وغيرها ، وبلغ من شيوع
هذه الفلسفة أن أصبح الناس يتغامزون بتشيعهم لها ، وغلب صاحبها
- ابن رشد - فيلسوف الإسلام ابن سينا في القرن الرابع عشر ، وأصبح
صاحب النفوذ المطلق في منتصف القرن الخامس عشر ، ثم أضحي عاملاً
حياً في التفكير الأوربي حتى القرن السابع عشر ، وتكفلت الحرية بإظهار
طائفة من المشتغلين بالفلسفة اعتنقت اللادينية ، وفاخرت بالمروق من
العقيدة ، فنشأت حملات بترارك + ١٣٧٤ ومن جرى مجراه في مهاجمة
الفلسفة الإسلامية والدعوة إلى الرجوع إلى فلسفة اليونان والرومان ،
وتحققت هذه الدعوة إبان هذا العصر فبدأت بادوا بتدريس النص اليوناني
لفلسفة أرسطو في الرابع من شهر ابريل ١٤٩٧ م وبدأ عهد جديد في بادوا
والبندقية وشمال إيطاليا ، ودعت فلورنسا إلى نص أفلاطون اليوناني ، حتى

(١) أنظر Villuri, Life of Savonarola وإشارة Bury ص ٤٣ و White ج ٢

إذا ظهر البروتستانت شاركوأ خصوم ابن رشد إلى أن أقبل القرن السابع عشر وبدأت فلسفة حديثة لاهي يونانية ولاهي إسلامية ، وخفت النزاع بصدد هذه المشكلة .

ولسكن مشكلة البحث في خلود النفس وفنائها ، كانت مشار الجدل في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن التالي ، إذ نهض بومبنازى Pomponazzi ١٤٦٩ - ١٥٢٥ في بادوا وصرح بأننا لانجد دليلاً عقلياً يشهد بخلود النفس ، ورأى أن الخلود المسلم به هو خلود النوع الإنساني ، ومضى إلى أبعد من هذا فأعلن أن المعجزات والحوارق لاتتمشى مع المؤلف من الظواهر الطبيعية ، وأسرف في هذه النزعة حتى انتهى إلى إنكار أصول الدين ، ولسكن هذه الدعوة قد ناهضها أشيليني الذي كان من زعماء المذهب الرشدى ، واستطار الجدل بينهما حتى أصبح يتداعى ذكره مع ذكر بادوا ، ولما استفحل أمر الجدل وفشا شره ، انعقد بجمع لاتران عام ١٥١٣ وقرر حرم القول بفناء النفس ، وبأنها واحدة في الناس ، وأنذر بمعاقة من يبشر بذلك (١).

هذا بعض ما كان في العالم الكاثوليكي ، فما موقف العالم البروتستانتى من الروح العلى الجديد :

مقاومة العالم البروتستانتى :

عداء البروتستانتية للعلم الجديد ، يشبه عداء الكاثوليكية في نوعه ، وإن كان أقل في درجته ، وقد كانت السلطة إذا تهيأت للصلحين الذين انشقوا على الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، لوئت أيديهم بالدماء ، وخضبت تاريخهم

(١) اقرأ Topnard, Elements d'Anthropologie من ص ٥٢ وانظر إشارة هوايت ج ١ ص ٢٨٨ وبيورى ص ٨٥ أما عن الجزء الخامس بابن رشد في بادوا فنقرأ فرح انطون في ابن رشد وفلسفته ولاسياس ٧٦ - ٨١ ثم تراث الإسلام في ترجمتي لفصل الفلسفة والإلهيات من ص ٣٠٥ ج ١ وكتاب روبرتسون J. M. Robertson في تاريخ حرية التفكير .

بأفطع الجرائم وأبشعها ، وليس أدل على هذا من مصرع « سرفيتوس » على يد كلثن الذي تمكن من إقامة حكومة في جنيف ، جمع فيها السلطة الزمنية مع الروحية — على نحو ما ذكرنا عند الكلام على الحركة البروتستانتية في الفصل الذي عقدناه على « حرية النظر العقلي » .

وبنفس هذه الروح قاومت إنجلترا البروتستانتية الحركة العلمية الجديدة ، وتجلت المقاومة في عدائها للجمعية الملكية ، والمجمع البريطاني لتقدم العلم Association for the Advancement of Science ، وكثيرا اتخذت المقاومة صورة التهجم وتوجيه الحملات إلى العلماء ، وقد شهر الدكتور « ساويث » South العظيم بالجمعية الملكية واتهم أعضاؤها بالهرطقة . ولم تسمح حكومة اليصابات وجيمس الأول بأن تفوقها في الاضطهاد محاكم التفتيش — فيما يقول بيورى — وقد أدانت إنجلترا مفكروا يعدل برونو في سعة شهرته ، هو الشاعر « مارليو » Marlowe الذي عاصر شكسبير ، فطمس هذا ذكر عبقريته ، وبفضله قام الشعر المرسل ، فاتهمته بالإلحاد ، وقدمته للمحاكمة ، فمات أثناء ذلك في سجن دنبي في حانة عام ١٥٩٣ ، ونال العذاب أحد زملائه في التهمة هو الروائي الدراماتست كيد Keyd ، في وقت كانت تقاضى فيه السير « والترالى » من جراء إلحاده ، ولكنه برىء على غير ما كان الحال عند المتهمين من أصحاب الحظ العاثر ، ففي الزويج أحرقت في عهد اليصابات من جراء القول بنظريات لا تسير المسيحية — ثلاثة أو أربعة كان من بينهم فرنسيس كت الذى كان زميلا في جماعة الاحتفال بضيافة المسيح Corpus Christi ، وفي عهد جيمس الأول ، اتهم « ليجيت » B. Legate باعتناق آراء هدامة مثيرة للفساد ، فاستدعاه الملك وكان حريصاً على تحقيق هذه الأمور بنفسه ، واستفسر منه عما إذا كان يقيم الصلاة ليسوع المسيح كل يوم ، فقال المتهم إنه كان يقيمها أيام جهله ، ومنذ سبع سنين تحرر من قيود هذه الجهالة والغفلة ، ولهذا كف منذ ذلك الحين عن إقامة الصلاة !

فركله الملك بقدمه ، وقال له : « أغرب عنى أيها الخسيس ، لن أسمح بان يقال إن امرءاً قطع الصلاة للمسيح سبع سنوات ، وأتيح له دخول قصرى ، وزج بالمتهم إلى السجن فترة من الزمن ، أعلن بعدها زنديقاً لا يقبل صلاحاً ، وصدر الأمر بإحراقه ، ونفذ هذا عام ١٦١١ م . وبعد شهر واحد التهمت النار جسم زميله Lichfield بأمر من أسقف Coventry لاعتناقه آراء ملحدة لا تتمشى مع تعاليم الدين ، ولكن الرأى العام - فيما يظن - قد ضاق بمصرع هذين الرجلين ، إذ لا يعرف تاريخ الاضطهاد من أجل الاحاد في انجلترا بعدهما شهيداً ، وإن كان البيوريتان قد أصدروا - مدفوعين بتعصبهم - أمراً فى عام ١٦٤٨ يقول إن من أنكر التثليث ورفض القول بألوهية المسيح وتنزيل الكتاب المقدس ، فقد عرض نفسه للاعدام ، وأن من اتهم بغير هذا من آراء إلحادية كان السجن مصيره ، ولكن هذا الأمر لم ينفذ بعد .^(١)

هذا بعض ما نرى من مظاهر النزاع فى العالمين الكاثوليكى والبروتستانتى ، والراجح أن اختراع الطباعة فى القرن الرابع عشر قد يسر انتشار الآراء ، فنشط الأكليروس لمراقبة المطبوعات ، وأصدر البابا اسكندر الخامس أمراً بابوياً عام ١٥٠١ ينذر فيه بعقاب من يقدم على طبع شىء لم يصرح بطبعه ، وقرر الملك هنرى الثامن فى فرنسا عقوبة الإعدام جزاء الطبع من غير اذن رسمى ، وأدخلت ألمانيا الرقابة على المطبوعات منذ عام ١٥٢٩ وكانت السكتب لا تطبع فى انجلترا - فى عهد اليبابات . من غير ترخيص ، ولا يرخص بوجود مطابع إلا فى لندن وأكسفورد وكبريدج ، وتتولى الإشراف على شئون المطبوعات محكمة النجمة Star Chamber ، ولم تتخلص الطباعة من هذه القيود إلا فى القرن الماضى .

وقد وضع ملتون Milton عام ١٦٤٤ رسالة عن حرية المطبوعات هى «أرى بوهاجتى كما»

(١) بشأن مقاومة الجمعية اللاسكية فى انجلترا تقرأ White ج ١ ص ٤١ ، ٣٩٤ وما ذكر بعدهذا ملخص عن Bury ص ٨٥ - ٨٦ وقد أخذنا عنه وعن White فى الجزء الأول ولا سيما ص ٤١ ، ٣٩٣ أكثر ما كتبناه عن مقاومة الروح العلمى فى هذا العصر .

عن حرية المطبوعات غير المرخص بها - دافع فيها عن حرية الصحافة دفاعاً حاراً ، يصلح لتأييد حرية التفكير بوجه عام ، وفي هذه الرسالة يقول : إن الرقابة تفضي ، إلى خنق التقدم العلي ، وتعرقل نشاط العقل في إقرار الحق ، وهي تخمد مواهبنا وتقصّر نشاطها على معرفة ماسبق لنا أن عرفناه من قبل ، وتدفعها إلى الركود والتبلد - وهذا بالإضافة إلى أنها تعرقل وتعوق ما يحتمل أن نكتشف عنه من حكمة الدين والدنيا ، لأن المعرفة تتقدم بالتعبير عن الآراء الجديدة ، والحق يتكشف من خلال البحث الحر من كل قيد ، وإذا قدر لنهر الحقيقة أن يتوقف عن التدفق المستمر ، فسرعان ما يتحول إلى بركة آسنة موحلة بالأفكار القديمة المتواترة ، إن الكتب التي يجيزها الرقباء تصلح - فيما يقول باكون - أن تكون « مجرد تعبير عن المناسبات ، وهي لا تساهم في تقدم العلم بنصيب ، إن مانعته من أمر الأمم ذات الرقابة الصارمة ، لا يشهد بأن الرقابة تهذب الأخلاق ؛ أنظر إلى إيطاليا أو أسبانيا هل أصابت إحداهما شيئاً من الأمانة والعفة والحكمة منذ عرفت رقابة محاكم التفتيش على الكتب . ؟ وقد شاد « ملتون ، بحرية الفكر ورفعها فوق الحرية المدنية فقال « أعطى حرية العلم والتعبير والمناقشة وفقاً للضمير ، ذلك أسمي الحريات جميعاً .

مقاور: اوكليمروس أمثأة الفلك الحديث (نظرية دوران الارض)

كانت الثورة العقلية التي استغرقت عصر النهضة ، بشيراً بمقدم العلم الحديث ونذيراً باضمحلال اللاهوت القديم ،^(١) وقد سجل تاريخ الفكر مولد علم الفلك الحديث ، في نفس العام الذي مات فيه أول رواده - كوبرنيكوس + ١٥٤٣

(١) أنظر الفصلين السادس والسابع « كيف كان النزاع بين اللاهوت والعلم ، بصدد طبيعة العالم - في حجم الأرض وشكلها وعمرها وتكوينها وموضوعها وعلاقتها بغيرها من الكواكب ، وأثر رحلات كولومب وماجلان ودي جاما . . . فندأهملنا الحديث عن هذا الموضوع ، واكتفينا بما عرضناه هنا نموذجاً للنزاع الذي نعق بتصويره .

وذلك أن الكنيسة كانت في نظرتها إلى مكان الأرض من سائر الكواكب ،
قد اعتنقت رأى أرسطو - رب العلم في العصر المدرسي ، اذ اعتمدت
الكنيسة مذهبه منذ القرن الثالث عشر - وبطليموس - رب الفلك طوال
العصور الوسطى ، إذ قرر الأول - منذ القرن الرابع قبل الميلاد أن الأرض
من تراب ، وأن هذا الاعتبار يستلزم سكنها في مركز الكون ، ثم جاء
بطليموس في القرن الثاني لميلاد المسيح ، ووضع كتابه المعروف « بالمجسطي »
ودون فيه فروع علم الفلك فبقى المرجع الأساسي إلى القرن السادس عشر ،
وقرر سكن الأرض باعتبارها مركز الكون ، ودوران الشمس وسائر
الكواكب حولها ، واعتنقت الكنيسة هذا الرأى ، وأهملت الرأى المضاد
الذى عرف عند قدماء الفيشاغورية ، إذ افترض هؤلاء أن مركز الكون
يتحتم أن يكون مضيئاً بذاته ، لأن النور يفضل الظلام ، وساكناً لأن السكون
يسمو على الحركة ، وبهذا أبعدوا الأرض عن مركز الكون ، الذى اعتبروه
ناراً غير مرئية حتى جاء أرسطارخوس في القرن الثالث قبل الميلاد وأحل
الشمس مكان النار ، فأقر بهذا الاقتراض الرأى المعتمد في العصر الحديث ،
ولكن صوت أرسطو وبطليموس قد خنق رأيه ، فانطمس حتى انبعث في
القرن السادس عشر على يد كوبرنيكوس ، الذى يقال إنه اطلع على الرأى
القديم في مؤلفات شيشرون .

أما رأى بطليموس فقد كان المذهب الذى اعتنقه الكنيسة طوال العصر
الوسيطة ، إذ أثبت كليمان الإسكندري أنه يتفق مع ظاهر التوراة ويسار
روحها ، وسرعان ما اتصلت الفكرة بتعاليم الإنجيل وقواها أمثال توما
الأكوينى في مؤلفه العظيم « الخلاصة اللاهوتية » وروج له شاعر المسيحية
« دانتى » وغيره ممن استغلوا الفكرة في تبيان العلاقة بين الله والبشر ، وسارت
النظرية موقف الكنيسة من الإنسان الذى كان تاج الخليقة وبطل الرواية
الكونية - فيما يقول ولف - خلق لخدمة الله والاستجابة لأوامره ، كما

خلق الكون لصالح هذا الانسان ، فلا مناص من أن يكون مكانه من الكون مركزه ، لأن هذا يمكنه من خدمة الله وتسخير الكون كله لمصلحته ، كما يقول بطرس لمبارد الأستاذ في جامعة باريس في القرن الثاني عشر . وهذا بالإضافة إلى أن الفداء المسيحي قد تم على هذه الأرض التي يقيم الإنسان على أديمها ، وهكذا توطلدت النظرية « الجيوسنترية » التي نسبت إلى بطلميوس ، وخفت صوت النظرية الهليوسنترية التي بدأ متأخرو الفيثاغورية التبشير بها منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، ولبثت مهملة حتى نزع إلى تأييدها « برونو » الذي استشهد محرراً ، ومكن لها رب الفلك الحديث « كوبرنيكوس » الذي أقر الأرض في مكانها من الكون ، وأثبت بتجاربه الفجة وأدواته الفلكية الأولية أن الأرض تدور دورة مزدوجة ، حول نفسها ، وحول الشمس ، وأن الشمس — لا الأرض — هي مركز الكون ، والسيارات إنما تدور حولها على أبعاد متفاوتة ، فلها همٌّ باذاعة رأيه تردد طويلاً ، إذ كان من أساقفة الكنيسة التي اعتنقت مذهب بطلميوس ، واستعانت به على تأييد النصوص المقدسة ، فأعلن الفكرة الجديدة باعتبارها فرضاً متناقضاً في ظاهره ، أكثر منه مذهباً علمياً في الطبيعة . وبعد ثلاثين عاماً تولى أحد تلامذته — Widmenstadt — تفسيرها أمام كليمان السابع باعتبارها مجرد فرض يدفع إليه حب الاستطلاع ، ثم توارت بعد ذلك ، ولكن كوبرنيكوس قد واصل دراستها ، حتى تأيدت عنده حقيقة لا تقبل شكاً ، ولكن إعلانها على هذا النحو في روما ينذر بسوء المصير ، ولهذا ارتد إلى وطنه في بولنده يائساً ، ولكنه أتم بعد ثلاثين عاماً وضع كتابه « حركات الأجرام السماوية » *Revolutions of the heavenly bodies* الذي كان حذراً فاصلاً بين العلم والانجيل ، وأهداه إلى قدااسة البابا ، ولكنه تردد في نشر الكتاب ثلاثة عشر عاماً ، نجحت بعدها مساعي أصحابه ومريديه ، فاعتزم طبعه وهو واجف القلب قلق النفس ، ثم تردد في مكان طبعه ، لأن روما مقر

الكثلكه ، و « وتبرج » مهد البروتستانتية ، فهما معقل الرجعيين من أعداء كل جديد ، فلجأ إلى نورمبرج وعهد بكتابه إلى أوزياندر Osiander ، ولم يجرؤ هذا الناشر على إذاعة الكتاب من غير مقدمة ، كان وجه الطرافة فيها أنها تنكر على صاحب الكتاب اكتشافه العلمي ، فتزعم أنه فرض خيالي لا مذهب علمي ، وأن من حق عالم الفلك أن يسترسل مع شطحات خياله ، وأن هذا هو شأن كوبرنيكوس في كتابه ، وحققت المقدمة الغرض الذي وضعت من أجله ، ففي الرابع والعشرين من شهر مايو عام ١٥٤٣ تلقى كوبرنيكوس أول نسخة من كتابه ، وهو طريح الفراش يعاني متاعب الشيخوخة في السبعين من عمره ، وأشفق الموت على شيخوخته فعجل باختطافه بعد بضع ساعات من وصول الكتاب إليه ! وحرصت الكنيسة سبعين عاماً على ألا تثير الجدل في أمر هذا الاكتشاف العلمي ، وقعت بأن يخلو من الإشارة إليه الشاهد الذي نصب على قبره ! وحسب الشاهد دعاء يلتمس فيه الغفران ! حتى انقضت على وفاته ثلاثون عاماً ، تمكن بعدها أحد أصدقائه من تسجيل النظرية على شاهد القبر . فلما أيد الرأي جاليليو - بما سنعرف أمره في الفصل التالي - جزعت الكنيسة من هذا الشر الزاحف ، وأمرت بمصادرة الكتاب حتى تصحح آراؤه بحيث تتماشى مع الفكرة القديمة المألوفة ، وسارت البروتستانتية بمختلف فروعها ، من لوثرية وكلفنية وإنجليكانية في هذا التيار نفسه ، فأطلقت غضبها وسلطت شرها على صاحب النظرية ومؤيديه . وأعلنت مستندة إلى النصوص المقدسة مروقه من حظيرة الدين القديم ، وسارت الجامعات حتى أواخر القرن السادس عشر في ركاب هؤلاء الرجعيين ، وصدرت الأوامر إلى أساتذتها بعدم الإشارة إلى مثل هذه النظريات ، على نحو ما أشرنا في الفصل الذي عقدناه على « حرية النظر العقلي » .

وهكذا تكانفت معسكرات الرجعيين ، على مقاومة هذه النظرية ومطاردة دعائها ، ولكن آية الحق لا يطمسها مثل هذا التضيق ، وخصومه لا يستطيعون أن يطفنوا نوره ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

وإذا كان الموت قد أنقذ ، كوبرنيكوس ، من شر ما كان ينتظره ، فإن خصومه لم يتورعوا عن الانتقام منه ميتاً ، إذ بعد وفاته بنحو ثلاثة قرون من الزمان - مايو ١٨٢٩ - اجتمع في وارسو حشد عظيم من الناس ، لإحياء ذكراه ورفع الستار عن تمثال نُسحت من أجله ، وكان المنتظر وقد كان كوبرنيكوس قسيساً برى . معتقده الديني من كل طعن ، وفاضت حياته ورعاً وصلاحاً وتقوى ، أن يؤدي رجال الدين واجههم نحو ذكراه ، وتوقع منظموا الحفلة ذلك ، فسار الحشد إلى الكنيسة ، وانتظر رجال الكهنوت ، وطال الانتظار ساعة لم يظهر فيها أحد منهم ، ولم يكن هذا يبدع لأن كتابه لم يرفع من « فهرست الكتب المحرمة على المؤمنين » إلا بعد خمس سنوات من هذا التاريخ . . . ١ .

ولقد كان الرأي الجديد في القرن السادس عشر ، مثاراً للغضب عند رجال الكهنوت ومن جرى في ركبهم من دعاة العلم السليبي ، فإن « كوبرنيكوس » كان من صفاء النفس أو دقة المنطق بحيث استطاع أن يحدد بانتصار الروح الجديد ، قال له ذات يوم بعض خصومه : إذا صح رأيك ، وجب أن تتكشف الزهرة عن وجه كأوجه القمر ، فلم يجر جواباً ، ولكن - بإيمانه العميق - لاذ برحمة الله ، وقال إنه تعالى كفيلاً بتحقيق ما تقولون ، فلم ينقض على وفاته ثمانية وستون عاماً حتى أثبت مرقب ، جاليليو ، نبوءته (١) .

(١) اصول نظرية كوبرنيكوس في الفيزيائية القديمة . وجوده في كتاب :
Flammarin, Vie de Copernic, وقرأ Hoefler, Hist. de l'astronomie 1873 p. 107 seq
وكذلك : Menzer's trans. of Copernicus' works وبصدد بقاء كتاب كوبرنيكوس
في الفهرست ١ ، عام ١٨٣٥ وعن نبوءته الأخيرة فقرأ Cantu, Histoireun Universelle
ج ١٥ ص ٤٨٣ والمؤلف كاثوليكي روماني علمس وقد أحسن عرض تاريخ النظرية الدكتور
A. D. White اندرو ديكسون هوابت في كتابه القيم A Hist. of the Warfare
of Science with Theology in Christendom . وعليه كان أكبر اعترافنا .

موقف الكنيسة من عمارة الكهنة الأرضية :

ولقصة دوران الأرض بقية تأتي في الفصل التالي ، ولكن الحديث عن هذا الموضوع يتداعى مع موقف الكنيسة من عمارة الأرض في شتى جوانبها ، فقد كان الاعتقاد في عمان الجانب المواجه لموطننا من الأرض ، مشار جدل أدى إلى التشكيل والاضطهاد :

انحدرت هذه الفكرة إلى العالم المسيحي عن اليونان والرومان ، أيدها أمثال شيشرون وبليني ، وأنكرها أمثال أبيقور ولوكريتيوس وبلوتارك ، وسرعان ما تسلمت الفكرة إلى العالم المسيحي وتراوحت بين الإنكار والتأييد ، وذهب بعض القديسين إلى أن الخلاص غير مستحيل على من اعتنق هذا الرأي ، ولكن جمهرة الآباء كانوا على شك في إمكان هذا الخلاص ، وبدا لمنكري الفكرة أن من خطئ الرأي أن يعتقد الإنسان بوجود أناس تعلو مواطئ أقدامهم على رؤوسهم . . . ! وبوجود نباتات وأشجار تنمو ضاربة إلى أسفل ، ومطر وجليد يصيب سطح الأرض من تحت إلى فوق ! أليس هذا ما يترتب على الاعتقاد بأن الوجه المقابل لموطننا من الأرض معمور بالخلائق . . ؟ ولو صح هذا الزعم لوجب أن يمضي المسيح إلى هؤلاء الناس ويقضى مصلوباً من أجل خلاصهم . ! إن التوراة فيما يرى القديس أوغسطين + ٤٣٠ لا تشير إلى مثل هذه السلالة الآدمية ، وكيف يأذن الله بوجودها في هذه البقاع التي لا تيسر لأهلها رؤية المسيح حين يعود فيهبط من السماء إلى الأرض ، إن التبشير بالإنجيل لم يبلغ هذه البقاع التي يزعم أنصار « الانتبيود » أنها معمورة ، لأن المزمور التاسع عشر يقول : « في كل الأرض خرج منطلقهم وإلى أقاصي المسكونة كلماتهم ، ومن هنا أعلن القديس بولص في رسالته إلى الرومانيين أن المبشرين لم يبلغوا هذه الأرض التي زعموا أنها معمورة ، فهذا الزعم اقتراء على القديس بولص والروح القدس ، وإذا قال هذا « أوغسطين ، فقد أنصتت الكنيسة والعالم المسيحي من ورائها ،

واعتقت رأيه ديناً ، فاستقر رأيه عشرة قرون من الزمان ، قلّ من تردد
إبانها في التسليم به ، وحتى الذين اعتقدوا في كروية الأرض من أمثال
إزيدور الأشيلي - في القرن السادس - قد جنحوا عن التسليم بفكرة عمران
جوانب الأرض كلها ، ولكن المفكرين لم يكونوا جميعاً على الرأي اللاهوتي القديم ،
وقد كان في طليعة القائلين بعمران الجوانب كلها ألبير الكبير ، وإن أحاط
حديثه بغموض أدى إلى اعتباره في نظر البعض منكرًا للفكرة ، ولكن
الكنيسة قد اعتقت رأيه « أوغسطين » ولجأت إلى محاكم التفتيش وآلات
التعذيب وسخرتها في مطاردة خصومها عسى أن تتوارى عن الأذهان
فكرتهم ، فهتمت محكمة التفتيش في مطلع القرن الرابع عشر - ١٣١٦ م -
بإعدام الطبيب بطرس البانو أو أبونو كما جرت العادة بتسميته ، ولكن
المنية عاجلته يانفاذه من برائتها ، وامتد الاضطهاد إلى محاربة أحرار الفكر
في أرزاقهم ، فاتهمت في عام ١٣٢٧ العالم الفلكي الذائع الصيت شيكو داسكوبا
Cecco d'Ascoli بالسحر وأقصته عن منصبه كأستاذ في جامعة بولونيا ، ثم
أحرقته حياً في فلورنسا - وكان كلاهما يعتقد بأفكار من بينها عمران الجانب
المواجه لموطننا من الأرض - وخلد هذه المأساة الفنان Oreagna فصور
الشهيد والنار تأكل جسمه ، وعلقت الصورة على جدران Camp. Sants في
مدينة بيزا^(١) .

واستغلت الفكرة اللاهوتية في محاربة « كولبس » والقضاء على مشروع
رحلته في اكتشاف أمريكا ، إذ لجأ - بعد أن أُنِيَ مجلس جنوه أن يزوده
بالمال - إلى ملك البرتغال ، فأحاله إلى مجلس من العلماء رفض مطلبه ، وحقر

(١) انظر مأساة بطرس البانو : Naudé, Hist. des grands hommes :
Montuclé, Hist. des soupçonnés de Magie وفي مأساة شيكودا سكولى اقرأ :
Daunon, Études Historiques vol. VI. p. 320 وكذلك Mathématiques. 1,528
ما عن تصوير الفنان له وهو يحترق في النار فقرأ Renan, Averroes, et l'Averroisme,

من شأنه أسقف Centa ولكن الملك يوحنا الثاني كان مشغولاً باكتشاف المناطق المجهولة ، فأشار عليه أحد الأساقفة بإرسال بعثة دون علم من كولمبس ، ولبت هذا يلتمس تحقيق مشروعه حتى استجابت له ملكة قشتاله ، ولكن أحد رجال الدين قد توجس أول الأمر من هذا المشروع الذى قد يتضمن المروق من الدين ، ولكنه اقتنع بالمشروع وأعان صاحبه على الملك فردنند - زوج ايزابيلا - فأحاله هذا إلى مجلس من العلماء أحموه بنصوص من المزامير وأقوال مستقاة من القديس بولص والقديس أوغسطين ومن إليهما من آباء الكنيسة ، وقيل إن الجدل قد استمر ثلاثة أعوام ثبت بعدها بطلان المشروع الجديد . . . ؟ وهذا على الرغم من أنه - فيما يقول كتاب سيرته - مدين برحلته إلى الروح الدينى ، والتحمس لإذاعة النصرانية فى البقاع التى يقدر لها اكتشافها ، وشاء الله أن تتحقق آمال كولمبس ، وأن يدحض أوهام خصومه ، ولكن الكنيسة برغم هذا قد أصرت على موقفها الذى أنكرت فيه كروية الأرض وأبت التسليم بأن يكون غير موطننا من الأرض معموراً بالخلائق . فلما استدعى البابا اسكندر السادس عام ١٤٥٣ للفصل فى الخلاف الذى نشأ بين أسبانيا والبرتغال من جراء ما تدعيه كل منهما من الحق فى احتلال الأراضى المكتشفة حديثاً ، حسم الخلاف بينهما بجرة قلم ، إذ جر على خريطة العالم خطأ فصل به سطح الأرض من الشمال إلى الجنوب على بعد مائة فرسخ من جزر الأزورس Azores ، للبرتغال كل ما اكتشف شرقه ، ولأسبانيا ما اكتشفت غربه . ولكن أحداث الخلاف لم تقطع ، فاضطر البابا يوليوس الثانى عام ١٥٠٦ إلى أن يغير موضع خط التحديد ، فجعله على بعد ٣٧٠ فرسخاً من جزر داس فيرد Verde - وإن أبقى الخط ممتداً من الشمال إلى الجنوب ، ولكن البرتغاليين قد أدركوا أنهم يستطيعون امتلاك البرازيل لو ساروا شرقاً ، وواصلوا السير طويلاً . . . وعلى الرغم من أن « ماجلان » قد أثبت برحلته

المشهوره — عام ١٥١٩ — كروية الأرض بالطواف حولها ، وشاهد مع رفقاءه الناس الذين يسكنون الجانب المواجه لموطننا من الأرض ، فإن الكنيسة قد لبثت تقاوم هذا الرأى قرنين من الزمان ، حتى أكد صحة الرأى مبشرون طافوا حول العالم للتبشير بالدين المسيحى ، وثبتوا من صحة ما ادعاه خصوم الكنيسة ، فهدأت نائرة النزاع بعد اثني عشر قرناً من الزمان (١) .

فهرس الكتب المحرمة على المؤمنين :

كان اختراع المطبعة إيداناً بانتشار الكتب وتيسير تداولها ، وشيوع النزعات الجاحمة والآراء الهدامة ، وكان هذا كفيلاً بإزعاج المعسكرات الدينية والدوائر المحافظة ، فنشطت الكنيسة فى مراقبة الكتب التى تهدد الإيمان ، وتهجم على العقائد ، وتدفع الناس إلى الاستخفاف بالسلطات الدينية ، والاستهانة بقواعد الآداب ومبادئ الأخلاق ، واضطلعت محكمة التفتيش بفرض رقابتها على المطبوعات ، وأنشأت من أجل هذا سجلاً تدون فيه أسماء الكتب التى تحرم الكنيسة على المؤمنين قراءتها أو حيازتها ! وقد بدأت نواة هذه الرقابة منذ عصور المسيحية الأولى ، إذ نهضت الكنيسة بمقاومة كل ما من شأنه زعزعة الإيمان أو فساد الأخلاق ، وكان من هذا ظهور « *Decretum Gelasianum libris recipiendis non recipiendis* » ونزعت الكنيسة إلى إحراق الكتابات التى تنطوى على الإلحاد وتهدف إلى مخالفة تعاليمها ، وأصدرت من أجل هذا قراراً امبراطورياً ، وسرت هذه الروح

(١) انظر فيما ذكرنا عن كولبس Humboldt, Hist. de la géographie du Nouveau Continent أما عن خط التحديد الذى رسمه البابا اسكندر الثالث فانظر Daunon, Études Historiques vol. II, p. 147 أما عن أثر رحلة ماجلان فانظر Sr. Mortin, Hist. de France vol. XIV p. 395 وكذلك Henri Martin. Hist. de France vol. XIV p. 395. de la Géographie p. 369. وعرض لتاريخ « الانبيود » أى سكان الجزء المواجه لموطننا من الأرض وبيان النزاع بسدده White فى الجزء الأول ص ١٩٢ — ١١٩ فى الفصل الثالث من الباب الثانى . وهو مترجم فى النسخة العربية .

طوال العصر الوسيط ، ثم أقرت جامعة كولونى - قبيل نهاية القرن الخامس عشر - الرقابة على الكتب وأوجبت إجراء فحصها قبل طبعا ، فاستحقت بذلك ثناء البابا سكستوس الرابع وتهانیه ، وكانت موضع تقدير من البابا إنوسنت الثالث (نوفبر ١٤٨٧ م) وفى عهد البابا الإسكندر السادس ، ذهب بهذا القرار إلى مداه مجلس لاتيرن Latern Council ، فقرر معاينة كل ناشر يقدم على طبع كتاب من غير ترخيص من هيئة دينية خاصة بذلك ، وكانت العقوبات التى أقرها تتراوح بين الحرمان ودفء الغرامة ومصادرة الأملاك وإعدام الكتب . وقد قرر « مجلس ترانت » فى اجتماعه الرابع - ١٨ أبريل ١٥٤٦ م - حظر بيع أى كتاب دينى أو امتلاكه متى كان غفلا من اسم صاحبه ، أو غير معتمد من السلطة الدينية المنوطة بذلك . ثم أذيعت قوائم بالكتب التى ترى الكنيسة تحريم قراءتها ، وتولت طبعا الجامعات (١) . ثم أمر البابا بولص الرابع بجمع الديوان المقدس بإعداد ثبت بالكتب المحرمة ، طُبع أول مرة فى عام ١٥٥٧ وأعيد طبعه معدّلا فى مستهل عام ١٥٥٩ ، وكان أول قائمة رومانية رسمية بالكتب المحرمة ، ونُصّ فيها على تحريم هذه الكتب وقرار الحرمان لآهلها ، وقسمت إلى ثلاثة أبواب ، تضمن أولها أسماء المؤلفين الذين أدينوا كتبهم ، وشمل ثانيها كتب هؤلاء المفكرين ، واحتوى ثالثها على أسماء الكتب المحرمة التى صدرت غفلا من أسماء مؤلفيها . . . ثم طبع هذا الثبت معدلا فى يونيه من عام ١٥٦١ . . . وتوالى طبعه من حين إلى حين .

وبمرور الأيام وتغير الظروف الاجتماعية ، كفت السلطات عن تطبيق القواعد التى وضعها فى هذا الصدد « مجلس ترانت » ، والنس الكثيرون من القساوسة إعادة النظر إلى هذا الفهرس ، فلما اعتلى عرش البابوية ليو الثالث

(١) جامعة باريس فى عام ١٥٤٢ وجامعة لوفان Louvain فى عام ١٥٤٦ (ثم ١٥٥٠) وجامعة كولونى والبندقية فى عام ١٥٤٩ ... الخ

الثالث عشر أذاع في الخامس والعشرين من يناير ١٨٩٧ قانوناً من تسعة وأربعين بنداً ، عدل فيها النظام القديم وخفف العقوبات التي فرضت على أحرار الفكر من قبل ، وأذن بنشر الكتب التي لا تمس العقيدة الكاثوليكية ، وصرح بطبع الكتاب المقدس تيسيراً لتفهمه ودراسته ، وترجمة الإنجيل إلى اللغات الدارجة . . . إلى آخر ما ورد في هذه القوانين الجديدة التي تسير روح العصر على قدر الاستطاعة (١) .

كلمة أفيرة :

على هذا كان النزاع بين اللاهوت القديم والفكر الجديد في عصر النهضة ، وقد توجّج مصرع « برونو » عام ١٦٠٠ هذه المرحلة ، التي انقضت في عرف مؤرخي التفكير في نهاية القرن السادس عشر ، فأخذت حركة الاضطراب تتلاشى ، وتضام نفوذ « المسيحية الرومانية » فيما يقول درابر Draper وبدأ الشك الهدام يتحول إلى يقين تجريبي في ميدان العلم ، ونظر رياضي في مجال الفلسفة ، وكفّ المفكرون عن إحياء التراث العقلي القديم ، ونزعوا إلى ابتكار تراث جديد ، وأخذ الاتزان يحل مكان الرعونة التي أصابت مرحلة الانتقال ، فكان هذا إيذاناً بمطلع العصر الحديث ، على أشلاء الذين استشهدوا في سبيل الحقيقة ، والتمسوا من أخلافهم استيفاء الجهاد من أجلها ، حتى تقر ويتوطد أمرها ، وكان العقل قد مكسّن لنفوذه بين الناس ، فازداد إيمانهم به وإذعانهم لمنطقه ، وكان هذا نذيراً بامتداد النزاع أجيالاً طوالاً . . . وهذا ما نراه في حديثنا التالي :

(١) لتوسع في موضوع فهرست الكتب المحرمة اقرأ مقال « بودنهون » A. Bondinon ، دائرة معارف الدين والأخلاق Encyc. of Religion & Ethics ثم كتابه La Nouvelle Législation de l'index (Paris 1899) وكتاب T. Hurley ، Comment on the Present Index Legislation (Doblin 1908) ومادة Index في دائرة المعارف البريطانية .

الفصل السادس

نمو النزعة العقلية في العالم الكاثوليكي

في القرنين السابع عشر والثامن عشر

لمكان الجمع بين التفلسف والدين — سلطان العقل عند ديكارت — سلطان الوحي في فلسفته — غلبة الوحي على العقل — علاقة ديكارت برجال اللاهوت — موقف رجال اللاهوت لإزائه — أثر ديكارت في العصر الذي تلاه — حملة « بابل » المنعقدة على المسيحية — تطور اتجاه الفلسفة في القرن الثامن عشر — حملات ثورات الهدامة السافرة على المسيحية ورجالها — اضطهاد روسو من أجل حملاته على الدين — مقاومة الماديين ورجال الموسوعة المسيحية — تعقيب — « سبينوزا » بين التفلسف والدين — عداة السلطات الدينية اليهودية له — جاليليو ونظرية دوران الأرض — محنة جاليليو ومرآحل اضطهاده — اضطهاد أتباعه بعد مماته .

إمطاد الجمع بين التفلسف والدين :

أوشكت حركة التحرير في عصر النهضة أن تقوض سلطان الدين ، وتعصف بتقاليده ، وتجتاح نفوذ رجاله ، وما أشرق العصر الحديث — في مطلع القرن السابع عشر — حتى انصرف المفكرون عن ابتعاث التراث القديم ، ونزعوا إلى الابتكار والإبداع ، وقدر لهذا العقل الجديد كل نجاح ، فأنشأ فلسفة عقلية جديدة — وإن تحدرت بعض عناصرها عن الماضي البعيد — ومهد لظهور العلم التجريبي الحديث « وبهذا أقر يقين المعرفة — بعد أن دالت دولة الشك الهدام — على نظر عقلي رياضي يتدعم بنيانه ، واستقرام تجريبي تتوطد أركانه ، ومن هنا ظن الذين تخدعهم الظواهر ، وتستخفهم النظرة العاجلة فيسارعون إلى الحكم المبترس ، أن العالم الأوربي قد أخفق في إبداع فلسفة جديدة ، حتى تيسر له التحرر من سيطرة الدين ونفوذ تقاليده !

ولهذا الحكم دلالاته على نهوض الاستقراء التاريخي شاهداً على قيام التعارض بين التدين والتفلسف، وتعذر الإنتاج العقلي الناضج، مع الإيمان بالوحي الديني ومقتضياته، أى أن التفلسف يقتضى الإلحاد، والإيمان يمنع الابتكار! وهذه الفكرة المروّعة مثار ضيق مِمِّض وقلق مُلح عند الكثيرين، ولو كانت صحيحة لأغفلنا أمرها وما حرصنا على تنفيذها وتحريتنا القيام بدحضها، ولكن فى فلسفة القرن الذى تقوم الآن بتاريخه، خير معاون لنا على ما نريد.

ذكرنا فى الفصل الثانى من هذا الكتاب رأى ساتهليلر ولفنجستون وغيرهما بمن ردوا أصالة originality الفلسفة اليونانية إلى استقلالها المطلق عن الدين فى كل صورته، وهذا الرأى لاينبئ فيما يلوح لنا، إمكان الجمع بين التدين الصادق والتفلسف المثمر، من غير تعارض يستلزم القضاء على أحدهما كان روح النهضة على تنافر ملحوظ مع روح العصر الوسيط، لأن حركة البعث قد أعلنت صوت العقل الذى كان قد خبا وسار فى ركاب الوحي إبان العصر الوسيط - على ما عرفنا من قبل، وبدت حركة التحرر من الدين عنيفة واضحة إبان عصر النهضة، ومع هذا التحرر الذى أوغل فيه المفكرون إلى أقصى أماده، لم يستطع مفكرو هذا العصر أن يبدعوا فلسفة جديدة مبتكرة! وظل التفكير الفلسفى طوال هذا العصر نزاعاً إلى إنشاء العلم الطبيعى، ميالاً إلى ابتعاث المذاهب الفلسفية القديمة، أما الفلسفة المبتكرة حقاً، فلم تولد إلا فى مطلع العصر الحديث - فى القرن السابع عشر، الذى اشتد فيه الإيمان بشريعة العقل، مع الإبقاء على قدسية الدين وحرمة تعاليمه...! وكانت فرنسا أصدق مثال للتعبير عن هذه الظاهرة، إذ جدت فى إزالة التنافر الذى كان بين روح العصر الوسيط وروح النهضة، وحاولت أن تقيم التوازن بين مقتضيات الطبيعة وأوضاع الإيمان الدينى، وجمعت بين التسليم الملحوظ بسلطان العقل، والإيمان العميق بوحي المسيحية - فيما يقول پارودى، وكان هذا هو معقد

الطرافة في فلسفة هذا القرن ! ولم يكن تلاقى العقل الفلسفي والإيمان الديني عقيماً مجدباً ، بل تكشف عن إبداع فلسفي خليق بكل إعجاب ، وحسبنا أن نذكر ديكارت وما لبرانش ، لنتبين مبلغ الصدق فيما نقول ، وفي هذا القرن ظهرت محاولات التوفيق بين الدين والفلسفة عند مالبرانش في فرنسا وسينوزا في هولندا ، وجون لوك في إنجلترا ومن هنا كان الجمع بين الدين والفلسف .

وقد كان تلاقى العقل والإيمان خليقاً بأن يصادف هوى من نفوس رجال اللاهوت ، ولكن بعض الفلاسفة الذين تمثلت فيهم هذه الظاهرة ، قد لاقوا من المعسكرات الدينية عتاً شديداً ، وكان ديكارت من هؤلاء ، تمثل فيه انعدام التعارض بين الدين والفلسفة ، وتجلي عنده الإيمان بالدين والحرص على ترضي رجاله ، وتجنب كل ما يثير مكامن الضيق في نفوسهم ، عن وفاء لهم أو اتقاء لشرمهم ، ومع هذا لم ينجح في حياته من اضطهادهم له وتجنّبهم عليه ، ولم تسلم ذكراه بعد مماته من أذى يلحقونه بأثاره ، وهسكدا طاردوه حياً وميتاً . ! فلنعرض لبيان هذا على قدر ما يتسع المقام :

سلطان العقل عند ديكارت :

شاعت الفوضى وفشا الشك الهدام في أوروبا أبان القرن السادس عشر — على ما عرفنا من قبل ، فطاحت سلطة الكنيسة والكتب المقدسة وتداعت سطوة الدين والإيمان ، وانهار نفوذ العلم وضاع سلطان أرسطو ، وانحلت وحدة أوربارو حياً وعقلياً ودينياً وسياسياً فيما يشير أستاذنا A. Koyré وفي هذا الجو ظهر ديكارت ، أبو الفلسفة الحديثة ، فأخذ يحول شك « مونتاني ، Montaigne إلى منهج يستند إلى منطق العقل وينتهي إلى يقين الحقيقة ، ليقيم فوق تلك الأنقاض فلسفة جديدة ، فأخذ يحجر باستبعاد كل سلطة غير سلطة العقل الذي يجعل الحدس intuition المعيار الوحيد لكل حقيقة ، وقد أراد بالعقل القوة التي يتطلبها تمييز الحق من الباطل ، وضمنه مرحلتين هما الحدس

والاستنباط *deduction* والحدس عنده تصورٌ ينشأ في نفس سليمة عن نور فطري طبيعي يمكننا من أدراك الأفكار البسيطة، ويكون في الطبائع البسيطة غير المركبة، ويليه الاستنباط العقلي وهو حركة فكرية يستنبط بها شيء من شيء آخر، وقد أفضى تمسكه بالعقل، بهذا المعنى، إلى تداعي سلطة الكنيسة وانحلال النفوذ الذي تهيأ لأرسطو وبدا ديكارت - عند أمثال تشارلس آدم - ممثلاً للبهزب العقلي في الفلسفة الحديثة.

وقد أكد ديكارت نزوعه العقلي بقواعد منهجه الرياضي، الذي وضعه لاكتشاف الحقيقة في شتى العلوم، إذ جعل قاعدة اليقين أولى قواعده، وفيها أوجب على الباحث ألا يقبل حقيقة على أنها كذلك، إلا إذا بدت أمام عقله الحر المستقل في وضوح وتميز لا يدع للشك مجالاً، وبهذا اتفتت الأحكام التي تحدرت عن السلف، أو تكونت منذ أيام الطفولة، واستبعدت الأفكار التي لم يصل العقل بشأنها إلى يقين كامل، وامتنع التسرع الذي لا يسبقه النظر العقلي المستقل، فأمن بهذا أوهام العلم الذي كان يدرسه ويشعر بما فيه من قصور؛ نشأ عن كثرة بُناته الذين تحدروا عن أجيال متعاقبة (القسم الثاني من المقال) ومن هنا اعتزم النهوض بتجديد العلم واستئناف الفلسفة وكان أحداً قبله لم يفلسف... بالتفكير الحر في نفسه، لأن الحقيقة تتوى في نفوسنا كما تتوى النار في الحجر الصوان، وأول مراحل هذا المشروع الضخم أن يطهر بالشك الإرادي عقله من كل ماحوى من أفكار وما تضمن من معتقدات، ليعرضها على حكم العقل، ولو مرة في حياته، ويستبعد منها كل ما لا يسير شريعته، وبهذا لا يدعن العقل لغير الحقيقة التي يتكشف عنها جهده الحر، ومن هنا كان شكه غير مطلوب لذاته، بل ليسلم إلى يقين المعرفة، وليمكن صاحبه من أن يترك الأرض الرخوة والرملة إلى الصخر أو الصلصال، فيما يقول في مقاله.

وتتبع خطوات منهجه يكشف عن نزعه الرياضية التي هيمنت على

فلسفته في كل مراحلها وخطواتها ، ومن هنا كان أبا المذهب العقلي في الفلسفة الحديثة ، وإليه يدين دعاة هذا المذهب في القرنين التاليين .
هذه هي بعض آيات تمسكه بالعقل الذي رد إليه «سلطانه» بعد أن هدمه شك القرن السالف ، وشاعت هذه النزعة العقلية عند مفكرى هذا القرن جميعاً .

فلنعرض موقفه من الدين ، وعلاقة الوحي بالعقل في فلسفته :

-إيمانه الومى في فلسفته :-

ولكن ديكرت لم يدعن لثورته العقلية حتى نهايتها ، لأن هذا العقل الذى يعتز به ، هبة من الله شارك فيها الناس جميعاً ، بل إنه أعدل ما فى العالم قسمة بين البشر فيما يقول فى مطلع مقاله . ولكن كيف تطمئن للعقل الذى يهبه الله بعد أن أخضعناه لشكنا على نحو ما أبنا من قبل . . ؟ فى الحق إن الإيمان فى الشك لا يمكن صاحبه من أن يشك فى أنه يشك ، والشك محتاج إلى ذات تشك ، ومن هنا ثبت وجود النفس كذات تفكر ، وأضحى هذا أول مبدأ يقينى اهتدى إليه ديكرت بعد شكه المسرف ، فاعتبره مبدأ الفلسفة التى يتحرى إنشاءها ، وسر اليقين فيه وضوحه وتميزه أمام العقل ، ومن هنا كان كل ما بدأ على هذا النحو حقاً لا ريب فيه ، كما يقول فى مقاله وتأملاته ، وأول ما يلزم عن هذا المبدأ تمييز النفس عن الجسم ، وخلودها أى عدم تعرضها للفناء ، وإدراك الإنسان لشكه يفضى إلى إدراك نقصه ، ونقصه هذا مقيس إلى تصور شىء تام الكمال ، ألقاه فى نفسه - تبعاً لمبدأ العلية عنده - كائن مطلق الكمال ، هو الله .

وإذا أثبت ديكرت وجود الله وأوضح صفاته التى تسير كاله المطلق ، علق على هذا كل يقين عقلى ، فربط بهذا بين الدين والفلسفة فى بداية فلسفته ، إذ أن الله عنده واحب الوجود الذى صدرت عنه أفكارنا ، وهو كامل مطلق الكمال ، وهذا يتنافى مع إضافة الخداع إليه ، لأن القدرة على خداع الناس

وإن كانت آية ذكاء، فإن إرادة الخداع لا تصدر إلا عن خبث أو خوف أو ضعف، وحاشا لمطلق الكمال أن يكون كذلك — كما يصرح في مبادئه . وإذا كانت أفكارنا قد صدرت عن الله المزه عن كل خداع، أمكن الاطمئنان إلى العقل وتصديق أحكامه في كل ما يبدو أمامه واضحاً جلياً متميزاً، هكذا كان الله سبحانه اليقين في الاستدلالات والبراهين في الرياضيات والطبيعات على السواء، وبغيره لا يستقيم يقين عقلي ولا عقيدة دينية، ومن هنا أصبح الله مركز التفلسف الديكارتي، ولازمت فكرته الإنسان حتى ليجوز حد الإنسان بأنه الموجود الحاصل على فكرة الله . ولكن أدلة رجال اللاهوت على وجوده لا تصمد للنقد، وأساليبه في الدفاع عن الدين متداعية، لأنهم يعلقون الإيمان بالله على ما تعلمه الكتب المقدسة، ثم يعلقون الإيمان بالكتب المقدسة على افتراض صدورها عن الله، فيقعون بهذا فيما يسميه المناطقة بالدور — كما يقول في خطاب صدر به تأملاته، وهذا بالإضافة إلى فشو الشك والإلحاد بين الفرنسيين في عصره، إلى حد أن أحصى «مرسين» في باريس وحدها خمسين ألف ملحد، ويزيد من خطر هؤلاء إقبال القراء على آثارهم، دون أن تجدى في مقاومتهم جهود أهل السلطة من رجال اللاهوت والبرلمان، ومن أجل هذا كله نهض ديكارت للدفاع عن العقيدة الدينية، والتدليل على وجود الله .

وقد بدا الله في فلسفة ديكارت متمشياً مع تصور الدين له، فهو موجود كامل مطلق الكمال أزلي دائم لا مُتناه، علة لذاته وليس معلولاً لغيره، أبداع الأشياء كلها وعنه صدرت الكمالات والحقائق جميعها . . . إلى آخر الصفات التي تتفق مع صفاته في عرف الدين، وإن كانت فلسفته مع هذا كله ليست دينية تشبه فلسفة العصور الوسطى، إذ اعتمد على الدين وأقام عليه بعض نواحيها ولكنه مضى بها بعد المراحل الأولى مستقلة عن الدين الذي اعتبره مخالفاً لها في طبيعته، ولم يكن يسخر كل فلسفته لخدمة الدين وإقامة دعائمه

بل لعل الأصح أنه اتخذ وجود الله وسيلة للتوصل إلى اليقين العقلي وليس
يعنينا البحث في هذه النقطة، ومناقشة آراء المؤرخين فيها، وحسبنا أن نقول
إنه ضم الطرفين اللذين كانا متتافرين - العقل والوحي - في سمط واحد،
ولم يُضخَّ بأحدهما في سبيل الآخر .

ولكن إذا كان ديكارت قد اعترى بسلطان العقل ، وآمن بسلطان الوحي
على نحو ما أبتنا من قبل ، فماذا يكون الحال إن تعارض العقل مع الإيمان .؟

غلبة الوحي على العقل :

لقد فصل ديكارت في هذه المشكلة فصلا لا يدع مجالاً للشك ، فأعلى
صوت الوحي على صوت العقل ، وإذا كان قد آمن بمنهجه الرياضى كل باطل
سبق إلى علمه ، واستجاب بهذا لنداء العقل وحده ، فإنه قصر شكه عن تناول
العقيدة الدينية ، فاستثنى من منهجه القائم على الحدس والاستنباط وحدهما
كل حقائق التنزيل ، لأنه اعتبرها فوق متناول العقل ، وجعل الإيمان بها
من أفعال الإرادة وليس من عمل الذهن ، وبهذا عدل عن الفلسفة العقلية
إلى لاهوت العصور الوسطى - فيما لاحظت دائرة المعارف البريطانية -
وأصبح ميدان العقل لا يتجاوز الحقائق الفلسفية ، أما الحقائق الدينية التي
تهدى إلى الجنة - فيما يقول في القسم الأول من مقاله ، فإنها فوق متناول
العقل ، وليس من الحكمة أن نسلها إلى ضعف استدلالنا العقلية ، لأن
البحث فيها لا يكون إلا بمدد غير عادي من السماء ، أى بوحي ينزله الله على
من يصطفيه من عباده فيرتفع بهم دفعة واحدة إلى عقيدة معصومة من كل
خطأ ، ولهذا لاحظ « جليسون ، أن ديكارت وإن كان قد أعلى صوت العقل
في أولى قواعد منهجه في المقال على ما عرفنا من قبل ، فإنه صرح في « مبادئ »
الفلسفة « بأن كل ما أوحى به الله أو ثق بكثير من كل ما عداه ، وبهذا شابه
القديس توما الأكويتي ومن جرى مجراه من الفلاسفة الدينيين ، في قصور
العقل مستسلماً لسلطان الوحي .

ولم يكن هذا غريباً على ديكرت الذي دان بتعاليم الدين وتقاليده منذ صغره ، وحرص على ترضي رجال الدين حرصاً شانه عن بعض مؤرخيه ، ومن مظاهر مجاراته للتقاليد الدينية أنه حين اكتشف «قواعد» علم جدير بالإعجاب في ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ ، نذر الحج إلى أحب مكان عند الكاثوليك ، وهو كنيسة العذراء في لوريت بايطاليا ليقم الصلاة لله وللعذراء شكراً على توفيقه في اكتشافه ! أما مسلكه بوجه عام وإزاء رجال الدين بوجه خاص ، فيقتضى أن نقول فيه كلمة :

عقيدة ريطرت برجال المراهوت :

كان شعاره : عاش سعيداً من أحسن التخفي - كما كان يفعل أبيقور
قديماً ، ومن هنا تحرى أن ينشر كتبه - كالمقال - غفلاً من أسمه ، وتوخى
أن يتجنب الكتابة في الشئون السياسية وكل ما يفضي إلى إثارة القلاقل
وهو يردّ حرصه على العيش في جو من الهدوء والطمأنينة إلى الرغبة في
مواصلة البحث - كما يقول في خطابه إلى صديقه «مرسين» وكان إلى جانب
هذا يطمع في أن تأخذ فلسفته مكان الفلسفة الأرسطاطاليسيه في مدارس
العالم المسيحي ، ولن يكون هذا إلا إذا اعتمدها رجال الكنيسة ، وكان من
بين هؤلاء من تربطه بهم صلات مودة وصدقة ، وهذا بالإضافة إلى خوفه
من محاكم التفتيش التي كانت لا تزال ترّوع العالم الأوربي في عصره ، ولهذا
كان يؤثر حبس آرائه على نشرها متى بدت مثاراً للشك ومدعاة للقلق ، فن
ذلك أن منهجه أداه إلى نفس النتائج التي انتهى إليها جاليليو بصدد دوران
الأرض . ولكن أبناء إدانة الفلكي الكبير قد ترامت إلى سمعه ، فأثارت
فرعه ، حتى أعلن أن الشكوك قد ساورتها في أصول فلسفته ، لأن دوران
الأرض إن صح بطلانه تداعت أصول فلسفته كلها ، ومع إيمانه بأن القول
بدوران الأرض لا يتنافى مع الدين ، كاد يقدم على إحراق كتابه «العالم»
الذي ضمنه هذا الرأي ، لأنه لا يريد أن تصدر عنه كلمة واحدة لا تعتمدها

الكنيسة! ويوثر حسب الرأي على إظهاره مشوهاً - كما يقول في خطاب إلى صديقه مرسين ، بل يؤكد هذا النزوع الوديع في مقاله ، فيصرح بأن لرجال محكمة التفتيش من السلطة على أعماله ما لعقله من السلطة على أفكاره . . ! ومن هنا جاء الغموض الذي أحاط به حديثه عندما عرض لتأييد دوران الأرض في « مبادئ الفلسفة » ، بل أفضى به ترصّي الكنيسة إلى أن يغمط جاليليو فضله عليه ، إذ يدين له ببعض ما انتهى إليه من أسس العلم والفلسفة ، بل من التزام مناهج علمية في تفكيره في سن مبكرة ، لأن من العسير أن نعتبر تطور عقله كما بدا في المقال عام ١٦٣٧ مجرد سيرة حياته - فيما يقول روبرتسون Robertson ، ويصرح هنرى مور H. Mor بأن طبيعياته قد أفسدها خوفه من الكنيسة ، كما أثار سجن جاليليو جزعه .

ومن دلالات حرصه على علاقاته برجال الكهنوت ، سعيه لاعتماد مؤلفاته منهم ، وقد بدا هذا المسعى مع اليسوعيين في « مبادئ الفلسفة » عام ١٦٤٤ كما أعلن على غلاف التأملات في طبيعته الأولى إقرار رجال الدين له ، بل إن إسرافه في الحرص على ترضي رجال الدين قد أفضى ببعض مؤرخيه من أمثال M. Lero إلى اتهامه بالنفاق والرياء ، وإثارة الشك في صدق تدينه . . ! فما موقف رجال الدين منه ومن آثاره بعد هذا كله . . ؟

موقف رجال اللاهوت الزاده :

ومن الغريب أن إخلاصه للكثلكة وإيمانه العميق بالمسيحية فيما يقول مؤرخوه وجهوده الطيبة في تأييد عقائدها ومسيرة تقاليدها واحترام رجالها وتجنب إثارتهم ، لم يتكفل بنجاته من اتهامهم له بالإلحاد . لم يتمكن من تحويلهم عن أرسطو ، أو اتقاء سوء تأويلهم لبعض نواحي فلسفته ، ومن أجل هذا تضافر الكاثوليك والبروتستانت على اضطهاده حيا وميتا . . ! وقد كان روح العصر بما تضمن من تمسك الكنيسة بأرسطو مبررا لهذا الاضطهاد ، فقد عقد شبان العلماء اجتماعات في باريس لنقد طبيعيات أرسطو

والانتصار لنظرية الجوهر الفرد؛ فصرح رجال الدين بطلان هذا الرأي، ومخالفته لعقيدة العشاء الرباني عند الكاثوليك، وسرعان ما أصدرت الحكومة أمرها بإخلاء المكان بعد أن ضم نحو ألف مستمع، ونفى منظمه خارج باريس! وأعلن البرلمان بطلان كل رأى لايسير الآراء القديمة وأنذرياعدام كل من خرج على أرسطو والسكنيسة. . .!

تتلذذ ديكارت على اليسوعيين ودان بمبادئهم، وتأثر بالأفلاطونية المحدثة التي اعتنقها الأوراتور، وقد رد بعض مؤرخيه إلى هذا اتفاق فلسفته مع أسرار الدين، ولكن اليسوعيين قد ضاقوا به، لأنه هاجم الفلسفة المشائية التي كانوا يدينون بها في مدارسهم، وزاد في ضيقهم أن الجانسينست (Les jansénists) إحدى الطوائف الدينية التي عاشت في فرنسا وتولت العمل على تهذيب النشء) قد اعتنقوا مذهب ديكارت وهاجموا اليسوعيين، فزاد هذا من غضب هؤلاء على ديكارت — وإن كان له أتباع من بينهم. وكان مرجع اتهامهم له بالهرطقة إلى تنافي آرائه مع العشاء الرباني، ولم يقنعهم دفاعه عن نفسه، رغم أن أتباعه المتدينين قد حصلوا من الملكة كريستينا Christina على تصريح أعلنت فيه أن لديكارت فضلا عظيما في ردها إلى العقيدة الكاثوليكية^(١).

وقد صادف مقالته على المنهج، نجاحا هيمنا على التفكير الفرنسي كله، واجتذب إلى دراسته سيدات الطبقة المترفة في فرنسا، فيما يقول روبرتسون وغيره من المؤرخين^(٢) ولكن أحد آباء اليسوعيين (Bourdin) قد حاول أن يحمل الأكليروس الفرنسي على المسارعة إلى إدانته في غير تباطؤ، بيد أن محاولته قد فشلت لأن فرنسا، برغم كل ما أسلفناه عنها، كانت أعظم بقاع

(١) Bouillier Hist. de la philos. Cartésienne, 449—50 (عن روبرتسون)

ج ٢ ص ١٢١ .

(٢) مثل Bouillier ج ١ ص ٤١٠ وما بعدها و Lanson في تاريخ الأدب الفرنسي

و Brunatiere في دراسات نقدية . الخ ما ذكره روبرتسون ج ٢ ص ١٢١

العالم الأوربي نزوعاً الى حرية التفكير يومذاك فيما يقول الكثيرون من المؤرخين .

أما عن موقف البروتستانت في حياته ، فقد بدأ حين استقر في هولنده ليكون بمنأى عن معارفه وأصدقائه ، عسى أن تمكنه عزلته من القيام بتجديد الفلسفة كما يشير في مقاله ، وكانت هولنده على تسامح ملحوظ مكنها من طبع مالا يتاح طبعه من الكتب في غيرها من البلاد الأوربية ، ومع هذا ضاق به رجال الكهنوت ، وحاولوا ان يوقعوه تحت آلات التعذيب بتهمة الإلحاد فيما يقول هويت A. D. White^(١) وقد اهتمت بفلسفته جامعه أوترخت منذ نشأتها عام ١٦٣٤ ، فثارت بها مناظرة فيها تأييد لمذهبه وهجوم عليه ، وتولى الهجوم عميدها الذي رفع آخر الأمر قضية على ديكرت ، وأحس الفيلسوف بأنه مهدد بالنفي والغرامة وإعدام كتبه ، فطلب الى سفير فرنسا أن يتدخل لحل هذا الاشكال . وتكررت مثل هذه المناظرة في ليدن ، ولكن السفير الفرنسي كان يتوسط لفضها حتى صدرت الأوامر الى أساتذة ليدن بعدم التعرض للحديث عن ديكرت بخير أو شر !

هذا مالقيه ديكرت من عنت رجال الدين أثناء حياته ولعل هذا كله هو الذي حمل « هويت » White على أن يقول مبالغاً في تصوير هذا العنت ، إن جور رجال اللاهوت منذ عصر روجر بيكون — في القرن الثالث عشر — لم ينل بالإذلال والامتهان أحداً مثل ديكرت !

فلها مات ديكرت طارد خصومه ذكراه وتعقبوا آثاره ونجحوا بعد ثلاثة عشر عاماً من وفاته (عام ١٦٦٣) في وضع مؤلفاته في فهرست الكتب التي حرمت قراءتها على المؤمنين . . . وفي سنة ١٦٨١ صدر أمر ملكي يحرم تدريس فلسفة ديكرت في الجامعات الفرنسية كلها^(٢) . . . واضطهد الأساتذة

Vol. I. b 185 (١)

Boullier P. 356 & Robertou vol 2 P 124 (٢)

والقساوسة الديكارتيون وصدرت الأوامر بنفيهم أو إكراههم على إنكار فلسفته ، وكان من ضحايا هذا الاضطهاد الأب Lami عضو مجمع الأوراتورى (وكانت جماعة الأوراتوريان من بين الطوائف الدينية التي اعتنقت المذهب الديكارتي لما وجدته فيه من تشابه بمذهب القديس أوغسطين والأب André اليسوعى ^(١) وأكره أعضاء الأوراتور Oratorains عام ١٦٧٨ على إنكار فلسفته ، والتصريح بعدولهم عن أقوالهم الديكارتيه السالفة واحتفاظاً بمبادئهم .

هذا ما لقيه فيلسوفنا من عنت حياً وميتاً ، بعد أن استفرخ وسعه في السير بالفلسفة العقلية مع الوحي الديني جنباً إلى جنب — في بدايتها — واستنفد جهده في الإبقاء على الدين بعيداً عن نقد العقل ، وبعد ما أبدى من حرص في إظهار ولائه واحترامه لرجال الدين ، ولهذا يتساءل بعض مؤرخيه عما كان يريد منه هؤلاء حتى يرضوا عنه ويباركوا آثاره . ؟ قد لا يعدمون في أقواله ما لا يسير تصورهم الساذج للدين وتعاليمه ، ولكن ألا يكفي في غفران ماأخذه عندهم هذا الصرح الشاخ من الخاق العبرى الممتاز ، الذي أقامه من لبنات من عقل ودين ، في عصر فشا فيه الإلحاد وعز الإيمان . ؟ إن فلسفته كنز ، ثروة للدين من حيث إن المطلع عليها يستخلص منها إمكان قيام الإنتاج العقلي الناضج ، مع الإيمان العميق بالعقيدة الدينية ، وهذه مأثرة ينبغي أن يكبر لها رجال كل دين في كل زمان ومكان ، لأن فيها رداً على الاتهام الذي وجه إلى الأديان جميعاً ، من حيث إنها تعوق النظر الحر ، وتعرقل قيام الإنتاج العقلي الناضج ، ولكن رجال السكهنوت — من بروستانت وكاثوليك — قد كافتوا ديكارت على هذه المآثر باضطهاده ووضع آثاره في القهرست ، ليحرموا قراءتها على المؤمنين !

على أن من الإنصاف لرجال الدين أن نقول إنهم يحكم مهنتهم وانسياقاً

مع وفائهم لعقيدتهم ، مطالبون بالدفاع عن كل ما يدخل في تصورهم من تعاليم الدين وتقاليده ، ووقايته من كل شر يحتمل أن يتهده .

أثر ديكارت في العصر الذي نراه :

وإذا كان ديكارت قد قصد خيراً ، والتزم الحيطة فيما يكتب ، وخذت من طلاقة العقل وجوحه ، وأعلن ضرورة الاستسلام للدين وتقاليده ، فإن ما قصده شيء ، ومنطق مذهبه وتنتاج دعوته عند أتباعه شيء آخر . وقد شاعت فلسفته في أوروبا كلها واجتذبت إليها الكثيرين من أهل العقل والأدب والدين معاً ، وأضحيت فلسفة العصر كله ، وإذا كانت فلسفة القرن السابع عشر في فرنسا - كما تبدو عند ما لبرانش قد ظلت مع تشيعها لمنطق العقل - على ولاء للدين ووجيه ، فإن القرن الثامن عشر كان ويلا على الدين ورجاله ، لأن العقليين قد استخفهم منطق العقل ، فانطلقوا إلى الوحي والكتب المقدسة وانهالوا عليها طعناً وتهكماً وتفنيداً ، وكان في طليعة هؤلاء رجال الأنسيكلوبيديا من ديدرو وفولتير ممن سنعرض للحديث عنهم فيما بعد ، وما من شك في أن نزعة ديكارت العقلية وقواعد منهجه الرياضي أثرها في هذا التطرف الذي حمل أصحابه إلى الآفاق التي حذر من ارتيادها ديكارت ، يقول Lévy Bruhl في معرض حديثه عن تطرف بعض الفلاسفة في مناهضة الدين ومعاذاة تعاليمه ، ومقاومة النظم الاجتماعية القائمة إبان القرن الثامن عشر : إن مبادئ ديكارت تحمل نصيباً موفوراً في تكوين فلسفة تختلف مع فلسفته اختلافا ملحوظا . وما قيل عن فرنسا إبان القرن الثامن عشر يمكن إطلاقه بشيء من التجاوز عن غيرها من بلاد العالم الأوربي بعد ذلك ، ولهذا وجب أن تلين نظرنا إلى موقف رجال الدين من ديكارت (١) .

(١) مصادر في تصوير الجو العقلي والديني عند ديكارت :

Descartes :

Discours de la Méthode (texte et commentaire par E. Gilson) ==

محمد بايل المفضلة على المسيحية^(١) :

لم يكن بد بعد عنت رجال اللاهوت ، من أن يتخفى أحرار الفكر في كتاباتهم ، اتقاء لشر خصومهم ، ويمثل هذه التقية ، مفكر فرنسي بروتستانتي كان له نصيب موفور في تقدم المذهب العقلي في فرنسا ، هو «بايل» P. Bayle + ١٧٠٦ وقد أبعدهن فرنسا فلجأ إلى هولندة - كما لجأ ديكارت - وتصدى لمقاومة رجال اللاهوت الذين تحروا اضطهاد الأحرار استناداً إلى الآية الانجيلية التي تقول : أجبروهم على اعتناق دينكم ، واعتماداً على أقول القديس أوغسطين في هذا الصدد ، فنكتب «بايل» دفاعه عن التسامح وتعليقات فلسفية على آية أجبروهم ... ، ونشر الكتاب عام ١٦٨٦ ، أي في نفس الوقت الذي صدر فيه كتاب «لوك» Locke في هذا الصدد ، وكان على اتفاق مع هذا الفيلسوف الانجليزي في الكثير من اتجاهاته وأدلته ، منها تقوية النزعة العقلية بإلزام السلطة الدينية حدها ، واستقاء المعرفة من معين التجربة ،

== وقد ترجمه وقدم له زميلنا الاستاذ محمود الحصري

Les Principes de philosophie

واقراً عن ديكارت :

Oeuvres de Descartes ed. by Ch. Adam ? P. Tannery

ديكارت : لزميلنا الدكتور عثمان أمين

A. Koyré, Trois Leçons sur Descartes

ألفاها بامم كلية الآداب في الجمعية الجغرافية بالقاهرة ونشرتها الكلية مع ترجمتها العربية

لزميلنا الأستاذ يوسف كرم عام ١٩٣٧ .

Ch. Adam, Vie et Oeuvres de Descartes, Etude Historique

ملحق بآثار ديكارت التي نشرها آدم وتاناري .

Hamelin, La Système de Descartes

Encyclopædia Britanica art. Descartes by : Abraham Wolf.

Kuno Fischer, Descartes & his school (Eng. tr. by N. Porter)

Haldane, Descartes, his life & times

عن اضهاد رجال الكهوت له عدا ما ورد في بعض المؤلفات السالفة :

Robertson, J. M. A Short History of Free-thought vol. II.

White, A, D, A Hist. of the Warfare of Science with Theology vol. I

(١) أنظر في الجزء التالي «بيوري» و «پارودي» في المصدرين اللذين أسلفنا ذكرهما .

وإن كان «بايل» قد نزع إل تحقيق هذه الغاية عن طريق الاستقصاء التاريخي .
وقد كان «بايل» يؤكد الشك في قيمة القوة أداة لإقرار الحق ، إذ لو
كان استخدام القوة في قمع الخطأ مبدأ صحيحاً ، لما كان هناك حق بلغ من اليقين
ما يبرر تطبيق هذا المبدأ .

وقد أصدر هذا اللاجي « القاموس الفلسفي » الذي كتبه بأسلوب لاذع
مر ، تخفى خلاله وبقي وراء قناع ديني ستر حرية فكره ، وأخفاه عن عيون
خصومه . وكان «بايل» كما يجمع الاعتراضات التي تزود بها الملحدون
لاستخدامها في تقويض العقائد المسيحية الرئيسية . وقد عرض في كتاباته
آثام النبي «داود» ومظاهر وحشية في غير حياطة أو حذر ، وصرح بأن
«حبيب الله» هذا ، رجل تستنكف أن تمد إليه يدك لمصاحفته ! وقد أثار
هذه الصراحة الجافة مكان الغضب عند الناس ، فكان رد «بايل» على هذا ،
إذعانه لاتباه «موتاني» و«سكال» في إبعاد العقل عن مجال العقيدة .

وكان من رأى «بايل» أن فضيلة الإيمان في نظر اللاهوت ، هي الاعتقاد
بحقائق الوحي اعتماداً مطلقاً على الثقة بالله ، فإذا آمنت بخلود الروح لأسباب
فلسفية ، كنت مسيحياً لا حظ لك من الإيمان ، وقيمة الإيمان تعظم وتعلو ،
بنسبة تفوق الحقائق المنزلة على قوى العقل ، وكلما كانت هذه الحقائق غير
ممكنة الإدراك ومجافية لمنطق العقل ، كبرت تضعيفتنا في سبيل التسليم بها ،
وعظم خضوعنا لله ، وبهذا يكون بسط الاعتراضات التي يثيرها العقل ضد
العقائد الدينية الرئيسية ، مفيداً في تعظيم قيمة الإيمان !

ومن وجود النقد التي وجهت إلى قاموسه الفلسفي ، أنه شاد بفضائل الذين
كفروا بوجود الله ، ولكن «بايل» يعتذر عن هذا قائلاً : إنه لو صادف ملحداً
سامت سيرته ، لسره أن يطيل الحديث عن رذائله ، ولكنه لم يصادف
في حياته مثل هذا الملحد ! بينما نصادف في التاريخ مجرمين ترتعد هول جرائمهم ،
كانوا يؤمنون بوجود إله ! وهذه نتيجة طبيعية تفضي إليها الفكرة الدينية التي

تقول : إن الشيطان - وهو الذى لا يستطيع أن ينكر وجود الله - هو الذى يغرى الناس بارتكاب الآثام ! ومن هذا نرى أن خبث الإنسان يشبه خبث إبليس ، فى أن كليهما مؤمن بوجود الله ! ثم ألا ترى الدليل على حكمة الله التى لا تحد ، قائماً فى أن أكبر العصاة الآثمين ، ليسوا بملحدين ! وأن يكون أكثر الملحدين الذين ترامت إلينا أنباؤهم ، رجالاً أشرفاً؟ بهذا استطاعت العناية الإلهية أن تبقى الإنسان الفاسد ، إذ لو اتحد الإلحاد والشر عند الإنسان الواحد ، لتعرضت الدنيا لطوفان مروّع من المعاصى والآثام .

يمثل هذا كان يكتب «بايل» يتظاهر بالدفاع عن العقيدة وخدمة تعاليمها ، وهو يقوض أركانها ، ويقرر تناقض مبادئها مع منطق العقل ، وبهذه الخطة المرسومة ، أفلت «بايل» من شر خصومه . وكان لكتابه الذى يمتاز بالاطلاع الخارق ، تأثير واسع المدى فى إنجلترا وفرنسا على السواء ، وبه استعان أعداء المسيحية فى هذين البلدين ، وكان الطبيعيون من مؤهلة الانجليز أول من قاد هذه الحملة فى عنف بالغ مرير - على نحو ما سنعرف بالتفصيل بعد ذلك .

تطور اتجاه الفيلسوف فى القرنة الثامنة عشر :

فإذا انتقلنا إلى القرن الثامن عشر فى فرنسا ، لا حظنا تغييراً ملحوظاً ، فان فلسفة ديكارت ، على ما عرفنا ، قد أثرت فى فرنسا بنوع خاص تأثيراً واسع المدى ، واجتذبت إليها العقل والأدب والدين معاً ، وقد قلنا إن موقفه من الدين قد برىء من العدوان والتجنى ، ولكنه مقصده ونياته شيء ، ومنطق مذهبه ونتائج دعوته عند أتباعه شيء آخر . . . ! فقد استعانت فلسفة القرن الثامن عشر مذهبه العقلي حتى فى المجال الدينى الذى نحاه عنه ديكارت وفلسفة القرن كله من ورائه ، بل انعكست الآية حين زرع القرن الثامن عشر تأثير ديكارت ، يوم اعتنقت فلسفة هذا القرن المذهب التجريبي وعارضت ديكارت العقلي بفيلسوف إنجلترا «لوك» التجريبي ، أى عارضت العقل بالتجربة فكان عصر كوندillac ولامتري La Mettrie صاحب كتاب الإنسان

الآلى ، وبفون Buffon صاحب كتاب التاريخ الطبيعى ، وريمور Reaumur ولا بلاس Lasplace وغيرهما من نشأ عن أرائهم ماسمى بفلسفة النور ، وبهذا نشأ نوع من الاحتقار للفلسفة الميتافيزيقية التى احتلت المكان الأول فى فلسفة القرن السابع عشر فى فرنسا ، فأصبح العقل . مع استمراره رائد القرن الثامن عشر وهاديه واقعياً تجريبياً ، بعد أن كان فى القرن السابع عشر يقينياً ميتافيزيقياً ، كما يقول پارودى — هذا ما كان من أمره إجمالاً لا تفصيلاً .
ومن هنا قيل إن فلسفة القرن الثامن عشر ، قد استندت إلى المذهب العقلى الذى بشر به ديكارت ، وغالت فى التمسك به حتى أطاحت بالدين الذى أبقى عليه ديكارت من قبل ، وقامت بحملاتها المرة الساخرة سافرة لا يسترها حجاب ، بل ظهرت الحملة حتى فى الشعر الهجائى والجدل والمسرح والقصة ، فلنقف قليلاً لبيان هذا الاتجاه الجديد :

مهمات فولتير السافرة على المسيحية ورمبها

يتجلى هذا الاتجاه فى مهاجمة الدين المنزل وحماته من غير حيلة ولا حذر ، عند رجال الأنسيكيلويديا يتقدمهم « فولتير ، و « ديدرو ، » وقد كان فولتير طبيعياً مؤلفاً ، آمن بوجود إله هدت إليه طبيعة العقل البشرى ، ورأى ذلك من صالح المجتمع ، ولهذا يقول « إذا لم يكن الله موجوداً لوجب اختراعه ! أو « يجب أن نؤمن بالله حتى تكون زوجتى أكثر وفاء لى وخادمى أقل لصووية ! » ، فاستغنى بهذا عن الوحي والكتب المقدسة وأطلق على المسيحية لفظ الكائن الوضيع ، وحارب الكنيسة ورجالها ، وكان فى كل حملاته صارماً تنضح صراحته سخرية مرة وتهكماً ، وقد بذل أقصى جهوده ليظهر للناس ما تنطوى عليه المعتقدات المسيحية من تحريف وحماسة ، وليبين عن استغلال رجال الدين فى جميع الديانات لسذاجة الناس .

وقد هداه التأمل فى مشاهد السكون إلى انه مصنوع بيد مهندس مرید دتراك ، والإيمان بوجود إله ، ضرورة بقتضيا قيام الأخلاق ، ومن هنا قاوم

فولنير «الإلحاد» في غير رفق ولا هوادة، وإن لم يمنعه هذا من مقاومة التعصب ومهاجمة الخرافات ومناهضة الاضطهاد، والتبشير بالتسامح الديني، ومواقفه في الدفاع في قضايا الاضطهاد الأثم تحتل أبرز مكان في تاريخ الدفاع عن حرية الاعتقاد^(١) وقد تأثر فولنير في حملاته على التعصب والخرافات بمفكرى الانجليز من أمثال «لوك» و«بولنجر بوك» و«Bolingbroke» السياسي الذي أخفى إلحاده مدى حياته إلا عن خاصة أصدقائه، فلم تنشر مقالاته النزاعية إلى تمكين العقل إلا بعد عام ١٧٥٤ - بعد مماته .

أخذ «فولنير» في مهاجمة المسيحية بعد منتصف القرن الثامن عشر، عندما أصبحت مزاوله الخرافة والاضطهادات الدينية معرة العصر، فانقض على الكنيسة يهاجها في كل ميدان من ميادينها ساخراً متهمكاً، وكان أولى حملاته كتيب أسماء «مقبرة التعصب» وضعه عام ١٧٣٦ ولم ينشره إلا عام ١٧٦٧! وقال في مطلعها إن من يعتنق دينه من غير تفكير - شأن السواد الأعظم من الناس - كالثور الذي يستسلم للنير ويحملة راضياً ومضى بعد هذا إلى ما تضمنته الأناجيل من وجوه الخلاف والإبانة عن نشأة المسيحية وتاريخ الكنيسة - هذا التاريخ الذي يقول إن كل رجل عاقل لا يملك إلا أن يفرق فرعاً من اعتناق المسيحية؟ إن الأعمى هو الذي يؤثر على الدين الطبيعي الذي يمتاز بالبساطة ويشارك في الإيمان به جميع الناس، عقيدة متناقضة سفاكة للدماء، ينتصر لها الجلادون وتحيط بها عصابة من الأشراس الوصوليين، عقيدة لا يدعن لها إلا الذين أفادوا منها سطوة وثراء، عقيدة خاصة لم يعتنقها إلا عدد قليل من سكان هذا العالم! . . .

وإذا كان فولنير قد تأثر بكتابات «بايل» ونقاد الانجليز، فإن رقة أسلوبه ومرارة سخريته ميزة تبدو بوجه خاص في «موعظة الخمسين» و«أسئلة زاباتا» وغيرهما، ومن دلالات ذلك في تعليقه على الأخطاء الجغرافية التي وردت في «العهد القديم» أي التوراة بقوله: من الواضح أن الله لم يكن قويا في الجغرافيا!

(١) نرى تفصيل هذا في كتابنا «قصة الاضطهاد الديني»

وعلى الجريمة القبيحة التي ارتكبتها زوجة سيدنا لوط ، عندما تلققت إلى الوراثة
ومسخت عامودا من الملح، إذ يتمنى تعليقا على هذه القصة - لو كانت قصص
الكتاب المقدس أقدر من هذا على تهذيب الناس وترقية نفوسهم ، ما دامت
لا تنفع في إضاءة العقول او قد كان من أحب الأساليب إليه ، أن يتناول
العقائد المسيحية ، وكأنه يسمع عن وجود المسيحيين واليهود لأول مرة في
حياته !

لعل العالم المسيحي لم يعرف كاتباً أثار من البغضاء أكثر مما أثار فولتير ،
وقد كان يعتبر عدواً للمسيح وكان هذا أمراً طبيعياً ، لأن حملاته كانت بالغة
التأثير في ذلك الوقت ، ولكن البعض قد آخذوه على أنه كان هداما لا بناء ،
ولسكن من الإنصاف أن نقول مع بيوري رداً على هذا ، إننا إذا وجدنا رجلاً
يفشر في مدينة وباءاً ، وجب المبادرة إلى استئصال هذا الشر ، وعدم انتظار
اختراع مصل مضاد ، وربما كان من العدل أن يقال إن الدين الذي اعتنقته
فرنسا في عصر فولتير ، كان مصدر بلاء عظيم ، والواقع أن المعرفة - ومن
ثم المدنية - تتقدم بالنقد الهدام ، كما تتقدم بالبناء والاختراع ، ومتى أوقف الإنسان
المقدرة على أن يهاجم الباطل والتعرض والخذاع ، أصبح من واجبه - إن
كان ثمة واجب اجتماعي - أن يستغل قدرته ومواهبه في هذا الهجوم .

اضطهاد روسون وأهل صهيون على الدين :

على أن النزوع للبناء ، قد عرف عند « جان جاك روسو » . أحد زعمي
الفكر الفرنسي في ذلك الوقت - فقد ساهم في إنماء الحرية بطريقة أخرى ،
لقد كان من الطبيعيين الإلهيين ، وإن كان على عكس « فولتير » ، من حيث إنه
متدين عاطفي ، في نظراته للمسيحية شك يحوطه الوفاق والاعتزان ، وفي تفكيره
ثورة وتمرد ، ونزوع إلى التنفير من التمسك بالدين ، فأثر هذا في زعزعة
« السلطة » ، في كل ميدان ، وكان تأثيره في هذا الصدد مروّعا ، واستطاع بأسلوبه

الجار أن يستبد بهوى قرائه ، حتى يخافه الأكليروس أكثر مما يخاف « فولتير »
الساخر !

وإذا كان « منتسكيو » وفولتير ورجال دائرة المعارف يتحرون الاهتمام
بالعلم والحضارة الحديثة وتقدم الانسان في (دنياه) دون اكتراث بالمشاكل
الميتافيزيقية ، فان « روسو » يحرص على الاهتمام بمسألة الدين والأخلاق ،
وعنه صدرت الحركة الرومانيسكية التي ارتبطت في القرن التاسع عشر بتجديد
دينى صوفى عام ؛ ولهذا هاجم الحضارة ، وعارض بين العقل والشعور تصریحاً
وتلبيحاً ، وزعم أن التفكير يتلف إحساس القلب الفطرى ، وآثر الحياة البدائية
على حياة التفلسف والنظر العقلى ، فالانسان عنده خير بفطرته ، يفسده التفكير
وتلفه الحياة الاجتماعية ، وزال بهذا ظن القرن السابع عشر ، فى أن الفضيلة
تقوم فى سيطرة العقل على جميع الشهوات .

وقد تأثر روسو بنشأته فى سويسرا الكلفنية ، فاقترح حكومة مثالية لم
تكن خيراً من الحكومات الاستبدادية الدينية ، وديننا مديناً هو فى صميمه
« مسيحية غير متعسفة » ولسكنه رأى أن تفرض على جميع المواطنين بعض
العقائد التى بدت أساسية فى نظره ، ومن أبى الإذعان لها ، كان النفى مصيره ،
ومن هذه المبادئ وجود الله ، وجزاء الخير وعقاب الشر فى الدار الأخرى ،
والتسامح مع كل من سلم بمبادئ الدين ، وإن كان قد رأى أن تفرض الدولة
معتقدات لامفر منها ، فكان هذا قضاء على مبدأ التسامح .

وقد هدته نزاعه السالفة الذكر ، إلى تصور دين طبيعى « يقوم على أساس أن
فى طبيعة غرائزنا ما يدل على أن علة غائية تسيطر على مصيرنا ، وكانت موجودة
قبل أن يدركها الفساد الاجتماعى ، وهذا الدين الطبيعى عند روسو يقوم على
غير معتقدات ، وإن كان يستوحى الشعور المسيحى ، وقد كان هذا من غير
شك رد فعل للذهب المادى الذى بشر به رجال دائرة المعارف ، وخلاصة
الدين الذى ارتآه روسو : الاعتقاد فى وجود الله وفى روحانية الروح وخلودها

وقد شاركه في هذا فولتير ، ولسكنا نجد بين نعمة كل منهما خلافا ملحوظا ،
وقد لبث « روسو » حيناً من الدهر وهو يهيم على وجهه في بقاع الأرض
شريداً ، إذ نشر عام ١٧٦٢ كتاب « إميل » الذي ساهم به في نظريات التربية
وضمنه صفحات طيبة في الدين الطبيعي ، وإنكار الوحي واللاهوت إنكاراً
جازماً ، فأحرق الكتاب في باريس علناً ، وصدر أمر باعتقال مؤلفه فأغراه
بعض أصدقائه بالفرار من باريس ، فلما هم بالعودة إلى جنيف - مسقط رأسه -
كانت حكومتها قد سلكت مسلك باريس في النظر إلى آرائه ، وقررت منعه
من العودة إليها ، فلجأ إلى مقاطعة « بيرن » ولكنه أمر بمغادرتها في الحال ،
فلاذ بولاية « نيفشاتل » من أعمال بروسيا ، حيث يقيم الحاكم الوحيد المتسامح
في ذلك العصر « فردريك الأكبر » ، فبسط عليه جناح رحمة ؛ ولكنه لم
يسلم من مضايقات رجال اللاهوت هناك ، فاتهموه بالإلحاد ، وكادوا ينجحون
في طرده لولا حماية فردريك له ، فانطلق إلى إنجلترا وقضى فيها بضعة أشهر
(عام ١٧٦٦) ثم حط به المطاف في فرنسا مرة أخرى ، وعاش بها آمناً حتى
قضى نحبه .

على أن آراءه الدينية ، ليست شيئاً مذكوراً في مجال تفكيره الإلحادي
الجرىء في ميادين الاجتماع والسياسة ، وقد أحرق في جنيف كتابه « العقد
الاجتماعي » الذي ضمنه نظرياته في هذا الصدد ، وهي على ضعفها قد أضرت
ناراً في غلاة المتعصبين .

إن المذهب الطبيعي - سواء أ كان نصف مسيحي كما بدأ عند روسو ،
أم مجافياً للمسيحية كما بدأ عن فولتير - كان بناء شيد على رمال ، وكان من
الميسور على خصومه في فرنسا وإنجلترا وألمانيا أن يقوضوا أسسه ، وقد بدأ
في فرنسا وكأنه « استراحة » في منتصف الطريق الموصل إلى الإلحاد !

مقاومة الماديين ورجال الموسوعة للمسيحية

وما أقبل عام ١٧٧٠ حتى فزع الفرنسيون لظهور كتاب البارون

هولباخ Holbach ، نظام الطبيعة ، إذ عرض في شطره الأول فلسفته
المادية المحضة ، وعقب على هذا بدحض الأديان عامة والمسيحية بوجه
خاص ، وحاول أن يجتث فيه الاعتقاد بوجود الله وخلود النفس ، معلناً أن
العالم ليس إلا مادة تتحرك من تلقاء ذاتها ، منكرأ كل نظرية تبشر بوجود
وراء العالم الطبيعي وفوقه ، مؤكداً اتصال هذه الموجودات المحسوسة اتصالاً
ألياً ميكانيكياً محضاً ، مقرأ بأن العقل ليس شيئاً إلا الجسم ، منظوراً إليه من
ناحية بعض وظائفه ، !!

وهذه المادية الموغلة في الغلو - إلى حد إنكار الدين الطبيعي نفسه -
قد بدت عند أحد أصدقاء هولباخ ، وهو ديدرو ، D. Diderot في دائرة
المعارف ، الانسيكلوبيديا ، التي كان يشرف على تحريرها ، ويقوم بإصدارها
مستعيناً بكتاب بارزين يتقدمهم روسو وفولتير ، فلم تكن مجرد مرجع علمي ،
بل وجدت فيها الأفكار التي تهدد بالتمرد على الكنيسة والثورة على رجالها
مكافئاً فسيحاً ، وكانت معرضاً للحركات الهدامة التي اضطلع بها أعداء
الدين ، وكان الغرض من وضعها أن تصرف الناس عن المسيحية بما فيها من
خطيئة آدم وحواء ، وتهيئهم إلى تصور العالم تصوراً جديداً تبدو فيه الحياة
مريحة ناعمة ، ولا يُعزى فيه الشر إلى نقص أصيل في الطبيعة البشرية ، بل
يُرد إلى فساد النظم الاجتماعية ونقص أساليب التربية .

وقد كانت حملة ديدرو تنطوي على صرامة ، مع أن «لبريتون» كان يعرض
لما يكتبه بالحذف والتعديل والتحوير والتعديل ، وهي سياسة تجارية تخضع
الحقيقة للجو الذي تقال فيه . ! وقد أثار هذا ضيق فولير ، لأنه كان يميل
إلى اقتراس خصومه وتمزيق أجسادهم ، من غير أن يعنيه ما تنفضى إليه حملاته
بعد ذلك من نتائج ، قد يكون أولها : توقف الانسيكلوبيديا عن الظهور .
وقد بلغ من صرامة فولتير في هذا الصدد ، أن هاجم بعض زملائه في تحرير
الانسيكلوبيديا واتهمهم بأنهم يجاهدون لإبطال التعصب ، ليحلوا الرياء

والنفاق مكانه ! وضاق « ديدرو » بحذر « لبريتون » حتى انهال عليه - حين كشف ما فعله بما كتب من حذف وتحوير - سباً وطعناً ، لأنه أفسد بهذا جهود عشرين مفكراً ممتازاً ، وشوه عملاً جليلاً تضافرت على إنشائه المتاعب والأخطار وعصارة الأفكار النيرة ، قضى عليه هذا الأحمق بجنبه ونذالته ، ولو كانت زوجه مكانه ، لتورعت عن ارتكاب فعلته ! ولكن خصومه تمكنوا بعد صدور الجزء الثاني من حمل الحكومة على إيقافه عن مواصلة العمل ، ثم عادت الحكومة فأذنت له في إتمام مشروعه ، وخشى هذا مغبة نزاعه مع خصومه ، فالتزم جانب الحيطة فيما يكتب معنياً بالكشف عما يراه حقاً ، متجنباً إثارة النزاع من جديد ، وإن لم يخلُ حديثه من تهكم وسخرية في بعض الأحيان ، على أن اللورد مورلي - يزعم في ترجمة « ديدرو » أن هذه الأنيكلويديا التي أثارته مكامن الضيق عند رجال الدين ومن إليهم من خصوم منشئها ، لا تتضمن ما يستوجب إثارة الناس في أيامه ، لأنها خلو من التعطيل والتهجم الصريح على عقائد الدين الرئيسية !! إلا أن منهج كتابها في النقد لم يكن مألوفاً لرجال السلطة في أيامهم ، ومن أجل هذا أثارته آثارهم ، وفي الأنيكلويديا بعد هذا إكبار من شأن العلوم والفنون ومطالبة بحرية الاعتقاد وحرية البحث الفلسفي . . الخ وغير هذا مما كان يضيق به رجال السلطة في ذلك العصر .

قلنا إن الغرض من وضع هذه الأنيكلويديا ، تحويل الناس عن اعتناق المسيحية ، إلى فهم الحياة فهماً جديداً ، وقد جاهد « ديدرو » و« روسو » - كلٌّ بطريقته - لصرف الناس عن العقائد الدينية إلى اصلاح المجتمع ، وإقناع العالم بأن سعادة الإنسان لا تتوقف على الوحي ، بل تقوم على التحول الاجتماعي ، ولقد كان لجهودهما في هذا الصدد أثرها البين ، حتى في المؤمنين الذين لم يتخلوا عن دينهم ، بل لقد أثرت في روح الكنيسة نفسها ، ومن وازن بين الكنيسة الكاثوليكية في القرن الثامن عشر ، وبينها في القرن الغابر ، أدرك الأثر البالغ

الذي خلفته في مجال الإصلاح تعاليم روسو وفولتير وديدرو وأقرانهم من المجاهدين . وفي ذلك يقول اللورد مورلي : قدمت الكنائس المسيحية - في سرعة وبمقدار ما يسمح تكوينها - العلم الجديد والأفكار الخلقية السمحة ، والروحانية السامية التي بشر بها قوم هجروا جميع الكنائس ، واتهموا بأنهم أعداء البشرية (١)

تعقيب :

هذا ما كان من أمر النزاع في فرنسا إبان القرن السابع عشر والثامن عشر ، وقد بدت الفلسفة والدين في أولهما على وئام ، تديّن الفلاسفة أو تظاهروا بالتدين واحترام رجال اللاهوت على أقل تقدير ، وبدت الفلسفة في ثاني القرنين سافرة الإلحاد لا يسترها حجاب ، تهاجم الدين في صرامة وقد آمنت بالعقل أو كفرت بشريعته على السواء ، وقد جدّت الكنيسة في اضطهاد الفلاسفة إبان القرنين ، ولكن اضطهادها للتدنيين في القرن الأول كان أعظم صرامة من اضطهادها للبلحدين من هؤلاء المفكرين في القرن الثاني ، ومرد هذا - فيما يلوح - إلى تناؤل نفوذها الذي كان لها أولا ، ولو تهيأت لها بسطة من السلطان لأصلتهم نارها وجرعتهم عذابها صنوفا وألوانا

سبينوزا بين الفلاسفة والتدريسيين :

على النحو الذي أسلفناه عند الحديث عن ديكارت ، تطور التنافر الملحوظ من التزمّت الصوفي الزاهد في العصر الوسيط ، والثورة الجارحة والتمرد الصارخ على أوضاع الدين وتقاليده في عصر النهضة ، فأصبح - هذا التنافر في فرنسا إبان القرن السابع عشر - اتساقا وتوازنا بين الروحين المتنافرين ، إذ تمّ الجمع بين العقل والإيمان من غير توضيحية بأحدهما في سبيل الآخر .

وقد تسلل هذا الروح إلى هولنده ، وبدا عند فيلسوفها الأكبر سبينوزا

(١) أنظر نيا سلف كتاب بيوري Hist of Freedom of Thought : وقرأ كتاب

Spinoza إذ كان يصدر عن عقل رياضي ، وإيمان صوفي ، ولكن نزعاته العقلية قد طوحت به إلى آفاق لا تتمشى مع عقائد الدين ولا ترضى رجاله .

جمع سبينوزا بين النزعة العقلية التي يستخفها التعليل ، ويستهيها التفسير والتحليل ، والنزعة الروحية الصوفية التي يستوعبها نور الإيمان ، ويستغرقها الشعور العميق بالله . وكانت مردها إلى نشأته الدينية الإسرائيلية وقد استغرق الله فلسفته ، فاعتبره والطبيعة شيئاً واحداً ، وعده الموجود الحق الأزلي والجوهر اللانهاى الذى يقوم بنفسه ولا يحتاج إلى علة لوجوده ، من أعراضه اللانهائية التفكير وأحواله النفوس البشرية ، والامتداد العقلي وأحواله الأجسام المحسوسة ، ففضى على فكرة الخلق التي أقرتها الأديان جميعاً ، ورأى أن الظواهر السكونية كما تصدر عن الله وعلى هذا استقر مذهب وحدة الوجود pantheism في فلسفته . كما بدا في كتاب الأخلاق ، الذى منع من نشره أثناء حياته ، ولم ينشر إلا عام ١٦٧٧ بعد مماته ، إذ اعتبرت وحدة الوجود مرادفة للإلحاد وقيل إن اسمها الصحيح هو الواحدية الالحادية ، ثم عاد سبينوزا في رسالته اللاهوتية السياسية إلى تصوير الله في صورة آساير المؤلف عنه في الكتب المقدسة ، فصوره حاكماً مطلقاً يسن الشرائع التي ينبغى أن يخضع لها الناس وإن جهلوا سرها ، وبهذا تآدى إلى التوفيق بين الفلسفة والدين ، فوحد بين غرضها في تحقيق السعادة للفرد والمجتمع ، وانتهى بهما إلى يقين واحد ، يبدو في الفلسفة عقلياً رياضياً ، وفي الدين نقلياً أخلاقياً ، وقد أثرت محاولته في التوفيق بين الدين والفلسفة على ما سنعرف في إنجلترا ، وتجلت عند جون لوك ، في كتابه مقال عن العقل البشرى ، إذ ظهر كتاب سبينوزا قبل كتاب لوك وترجم إلى الإنجليزية في نفس العام الذى نشر فيه المقال ، ولم يكن لوك ليجهله ، وإن كان قد صرح بأنه لم يطلع على مؤلفات سبينوزا إلا لماماً ، وقر إثار العقل على الوحي عند التعارض .

كان سبينوزا يصدر في مذهبه العقلي الرياضى عن إيمان دينى صوفى عميق

ولكن منطق مذهبه في وحدة الوجود قد أداه إلى إنكار أبسط ماتقره قواعد
الاديان، فإنه وإن آمن بمسيح تاريخي، فقد أنكر العناية الإلهية وكفر بالبعث
والأرواح والملائكة ورفض العلل الغائية، واستبعد حريه الله واختياره،
ونبذ ظاهر الكتب المقدسة لأنه عاجز عن أن يعرف منها شيئاً، كصفات الله أو
نحوها، فقاوم على ما يقول ولف B. Wolf مذهبين سادا في العصر الوسيط،
هما مذهب الوقوف عند حرفية النصوص المقدسة، ومذهب القول بالمعجزات
وخوارق العادات، فلنقف عند رأيه في هذين المذهبين وقفة قصيرة :

اعتز بالعقل وكفل له التحرر من كل سلطة، وأخضع لحكمه ومنطقه كل
شيء، حتى الكتب المقدسة، إذ اعتبرها شبيهة بالوثائق التاريخية، فأوجب
تأويلها في ضوء المنطق، لأن لغتها مليئة بالاستعارات والمجازات، موجهة
إلى إثارة الخيال عند الناس، باستخدام الصور الجذابة، ولم يكن من الحكمة
أن تعدل عن هذا الأسلوب إلى مخاطبة العقل ومحاولة إقناعه، لأن هذا يفضي
إلى إضعاف تأثيرها عند المؤمنين، ولو أن النصوص المقدسة قد تجردت من
سحرها البياني وفتنة صورها الخيالية الرمزية، لتبدت بعد التأويل العقلي
مسايرة لمنطق العقل، وبرئت من وجوه التناقض.

ولم يكن هذا النزوع إلى التأويل جديداً، لأن النزعة العقلية التي أثارها
ديكارت قد فشلت في العالم الأوربي كله، وتجلت في النصف الثاني من القرن
السابع عشر في هولنده، وكان من مظاهرها انصراف بعض المفكرين عن
الوقوف عند حرفية النصوص المقدسة، وميلهم إلى تأويلها في ضوء العقل،
ففي سنة ١٦٦٦ نشره ماير، Louis Meyer، وهو طبيب من أمستردام، كتاباً
(*Philosophia sacrae scripturae interpres*) ذكر فيه أن الكتاب المقدس
كلمة الله، وأوجب تأويلها في ضوء العقل البشري، ونحى كل المعاني التي
لا تتمشى مع منطقها، وردّها إلى الاستعارات والمجازات والكتابات، وكان
ماير، هذا صديقاً لاسينوزا، حضر وفاته وساعد على نشر كتبه بعد مماته،

وقد ظهر كتابه السالف الذكر قبل كتاب سينيوزا Tractatus بأربع سنوات ،
ومن هنا رجح الظن بأنه أثر في سينيوزا وإن كان سينيوزا قد طمس
بشهرته اسمه .

وقد أبان سينيوزا في كتاب له ، أن موسى لا يمكن أن يكون مؤلف
أسفار موسى الخمسة في صورتها التي تبدو عليها ، ورآها على غير ما ينبغي أن
تكون بصدد الطبيعيات بل اللاهوت كذلك .

وقد آمن سينيوزا بشريعة العقل على ما ذكرنا ، واعتبر مهمته الكشف
عن الروابط المنظمة بين الأشياء ، فأداه هذا إلى إنكار الخوارق والمعجزات ،
لأن هذه تقوم على تمزيق العلاقات المنظمة بين الأحداث الطبيعية ، بل إن
مذهبه في التوحيد بين الله والسكون لا يستقيم مع قيام هذه الخوارق ، لأنها
ليست إلا تناقضات بين سير الطبيعة وعمل الله ، ولهذا خبطاً الدهماء في ظنهم
الواهم بأن الخوارق تؤيد عظمة الله وجلاله .

عمراء السلطات البرفانية :

لم يكن من المعقول بعد هذا كله أن تغفل عنه عين الكنيسة ، وأن يطمئن
إليه الرأي الديني العام ، وإن رفعه المعجبون به إلى مرتبة التقديس ، كما يسمه
بذلك « شيلر ماخر » ، وقال عنه Novalis إنه « رجل أسكره حبه لله ، ويقول
« هوايت » A. D. White إن خصومه لا يجدون في حياته أو فلسفته دليلاً
يبرر القول بأنه عمد إلى التخلص من اليهودية ، ولكنه اتهم بالهرطقة عند
اليهود والمسيحيين على السواء ، وهو لفظ أسى استعماله في القرن السابع عشر
والثامن عشر فيما يقول بيورى ، فكان يطلق على أحرار الفكر ، ويوجه إلى
أتباع المذهب الطبيعي الإلهي ، الذين تأثروا برأيه في تأويل النصوص المقدسة
في ضوء العقل .

ضاق الأكليروس اليهودي باسينيوزا منذ صغره ، فقدمه للبحاكة ولما
يناهز الرابعة والعشرين من عمره ، وصدر حكم بتكفيره وحرمانه بعد أن

عز عليهم إسكاته بالرشوة ، وأرسلت السلطات اليهودية هذا الحكم إلى السلطات المدنية - للتخلص من تبعة العقاب - فطارده الرأي الديني العام ، حتى عاش وحيداً طريداً يتقله الضنك ويجرحه الفاقة وتطارده الكتابة ، بل لقد همَّ أحد المتحمسين من المتدينين باغتياله ، فطعنه بمدية أصابت عنقه ، ولكن الفيلسوف أفلت بحياته ، وأخذ يتنقل من بلد إلى بلد حتى بلغ « لاهاي » ، ولبت بها حتى مات في الرابعة والأربعين من عمره ، واضطر أثناء ذلك أن يغير اسمه فراراً من تهمة الإلحاد ، والاشتغال بصناعة عدسات النظارات حتى يتيسر له أن يعيش ! وأدان كتابه *Tractatus* بعد طبعته الأولى عام ١٦٧٠ بمجمع ديني في هولنده ، مع «التين» الذي وضعه «هوبز» وعرض فيه لنقد النصوص المقدسة ، وما فوق الطبيعة في كل لغة عرفت

كان أحرار الفكر في هولنده أسعد حظاً من زملائهم في أي بلد أوربي آخر ، وقد يسرت الحرية المبسوطة فيها نشر الكثير من الكتب التي عز طبعها في غيرها من البلاد ، ومع هذا فقد كان من العسير في بعض الحالات أن يكشف المؤلف أو الناشر عن اسمه ويظهر سافراً أمام القراء .

وقد كانت السلطات الدينية لاتغفل عن المتهمين بالإلحاد ، فقد فر اليهودي كوستا Gabriel de costa أو Vriel Acosta + ١٦٤٠ من البرتغال إلى أمستردام وأنكر خلود النفس والطقوس اليهودية ، لأن الإنجيل لا يؤيدها ، فأصدرت ضده السلطات اليهودية قرار الحرمان ، حتى أنكر مذهبه جهاراً ، ولكنه اتهم بالهرطقة مرة أخرى ، وصدر ضده قرار بالحرمان ، واضطرته السلطات الدينية إلى إعلان الإقلاع عن رأيه مرة ثانية ، بشروط مذلة مهينة ، فاتتحر خلاصاً من هذا الجو الخانق ! وحدث مثل هذا ليهودي من مفكري أمستردام هو Daniel de Prade + ١٦٦٣ لأنه عارض القول بالقوى الخارقة فوق الطبيعية والاعتقاد في التقاليد ، وفشت نظرتيه بين الثبانات ، فحاولت بعض المجمع الدينية عام ١٦٥٦ أن ترده عن غيبته ، وأن تغريه بالرشوة لكي يهاجر ، ولكن

محاولاتها ذهبت عبثاً ، فأصدرت ضده قرار الحرمان عام ١٦٥٧ . ومثل هذا الاتهام هو الذي وُجِّهَ إلى سبينوزا على نحو ما عرفنا من قبل .

وقد أعيد طبع رسالة سبينوزا اللاهوتية السياسية عام ١٦٧٤ وهي تحمل اسم ناشر وهمي ، وتغفل الإشارة إلى مكان الطبع ، وعند ظهور هذا الكتاب سارعت السلطات إلى مصادرته ، فلما عرف الناشر أن كلف القراء به ، وإقبالهم على الاطلاع عليه ، أعادوا نشره تحت عناوين مضللة ، ولما أتم سبينوزا أعظم آثاره الفلسفية «الأخلاق» لم يجرؤ على نشره ، فأوصى به أحد أصدقائه ليتولى إذاعته بعد مماته .

على أن سخط المعسكرات الدينية على الفيلسوف لم يقف عند مماته ، واستمرت آثاره مثار الضيق إلى عهد قريب ، فقد اقتُرح — حول عام ١٨٨٠م — أن يقام له تمثال في أمستردام ، فضاق الأكليروس بهذا الاقتراح ونهض لمقاومته ، وحملت الكنائس والمجامع اليهودية على المشروع ، وكثرت فيها الخطب التي تنبأ أصحابها بأن يحيق بالمدينة غضب الله وسخطه ، إن تم هذا العمل الآثم ، فلما استقام التمثال ، وُكِّل إلى رجال الشرطة حمايته ، ووقاية العلماء البارزين الذين أراحوا عنه الستار . . . (١)

هابيبو ونظرية روراه الأورمه :

كانت إيطاليا مقراً للكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، التي كانت لا تزال تهيمن على العالم الأوربي بما توافر لها من سلطان ، ومن هنا كان اللاهوت المتعسف فيها أقوى نفوذاً وأعز جنداً ، وبدا أهل الفكر الجديد أمامه أقل

(١) أهم المصادر :

F. Pollack, Spinoza; his life and philosophy

J. Martineau, A Study of Spinoza

J. Caird; Spinoza

A. Wolf, Spinoza; his life and treatment on God and man

» » art. Spinoza (Encycl. Britanica)

J. M. Robertson, A Short Hist. of Free-Thought (vol. 2, Ch. XV)

جرأة وأعظم تخاذلاً ، وكان منهج أصحاب هذا اللاهوت يقضى باعتبار النصوص المقدسة مصدر الحقائق جميعاً ، وتفسيرها حقاً مقصوراً على الكنيسة ورجالها ، واتجه العلم الجديد إلى الاعتماد على التجربة في استقواء الحقائق ، والتسليم بما ينتهي إليه هذا النهج الجديد من آراء ، ولو بدت على خلاف المألوف من حقائق اللاهوت ، ومن هنا كان النزاع . .

وقد كان جاليليو أحد السباقين إلى هذا المنهج العلمى الجديد ، وقد أفضى به إلى تأييد الرأى الذى انتهى إليه كوبرنيكوس ، على النحو الذى أبتنا عنه فى الفصل السالف ، واهتدى إلى غيره من آراء لا تجرى على النسق الذى ترتضيه الكنيسة ، فقد اعتمدت القول - المنسوب إلى بطليموس - من أن الأرض ثابتة وأنها مركز الكون ، وأن الشمس وسائر الكواكب تدور حولها ، وأيدت هذا الاتجاه بنصوص من الكتاب المقدس ، ولكن جاليليو قد عكس الآية وصرح بأن الشمس - لا الأرض - مركز الكون ، وأنها تدور حول محورها وليس حول الأرض ، وأن الأرض تدور دورة مزدوجة ، حول نفسها - كل أربع وعشرين ساعة - وحول محورها فى الوقت نفسه - كل عام مرة - فأثار ضيق الكنيسة ، وتضافر خصومه على إخفات صوته والتنكيل به إن أقام على ضلاله . . ١

اخترع جاليليو المرقب (التلسكوب) الذى يذوق البعيد فتراه وكأنه على كعب منك ، وبه كشف أقمار المشتري عام ١٦١٠ - ، فرفض خصومه النظر إليه بحجة أن استخدامه يوقع فى الكفر ، وأن ما يبدو خلاله ليس إلا أوهاماً يوسوس بها الشيطان الخناس ، فضى جاليليو فى تجاربه حتى أيتد رأى «برونو» Bruno فى أن القمر كعالم الأرض من حيث انطواؤه على نبال ووديان ورد نوره إلى انعكاس الشمس على أديمه ، فقال خصومه : إن سفر التكوين لا يؤيد هذا الزعم ، وأن وجه القمر أجمل من أن يحتمل حفر الوهاد وإقامة الجبال ! إن هذا لضلال مبين ! فلما كشف عن كلف الشمس ، واستند إلى

تنقل هذه البقع على سطحها ، وقرر دورانها حول محورها - وليس حول الأرض كما يزعم أهل الكهنوت ، تميزت الكنيسة غيظاً وأوحت إلى الجامعات التي كانت معقلاً للرجعية ومبادة للعلم السلبى ، أن تهمل تلقين هذه الضلالات لطلابها ، وقال له أحد خصومه : لقد اطلعت على كتب أرسطو - وكان لا يزال رب العلم فى مدارس العالم المسيحى والمعتمد من الكنيسة - فلم أجد فيها ما يؤيد مزاعمك ، فلا شك أن هذه النقطة موجودة على عينيك أنت لاعلى وجه الشمس . . !

محنة جاليليو وصراعه واضطرابه :

وكان جاليليو قد عمد إلى تأييد مباحثه الطبيعية بالنصوص المقدسة ، فأخذ يعمل على تأويلها ، ويتخطى حرفية ألفاظها ، مستشفها ما وراء ظاهرها من معان تسير منطقها ، وتمشى مع اتجاهه ، فتميزت الكنيسة غيظاً ووطنت العزم على أن توقف هذا الشر الزاحف ، وتلقى جاليليو إنذاراً نصف رسمى يحذره من إقحام السكتب المقدسة فى مباحث الطبيعة ، ولكنه أغفل أمره وواصل أبحاثه ، ولم يعبأ بإصرار خصومه على أن المزامير تشبه شروق الشمس بخروج « العروس من خدرها » وقول الإصحاح الأول من سفر الجامعة « الأرض قائمة إلى الأبد ، والشمس تشرق والشمس تغرب ، وتسرع إلى موضعها حيث تشرق » ، وأن الأرض من أجل هذا كانت مركز الكون ، الذى قام عليها العشاء الربانى ، وسخرت من أجله كل الظواهر الكونية .

فاتفق البابا بولس الخامس مع رئيس أساقفة فيزا ، وبلارن Bellarmin وقد كان لاهوتياً ماهووظ المكانة فى تاريخ عصره ، على الانتقام من هذا الملاحد الضال ، فان آراءه تقوض فكرة الخلاص فى المسيحية ، وتثير الشك فى تجسد الأقوم الثانى (المسيح عليه السلام) وتنكر نص الكتاب المقدس على أن الشمس قد وقفت ليوشع ، بالإضافة إلى أن مزاعمه فى عمران

السيارات الأخرى ، تستتبع القول بأن سكانها لا ينحدرون عن آدم ، ولا يرجعون إلى سفينة نوح . . !

وحاول رئيس أساقفة بيزا ، أن يستخدم الحيل الخبيثة في الاستيلاء على خطابين قد كتبهما جاليليو ليؤيد فيهما مباحثه الطبيعية بنصوص من الكتاب المقدس ، أولها التاويل الذي يرتضيه ولا تحتمله الكنيسة ، فلما أخفق في محاولاته المستورة ، أبدى خصومته سافرة ، وسرعان ما استدعى جاليليو عام ١٦١٥ للدفاع عن نفسه أمام محكمة التفتيش ، وتولى رجالها النظر في اتهامين انطوت عليهما كتاباته ، وكان قرارهم بعد شهر قسوه في بحثهما ما يلي :

إن القول بأن الشمس مركز الكون ، وأنها لا تدور حول الأرض ، قضية طائشة خرقاء ، ومتناقضة وباطلة في عرف اللاهوت ، وتنطوي على إلحاد يبين لأنها تناقض نصوص الكتاب المقدس تناقضاً صريحاً ، كما أن القول بأن الأرض ليست مركز الكون ، وأنها تدور حول الشمس ، رأى متهافت لا تقره الفلسفة ولا يتمشى — من وجهة نظر اللاهوت — مع الإيمان الصحيح . وعندئذ استدعى البابا بولس الخامس المتهم ، وطالبه على لسان « بيلارمن » بالتخلي عن رأيه ، وأمره : « باسم قداسة البابا ، وباسم مجامع الديوان المقدس ، أن يتخلى عن الرأي القائل بأن الشمس مركز الكون وأنها لا تدور — حول الأرض — وأن الأرض تدور ، وأن يتعهد بالآلا يعلم هذا الرأي لأحد من الناس ، أو يدافع عنه كتابة أو مشافهة » . ! وأذعن جاليليو لهذا كارها (١)

كان هذا عام ١٦١٦ م ، وبعد أسبوعين أصدر مجمع الفهرست بياناً أعلن فيه بطلان المذهب القائل بحركة الأرض حركة مزدوجة — حول محورها

(١) أنكر Gebler و Wohlwill تعهد جاليليو بعدم تلقيب النظرية لأحد من الناس ، وقيل إن هذا التعهد دسه رجال الكنيسة ليجروا محاكمة جاليليو لثاني مرة عام ١٦٣٢ ، ١٦٣٣ ، ولكن هوايت لا يرى هذا الرأي مستنداً إلى وثائقه (أنظر ص ١٣٧ ج ١ هامش في كتابه السالف) .

وحول الشمس - ومناقضتها للكتاب المقدس « وحرّم نشره أو تأييده » ،
وصرح بإدانة كل ما كتب كوبرنيكوس ، وغيره ممن يؤيدون دوران الأرض
- من أمثال جاليليو وكبلر ، واعتمد البابا - المعصوم من الخطأ - هذا البيان .
ولبت جاليليو مقيماً في روما ، يلقي من الرأي العام عنثاً شديداً ، ثم غادرها
إلى فلورنسا ولزم وعده ، حتى اعتلى عرش البابوية إربان الثامن ، فخدعته
صلته الطيبة به ، وأضله ما أشيع عنه من انتصار لحرية الرأي ، فعاد جاليليو
المخدوع إلى إعلان آرائه والترويج لها بين الناس ، فأثار بهذا خصومه ، وفقد
مرتبه كأستاذ في جامعة بيزا ، وأعلن الأب Melchior Inchofer أن ثبات
الأرض أمر مقدس ثلاثاً thrice sacred ، وأن التدليل على فناء النفس
وإنكار الله وعدم تجسده ، يمكن أن يلقي تسامحاً ، قبل أن يظفر بهذا التسامح
التدليل على أن الأرض تدور !

ولكن جاليليو لم يزججه الوعيد ، فوضع محاوره ضمنها نظرية بطليموس
القديمة ونظرية كوبرنيكوس الجديدة ، تأييداً ودحضاً ، فلم يأذن رجال الكهنوت
بنشرها إلا بعد ثمانية أعوام ١٦٣٢ - بعد مقدمة وضعها رئيس القصر المقدس
وأعلن فيها أن الرأي الجديد عبث وخيال ، وليس متنافياً مع نظرية
بطليموس الذي أثبتت محكمة التفتيش صحتها عام ١٦١٦ م ، ووضع جاليليو
إمضاه في ذيل هذه المقدمة !

ولكن البابا قد اقتنع بأن أدلته التي حاول أن يردّ بها جاليليو عن رأيه ،
قد جرت على لسان أحد الأفراد في هذه المحاوره ، فأثار هذا حنقه ،
وسرعان ما صودر الكتاب ، ولكن بعد انتشاره في أوروبا كلها ، فاستدعى
جاليليو إلى محكمة التفتيش مرة أخرى ، وزج به إلى السجن ، وعانى الضيق
حتى أكره على أن يجهر بارتداده عن رأيه وهو راكع على قدميه قائلاً :
أنا جاليليو وقد بلغت السبعين من عمري ، سجين راكع أمام نقامتك ،
والكتاب المقدس أمامي ألمسه بيدي ، أرفض وألعن وأحتقر القول الخاطيء

الإلحادى بدوران الأرض ، ! وتعهد مع هذا بتبليغ محكمة التفتيش عن كل ملحد يوسوس له الشيطان بتأييد هذا الزعم المضلل . . ! .

وأقام جاليليو بعد هذا فى منفاه مريض النفس والجسم معاً ، ولبث فى سجنه حتى كف بصره ، فقيل : مات كفيفاً ذلك الذى مدَّ أبصار الناس إلى عجائب السموات ! وترامت إليه أنباء الاضطهادات التى نزلت بأصدقائه وأتباع مذهبه ، وكان بينهم رجال دين ، فأقصى — بأمر من البابا إربان الثامن — رئيس البلاط المقدس الذى وضع مقدمة المحاوره ، ووجه اللوم إلى من أذن بطبعه من أعضاء محكمة التفتيش ، وسارت الجامعات فى ركاب هذا التيار الجارف . وفى شهر يونيه من عام ١٦٣٣ أمر المجمع المقدس — بعد استئذان البابا — بإرسال الحكم السالف ، مع إقلاع جاليليو عن رأيه إلى المعسكرات الدينية فى أنحاء العالم الأوربي ، وطلب إليها إعلانه على القساوسة وإذاعته فى أساتذة الفلسفة والرياضيات جميعاً ، وحرّم على أعضاء محكمة التفتيش أن يأذنوا بطبع بحث لجاليليو أو لمن جرى على نهجه ، وتوج الفهرست هذه الجهود بتحريم كل كتاب يؤيد دوران الأرض ! وخفت بهذا كله صوت النظرية الجديدة ، وعلا صوت خصومها بالظعن والسباب حيناً ، وبالتدليل المتهافت حيناً آخر ، فن ذلك أنهم أثاروا ما عرف عن جاليليو من شذوذ خلقى أيام صباه . . ! وحاولوا أن يدحضوا بالمنطق رأيه ، فقالوا لو صح زعمه فى دوران الأرض ما استقام على سطحها بناء ! ولاحتاج الناس لى يثبتوا على أديمها إلى مخالِب أقوى من مخالِب القلط ! ولتحم إذا أطلقت سهماً رأسياً فى الهواء ان يهبط بعيداً عن المكان الذى انطلق منه ! ثم إن لجميع الأحياء المتحركة أطرافاً تمسكها من التحرك ، وليس للأرض مثلها ، فكيف يتيسر لها أن تتحرك ما لم تفترض وجود شيطان خبيث يتولى تحريكها . . ! إلى آخر هذه المزاعم ، التى أضافوها إلى ظاهر النصوص المقدسة التى تسند دعاويهم ، يؤيدها جميعاً سيل من الظعن والسباب .

فلما قضى جاليليو نجه ، رفضت الكنيسة التصريح بدفن جثته في مقابر أسرته ، ومانعت في اقامة شاهد تذكاري على قبره ، وصرح البابا إربان الثامن بأن السماح بتكريم رجل أدانته محكمة التفتيش أسوأ مثل يعطى للناس ، ولم ينتصب الشاهد على قبره الا بعد أربعين عاماً ، ولم تنقل رفاته الى مقابر أسرته الا بعد مائة عام ، ثم أقيم عليها نصب أجازت نعمة مراقبة المطبوعات في محكمة التفتيش !

وقد أشرنا في الفصل الذي عقدناه عن « حرية النظر العقلي والقوى المعادية لها » ، الى تضافر الشيع البروتستانتية - من لوثريه وكافنية وانجليكانية - في هذا النزاع ، وإذا كانت حملاتها لم تتجاوز السباب والتشهير الى الانتقام المادى ؛ فان مردّة هذا الى حاجتها الى السلطة .

اضطهاد أتباعه بعد مماته :

وكان طبعياً بعد هذا كله أن يلقي أتباع هذا الرأى الجديد عنناً شديداً ، وقد كتب كامبانيايلا Campanella دفاعاً عن جاليليو Apologie for Galileo فكان هذا من أسباب تعذيبه واضطهاده ، وأتم كپلر مباحث كوبرنيكوس وكملها ، فخره المجمع الاكبروسى البرتستانتي في سنتجارت Protestant Consistory of Santgart من بث الاضطراب في كيان العالم المسيحي ، وطولب بالتوفيق بين مزاعمه والكتاب المقدس ، وأضاف الفهرست عام ١٦٦٤ الى كتب جاليليو كل الكتابات التي تعلم دوران الأرض وثبات الشمس ! .

واستمر الجدل قائماً في العالم الأوربي بشأن نظرية جاليليو حتى تولى البابا بندكت الرابع عشر ١٦٥٧ م بحث هذا الموضوع بنفسه ، وقرر بجمع الفهرست بعده أن الكنيسة تبيح نشر تعاليم كوبرنيكوس والإذن بدراستها ، ومع هذا لم يوفق الفيلسوف لالاند بعدها بثمانية أعوام في حمل الكنيسة على رفع كتب جاليليو من الفهرست . وفي سنة ١٨٢٠ رفضت مراقبة المطبوعات أن تأذن بطبع بحث للاستاذ Settela أستاذ الفلك بجامعة روما ، لأنه سلم بصحة

المذهب الجديد في كتابه ، وطلبت اليه أن يعالجه باعتباره فرضاً خياليا لا مذهباً عليا ، فلما لجأ الى البابا بيوس السابع Pius VII أحال الأمر الى مجمع الديوان المقدس Holy Office Congregation فقرر المجمع السماح له بتدريس النظرية الجديدة ، وأيد البابا هذا القرار ، وسرت العدوى الى كرينالات محكمة التفتيش ، فقرروا في سبتمبر عام ١٨٢٣ - في روما - السماح بنشر الكتب التي تؤيد دوران الأرض وثبات الشمس ، واعتمد بيوس السابع هذا القرار ، فلما أعيد طبع الفهرست عام ١٨٣٥ رفعت منه أسماء الكتب التي تعرض لتأييد هذا الرأي (١).

نقد السجلات الربانية بعد انتصار النظرية الجبرية :

على أن المعسكرات الدينية التي خاصمت النظرية الجديدة قد هال أتباعها سخف موقفاً بعد أن وضح الرأي الجديد ، فحاول رجال الكهنوت أن يلتمسوا الأعداء للكنيسة ومن جرى في ركبها من أتباعها ، تبريراً لموقفها الشائن ، فالتمسوا الكثير من التعللات ، منها قولهم ان اتهام جاليليو واضطهاده مرده الى إقحامه الكتاب المقدس في تأييد آرائه ، أو تهجمه على البابا وعدم التزام الأدب معه وإظهار الولاء له ، أو أن البابوات لم يحرموا رأيه الا بصفتهم الشخصية ، أو أن مسألة النزاع كله مردها الى ضيق الأرسطاطاليسيين في ذلك العصر برجال العلم التجريبي الحديث ، ولكن الوثائق التي طبعت أخيراً - بعد محاولة إخفائها - تكشف عن بطلان هذه المزاعم ، ونلاحظ أن الموقر روبرتس Rev. Mr. Roberts - وهو من أتباع المذهب الكاثوليكي المخلصين -

قد قرر في كتابه The Pontifical Decree against the earth's Movement

(١) لا يسلم بعض المؤرخين بهذا التاريخ ويرون أن محاوره جاليليو قد طبعت عام ١٧١٤ في بادوا ، ويرى دعاة هذا الرأي أن القرار الاكثري قد أُلغاه بيوس السابع عام ١٨٤٨ وينسب Whewell بذلك ولكن Cantu وهو من أنصار الكنيسة يقرر أن كتاب كوبرنيكوس بقي في الفهرست الى عام ١٨٣١ (أنظر كتابه Histoire universelle vol ٤٨٣ ويسلم بهذا Th. Martin وغيره وبؤيدهم هوايت (هامتن ١٥٧ ج ١) .

أن البابا بولس الخامس قد تولى رئاسة المحكمة التي أعلنت تحريم القول بدوران الأرض في عام ١٦١٦ ، وأن البابا إربان الثامن قد استفرغ جهده في تهمة الجوّ لاتهام جاليليو أمام محكمة التفتيش في عام ١٦٣٣ ، وأن البابا اسكندر السابع قد استغل الاعتقاد في عصمته لتحريم الكتابات التي تؤيد دوران الأرض في أمر تضمنه الفهرست .

على أن بعض رجال الكهنوت قد قاموا بالمحاولة التي يعالجونها كلما تداعى موقفهم في نزاعهم مع أهل الفكر الجديد ، فأخذوا على عاتقهم أن يوفقوا بين الرأي الجديد والنصوص المقدسة ، وبذلك يستغلون ما ينكشف عنه النظر العقلي الحرّ في تأييد العقيدة الدينية والتمكين لتعاليمها ، وتجلت آثار هذه المحاولات في القرن الماضي ، وسنرى بعض مظاهرها في فصل قادم (١) .

وبعد ، فهذه هي أظهر معالم النزاع بين رجال اللاهوت ورواد الفكر الحديث ، في العالم الكاثوليكي إبان ذلك العصر ، وهي آثار تخلفت عن العقل حين تحتويه الجملة ، والإيمان المتعسف حين يستعين بهوى صاحبه ، فيحيل ساحة قلبه ترمماً بغيضاً وتعصباً ممقوتاً ، ويرد حبه للناس إحناً تحك في صدره ، وأحقاداً تضطرم في باطن نفسه ، وظلماً لا يرويه إلا إهراق الدماء وإزهاق النفوس . . . ومن عجب أن ترتكب هذه الآثام الدامية باسم دين أخص بميزاته الدعوة إلى الحب والسلام والصفاء . . . !

(١) أهم المصادر :

A. D. White في كتابه السالف الذكر ، وقد تناول هذا الموضوع في ستة فصول قيمة في الجزء الأول منها أربعة عن جاليليو وموقف الكنيسة منه وظهرت هذه الفصول في النسخة العربية للأستاذ مظهر ومن المقيد قراءته :

Th. Martin, Vie de Galilée

Gebler Galileo Galilée (النسخة الانجليزية)

Bertrand, Fondateurs de l'astronomie moderne

Flammarion. Vie de copernic ch IX.

Libri, Histoire des sciences mathématiques en Italie

Charles Singer, Religion and Science (considered in their historical relations)

Draper, J.W, The Hist. of Conflict between Religion & Science

الفصل السابع

مظاهر النزاع في إنجلترا البروتستانتية

في القرن السابع عشر والثامن عشر^(١)

مظاهر النزاع في هذا العصر — مقاومة باكون للسلطة — العقل والوحي عند جون لوك — حرية الاعتقاد بين هوز وجون لوك — اضطهاد نبوتن — المذهب الطبيعي الإلهي ومقاومته للدين التقليدي — مواضع الخلاف بين الطبيعيين ورجال اللاهوت — مناقشة المعجزات والحوارق — نقد الوحي المسيحي عند تتدال — الخطر في قيام المسيحية على العقل عند ددويل — هجوم شافنسبري على الكتاب المقدس — تدهمى الدفاع بالعقل عن المسيحية — موقف دافيد هيوم من وجود الله وحوارق العادات — حملة جيبون على المسيحية — دفاع « باليه » عن المسيحية — مقاومة حملات « بين » على المسيحية — كلمة أخيرة .

مظاهر النزاع في هذا العصر :

استجاب رواد الفكر الحديث في عصر النهضة لنداء العقل ، وقضوا ثلاثة قرون وهم يحطمون في بطنه واطراد ما ورد في المسيحية من أساطير ، وما تردد بصدد الوحي الإلهي من مزاعم ، ولما أقبل العصر الحديث استحالت هذه النزعة إلى مذهب عقلي تكفل أصحابه بالدفاع عن المنطق ، واستخدامه في تفسير كل ما يعرض لهم من ظواهر ، ولو كان في صميم العقيدة الدينية ، وممر اطراد التقدم في النظر والقول بكفاية العقل في بحث كافة الظواهر بمرحلتين ، نشأ في أولاهما المذهب العقلي ولبث قرنين من الزمان وهو يجاهد

(١) كان أكبر اعتمادنا في تصوير هذا النزاع على كتاب بيورى السالف الذكر ، ومن المفيد الاطلاع على كتاب روبرتسون السالف في الفصل السادس عشر من الجزء الثاني وكذلك :
Stephen, Leslie, Hist. of English Thought in the Eighteenth Century. vol I. 1881.

S. Maréchal, Dictionnaire des Athées ١٨٨٥ الطبعة الثالثة عام

J. M. Wheeler, Biographical Dictionary of Freethinkers مع إيجازهما

E. Sayons, Les Déistes Anglais et les Christianisme (1882).

خصومه ويمسك لنفسه على حسابهم ، فيعرض عن اللاهوت المسيحي ،
ويأبى الإذعان للكتاب المقدس مصدراً للحقائق ، يشد أزره في جهاده مارآه
أهله في الكتاب من بطلان وتناقض ومخافة للنطق ، وما تكشفته عنه هذه
المرحلة من حقائق علمية أثارت الشك في قيمة الوحي ، وإن كان المعروف
عن مفكرى هذه المرحلة ، أنهم لم يستعينوا بالأدلة القائمة على العلم إلا قليلاً .
فأما الدور الثانى لتقدم المذهب العقلى فقد شغل القرن الغابر ، وفيه
كانت المكتشفات العلمية ويلا على هذا البناء الذى شادته السذاجة والجهل ،
وتكفل النقد التاريخى بتقويض السلطة التى تهبأت للكتب المقدسة ، فكان
ججياً على هذه الكتب وشراً مستطيراً على القائمين بأمرها .

كانت النزعة القائمة عند قادة الفكر الأوروبى فى مطلع العصر الحديث ،
ترى إلى التسامى بالعقل وتمجيده على حساب السلطة الدينية ، وقد امتدت هذه
النزعة إلى القرن الثامن عشر ، واتصل أثرها برجال اللاهوت الذين كانوا
يخاصمون العقل خصاماً شديداً ، فاعتصموا بمنطقه وماربوا بسلاحه
خصومهم ، وبدا هذا أوضح ما يكون فى انجلترا إبان القرن الثامن عشر ،
إذ لم يجرؤ أحد هؤلاء اللاهوتيين على أن يدعى أن العقيدة الدينية فوق
متناول البحث العقلى ! . اعتصم رجال الدين بمنطق العقل وماربوا به خصومهم
من أهل العقل ، فانزلق الكثيرون منهم إلى مهاوى الإلحاد ! .

وقد كان أكبر ما يميز القرن السابع عشر ، من حيث النزاع بين العقل
والسلطة ، أن القائلين بكفاية العقل — مع استثناء مفكرى فرنسا فى القرن
الثامن عشر — كانوا فى حملاتهم على اللاهوت يتظاهرون (١) فى العادة
بالاعتقاد فى صدق الأفكار التى يتحررون مهاجتها ، ويزعمون أن تأملاتهم
النظرية لاتسمى إلى العقيدة الدينية ، وأن فى استطاعتهم أن يفصلوا بين ميدان

(٢) هذا المميز يذكركه بيورى على هذا النحو ، ويلوح لنا أن تعبيره بالتظاهر أخس مما
يبنى ، وكان بين فلاسفة فرنسا — كديكارت ومالبراش بوجه خاص — من لم يتظاهر بالإيمان
وربما كان النفس أصدق حين يكون للدلالة على جمهرة فلاسفة انجلترا ومفكرىها فى هذين القرنين

العقل ومجال الإيمان ، وأن يبرهنوا على أن الوحي زيادة طارئة لا قيمة لها . من غير أن يعرضوه للأذى . . . ! لقد كانوا يتغنون بالثناء على الدين ، في نفس الوقت الذي يضعون فيه آراء لا تجرى على وفاق مع تعاليمه ، وقد زجوا إلى ميدان اللاهوت بالكثير من المغالطات بعد أن ألبسوها ثوب الحقائق .

والمعروف عن الإنجليز أن طابعهم الغالب عليهم واقعي محض ، وهذا الطابع يتمثل في شتى مظاهر تفكيرهم ، ما كان منها دينياً وفلسفياً وسياسياً وأخلاقياً ، وسنرى في العصر الذي نؤرخه ، أن دعاة الدين الطبيعي قد أنكروا السمعيات والمعجزات وخوارق العادات ، وهاجموا القسس وأدلتهم النقلية في غير رفق ولا هوادة ، ولجأوا في إثباتهم وجود الله إلى الآيات السكونية والمشاهد الإنسانية .

مقاومة فرنسيس باكون للسلطة :

وبدت هذه النزعة الواقعية في أول أمرها عند فرنسيس باكون + ١٦٢٦ الذي حارب السلطة في مختلف صورها مصدراً للحقيقة ، واعتبر التجربة مصدرها الصادق ومعينها الذي لا يغيض ، وأبعد سلطان « النقل » عن مجال البحث العلمي ، ولم يمنع من هذا تدينه وإيمانه بوجود الله ، ذلك الذي جعله يذود عن اتحاد التفلسف والتدين في قوله : إن القليل من الفلسفة يميل بصاحبه إلى الإلحاد ، ولكن التعمق في دراستها ينتهي بالعقل إلى الإيمان . وفي كتابته عن الإلحاد يقرر وجود عقل في السكون ، ويلج في إقرار وجود الله لأن إنكاره إهدار لكرامة الإنسان ، لأن الإنسان يقرب من الحيوان بجسمه ، فإذا لم يقرب من الله بروحه كان مخلوقاً خسيساً دنيئاً ، بل إن إنكار الله يقضي على مروءة الإنسان وسمو طبعه وشرف نفسه ... إلخ .

كان البحث في العصر الوسيط إجمالاً ، لا يرمى إلى اكتشاف جديد وارتياح مجهول ، لأن الحقيقة معروفة نزل بها الوحي الإلهي ، والسابقون من

أهل الفكر الديني الذين اعتمدتهم الكنيسة لم يبقوا مجالاً لمجدد! فحسب الباحث أن يستخدم عقله في بحث الحقائق المنزلة كما اعتمدها الكنيسة ورجاها ، فإن تمكشفت البحث عن جديد ، وجب رده إلى النصوص المقدسة وإدخاله في نطاقها ، فإن تعذر ذلك لقي صاحبه عنثاً شديداً ! ولكن رواية الفكر الحديث قد ضاقوا بهذا منهجاً للبحث ، فزعموا في مطلع العصر الحديث إلى وضع مناهج لاكتشاف الحقيقة ، وكان أكبرهم شأنًا في هذا الصدد ، ديكارت في مقاله عن المنهج ، وقد عرضنا له من قبل ، وفرانسيس باكون في أداته الجديدة *Novum Organum* الذي عارض بها منطق أرسطو الذي بسط نفوذه على المفكرين ، فوضع به أساس المنهج التجريبي الحديث ، وفيه استهجن تسخير العلم لخدمة الدين ، واعتبر هدف النظر العقلي فهم الطبيعة لاستغلالها والإفادة منها في دنيانا الحاضرة ، عن طريق دراستها دراسة قائمة على المشاهدة والاستقراء التجريبي ، وبذلك انفصل العلم عن الدين ، وابتعد عن ثرثرة الجدل الأرسطاطاليسي في العصر المدرسي ، وتجنب الأدب اللفظي الذي استغرق عصر النهضة ، وأصبحت الحقيقة لا تجيء بإملاء الكنيسة ولا تستقى من الكتب القديمة ، وكان خلاص العقل من قيود العقيدة الدينية واستعباد الفلسفة اليونانية ، وفتنة الروح الأدبية ، وتيه التأملات العقلية التي يكلف بها دعاة البحث الميتافيزيقي ، والضلال الذي يوقع فيه تجنب المشاهدة والاستقراء ، فأدى هذا كله إلى تمكين العقل من تحقيق الغاية التي يهدف إليها البحث العلمي ، من حيث السيطرة على الطبيعة لصالح الإنسان في دنياه ، وبهذا تنصرف الجهود إلى العمل ، لا إلى مجرد التأمل والنظر ، لأن الإنسان فاعل قبل أن يكون مفكراً ، ومدبر للطبيعة وليس معبراً عنها . وقد وضع ليكون خطة هذا المنهج وفصل مراحلها ، وانتهى هذا إلى فصل العلم عن الدين ، لأن الحقيقة في الأول وليدة التجربة ، وفي الثاني وليدة الوحي ، وإلى رفض السلطة العالمية مصدرًا للحقيقة ، وإلى استهجان التسليم برأي لأن الكنيسة اعتمدهته أو قالت به .

وبهذا المنهج توَّجَّح باكون جهود أسلافه ومعاصريه من دعاة التجربة وخصوم السلطة ، سار مع الركب ولسكنه سرعان ما تولى قيادته وانتزع رياسته ، وإذا المنهج الذي كان صدى بيئته ، يطبع أوربا يطابعه ، ويتجلى في سائلة من الجمعيات العلمية نشأت للبحث التجريبي ، وقامت على رفض السلطة مصدرأ للحقيقة ، وكان من أظهر هذه الجمعيات مدرسة الطبيعيين الفلورنسيين (عام ١٦٥٧) والجمعية الملكية (في لندن ١٦٤٥) - وسميت في عهد تشارلس الثاني عام ١٦٦٢ بالجمعية الملكية لتقدم العلوم ثم سقط عجز الاسم بعد ذلك وكان من رجالها بويل ونيوتن - وتلتها أكاديمية العلوم في فرنسا عام ١٦٦٦ ، ثم الأكاديمية دل شمتو Academia del Cemento في إيطاليا ، وشاع إنشاء مثل هذه الجمعيات في أوربا كلها ، وعلى نمطها نشأت مرصد باريس عام ١٦٦٧ وجرينتش عام ١٦٧٧ ... إلخ . وكانت هذه كلها - بمنهج البحث عندها - معسكرات معادية للكنيسة ، ولولم تعلن أو تضم عداها !

العقل والوحي عند جون لوك :

وضح هذا التيار - في ناحيته الدينية بوجه خاص - على يد جون لوك J. Locke + ١٧٠٤ ، وهو الفيلسوف الذي استبدت بهوى الناس فلسفته وهو لا يزال على قيد الحياة ، وتأثر بها رجال عصره أعمق تأثر ؛ وقد اعتنق « لوك » مبادئ الكنيسة الانجليكانية ، وأبلى في الدفاع عن العقل بلاهأ حسناً ، ليقية طغيان « السلطة » ويبعد عنه سلطان « النقل » ، وقد وضع عام ١٦٩٠ أعظم مؤلفاته الفلسفية « مقال في العقل البشري » Essay on the Human Understanding أقام فيه الدليل على أن التجربة مصدر كل معرفة ، فالإحساس وحده هو الذى يزودنا بالصور الخارجية ، والتأمل العقلى وحده هو الذى يزودنا بالصور الذهنية ، وبذلك انتزع المعرفة من مجال السلطة ، وحرر الحقيقة من قيود الدين ، وأخضع الإيمان لسلطان العقل ؛ ومع إيمانه بالوحي المسيحى ، صرح بأن الوحي إن بدا على تناقض مع العقل ، وجب

رفضه وعدم الإذعان لأمره ، لأن هذا الوحي لا يستطيع أن يقدم إلينا معرفة تبلغ من اليقين ما تبلغه المعرفة التي يأتيها بها العقل ، « ومن استبعد العقل ليفسح للوحي مجالاً ، فقد أطفأ نور كليهما ، وكان مثله كمثل من يقنع إنساناً بأن يفتق عينيه ويستعيض عنهما بنور خافت يتلقاه بواسطة المرقب من نجم سحيق ! » .

وإذا كان لوك قد شارك ديكرت في رفض السلطة مصدراً للحقيقة ، فإنه لم يقنع بمخالفته في المصدر الذي تُستقى منه الحقيقة ، بردها إلى التجربة ، بل أثر التجربة على الوحي الديني مصدراً للحقائق ، وكان ديكرت على عكسه يؤثر الوحي على العقل ، على ما عرفنا من قبل . .

وقد وضع لوك كتاباً دليلاً فيه على أن الوحي لا يتنافى مع العقل ، وأن التوفيق بين الدين والفلسفة أمر ميسور ، وأسماه « مسامرة المسيحية للعقل » *The Reasonableness of Christianity* وكان له صدهاء في الخلافات الدينية التي ثارت في القرن الذي تلاه .

ومن الطريف أن المتزمتين من رجال الدين ، كانوا على اتفاق مع خصومهم من العقليين ، في القول بأن مسامرة التعاليم الدينية لشريعة العقل ، هي المقياس الوحيد لصحة الدين المنزل !

وقد أثرت فلسفة لوك تأثيراً مباشراً في « تولد » الإيرلندي الذي تحول عن مذهب الكنيسة الكاثوليكية إلى المذهب البروتستانتي ، فوضع كتاباً مشيراً للعواطف أسماه « المسيحية غير الغامضة » *Christianity Not Mysterious* عام ١٦٩٦ ، وفيه يرى أن المسيحية حق ، وأنها بريئة من الأسرار الخفية ، وهي العقائد التي يتعذر فهمها في ضوء المنطق العقلي ، لأن مثل هذا الخفاء ، لا تقبله شريعة العقل ، وإذا نزل وحي من إله مُدْعِن لشريعة المنطق ، وجب أن تكون غايته التنوير ، لا إثارة الحيرة والاضطراب في نفوس الناس — والكتاب بهذا امتداد طبيعي لفلسفة « لوك » ، وقد كان حظه من الرواج موفوراً .

هرية الاعتقاد بين هوبز وهوبه لوك :

ذهب توماس هوبز Hobbes + ١٦٧٩ إلى جمع السلطة التشريعية والتنفيذية والدينية في يد الحاكم ، بحجة أن الإنسان أناني بفطرته ، يؤثر مصلحته على كل اعتبار ، وقد أساء رجال الدين استغلال السلطان الذي تهيأ لهم ، ولهذا وجب أن يسحب منهم ويركز في يد الحاكم المستبد ، وباستبداده العادل ترتفع الموضوعات الدينية عما تستهدف له من وجوه الجدل ، وبهذا يكون من حقه أن يفرض على رعاياه الدين الذي يراه - وإن كان هوبز قد اضطر إلى العدول عن هذا الرأي لأن أكثر الانجليز بروتستانت يحكمهم في ذلك الوقت كاثوليك - بهذا يكون هوبز قد أقر الاضطهاد الديني ، ولكنه نقله من يد الكنيسة إلى يد الحاكم المطلق ، أما « لوك » فقد انطلق - على عكس هوبز - يبشر بالحرية الدينية ، وبنادي بتحرير العقيدة من الكنيسة والدولة معاً ، ويهدم النزعة الاستبدادية ، ويستبدل بها الحرية المطلقة والتسامح المحمود ، ويطالب بفصل الكنيسة عن الدولة ، ليكفل تحقيق هذه الآمال الباسمة .

وقد وضع « لوك » ، عام ١٦٨٩ رسالة عن التسامح الديني أورد فيها ثلاث رسائل يتم فيها البحث في هذا الموضوع ، أثبت فيها أن مهمة الحكومة تختلف كل الاختلاف عن مهمة الدين ، فالحكومة وظيفتها المحافظة على مصالح رعاياها المدنية ، والعمل على رقيها ، وليس عالم الروح من اختصاصها ، لأن الحاكم لا يملك إلا القوة المادية ، ولا شأن لمثل هذه القوة بالدين ، إذ أن الدين يقوم على اقتناع العقل اقتناعاً باطنياً ، وقد صيغ العقل بحيث إن القوة لا تستطيع قهره وإكراهه على الإيمان ، ومن أجل هذا كان من خطئ الرأي أن تعمد الدولة إلى إصدار قوانين تفرض بها ديناً من الأديان ، لأن القوانين لا تستقيم بغير عقوبات تفرض على من يعصى أمرها ، وليس في وسع العقوبة أن تُيسّر سبل الإقناع أمام الناس

طالب « لوك » بتحرير العقيدة من سلطان الدولة وطغيان الكنيسة معاً ، لأن الكنيسة في رأيه ، ليست إلا هيئة «مختارة حرة» ، ولو كان من الضروري أن تفرض المسيحية على من كفر بها عنوة واقتداراً ، لكان من الأيسر على الله أن يهدي هؤلاء الضالين بفيالق من كتائبه في السماء ، بدلا من أن يحقق هذه الهداية أحد من أتباع الكنيسة — بالغأ ما بلغت قوته ! وهذا يذكركنا بقول الامبراطور تباريوس : إذا كانت المعتقدات الإلهية إساءة إلى الآلهة ، فعلى الآلهة أن يقتصوا لأنفسهم !

وإن كان من الحق أن يقال إن « لوك » لم يتخلص من أوهام عصره وأحكامه المبتسرة ، فقد ناقض مبدأه في حرية الاعتقاد واستثنى من مبدأ التسامح ، الروم الكاثوليك والهرطقة ، لأن هؤلاء الذين لا يؤمنون بوجود الله ، لا يقيمون وزناً لعهد ولا قسم ولا ميثاق ، وبغيرها لا يستقيم المجتمع الإنساني ، ثم إنهم بتقويضهم الأديان كلها ، لا يملكون الادعاء بأن لهم ديناً يعطيهم الحق في طلب التسامح . . . !

اضطراب نيوتن :

ومن الخير أن نقول كلمة خاطفة عن حملة رجال اللاهوت على إسحاق نيوتن : ولد في العام الذي مات فيه جاليليو (١٦٤٢) ، وتمكن بدقة ملاحظته ونفاذ بصيرته ووقدة ذكائه ، من أن يكتشف أسرار الجاذبية بين الأجرام السماوية — بعد سقوط التفاحة أمامه على ما هو معروف — فانتهى إلى أن « الأجسام يجذب بعضها بعضاً بنسبة أحجامها طردأ ، وبنسبة مربع المسافة بينها عكساً » ، فأثار اكتشافه غضب رجال اللاهوت ، وقيل عن هذا القانون إنه يستبدل بعناية الله قوة الجاذبية ! وأنه أنزل رب الخلق عن عرشه ، وسلبه عمله المباشر في خلق الكون على نحو ما تقرر السكتب المقدسة ! واتهمه أوين Owen J. البيوريتاني بالمروق ، لأنه ناقض صريح النصوص المقدسة ! وزعم چون هاتشنسون في كتابه « مبادئ موسى » ، الذي نشره عام ١٧٢٤ ،

أن مبادئ نيوتن تفضى بمن اعتنقها إلى إنكار وجود الله أو من طريق
المفارقات أن يشترك في هذه الحملة الفيلسوف الألماني وليبنتز Leibnitz
وفي سنة ١٧٤٨ نشر اثنان من مشاهير الرياضيين في فرنسا كتاب نيوتن
«المبادئ»، وكانت مقدمتهما للكتاب شاهداً على مدى خوفهما من اضطهاد
السلطات الكنسية لرواد الفكر الجديد! وقد انتهت هذه الحملات بإثارة الشك
في قيمة نيوتن وعلمه، حتى قلَّ أتباعه، وانصرف عن محاضراته تلاميذته،
فمات بعد صدور هذا الكتاب المجيد بنحو أربعين عاماً، ولم يكن له إذ ذاك
أكثر من عشرين تابعاً - فيما يقول فولتير! هذه هي نهاية الرجل المتدين
الذي قيل فيه: إن الطبيعة كانت في ظلام دامس، فقال الله ليكن نيوتن،
فشاع النور في كل جوانبها!

المرزب الطبيعي ومقاومة المريمه التقليدى :

إذا كانت فلسفة «لوك»، قد مكنت للنزعة العقلية بحصر السلطة وإلزامها
الوقوف عند حدها، وعدم تجاوز ميدانها، والقول بأن التجربة وحدها مصدر
المعرفة اليقينية، فقد قوى «بايل» من هذه النزعة ومكَّن لها، وأثر في إنجلترا
وفرنسا تأثيراً واسع المدى، إذ أمد أعداء المسيحية بأسلحة تشد من أزر
عصيتهم، وكانت أول حملة بدت في مقاومة الكنيسة وسلطتها، هي حملة
الطبيعيين الإلهيين من الإنجليز Deists أولئك الذين آمنوا بوجود إله،
وأنكروا الوحي والرسل والمعجزات، وأصلوا رجال الكهنوت نار حملاتهم،
وطالبوا بإثبات وجود الله عن طريق الظواهر الكونية والمشاهد الإنسانية،
وإذا كانت كتاباتهم على حرارتها، لا تقرأ اليوم إلا قليلاً، فإن حملتهم
على سلطة الدين المنزل خليفة بأن نقف عندها تقديراً لها.

فإن دعواتها يشغلون مكاناً بارزاً في تاريخ المذهب العقلي في إنجلترا، وقد
خلفوا - مع بايل - تراثاً فكرياً مجيداً، استبد بهوى الطبقات المثقفة في فرنسا،
وأثر في جمهرة الكتاب في أوروبا:

بدا المذهب الطبيعي^(١) على يد هربرت شيربري Herbert of churbery + ١٦٤٨ إذ حاول الاهتداء إلى دين طبيعي تفضي إليه طبيعة العقل البشري ، معارضاً بذلك الدين التقليدي الذي يقوم على السلطة ، ومن رأيه أن الدين لا يكون ديناً إلا إذا اتفق الناس على التسليم به والإذعان لتعاليمه ، والقدر المشترك الذي تتفق فيه الأديان على اختلاف صورها ، هو المقياس الذي يقاس به ما فيها من حق ، وما تصدق فيه الأديان صدقاً مطلقاً يبدو في مبادئه ، أهمها القول بوجود الله ووجوب عبادته ، والاعتراف بقيام ثواب وعقاب في حياة أخرى ، والتسليم بالتوبة والجزاء . . الخ . وقد واصل البحث في الدين الطبيعي بعد هذا چون لوك ، فلم بوجود إله رأى أن الإنسان كون فكرته عنه من جميع ما في نفسه من صفات كاملة ، وتكبيرها وإضافتها إلى الله ، ولكنه أنكر وجود اتفاق عام بين الناس على فكرة الله وعبادته ، لأنه كان ينكر وجود أفكار فطرية يشترك فيها الناس جميعاً ، ولا تجيء عن طريق التجربة - فيما كان يقول ديكرت - ثم جاء « تولند » Toland + ١٧٢١ و ١٧٢٢ ، وتندال وغيرهما ممن حاولوا أن يقيموا الدين على أساس جديد ، وتوصلوا إلى هذا بنقد المسيحية وبعض تعاليم الكنيسة ، وإنكار الوحي والأديان المنزلة ، وتفسير العالم تفسيراً آلياً ميكانيكياً ، واستبعاد القول بأن الله يدير العالم ويقرر مصيره ، حتى انهدم بهذا أساس الدين الطبيعي بمعناه الأصلي .

والملاحظ أن المذهب الطبيعي يشابه مذهب الإلحاد ، لأن كليهما يعطل الإرادة الإلهية ، ويستبعد تأثيرها في العالم ويضيف للألوهية صفات تقديس لا معنى لها ، وينكر المعجزات وخوارق العادات ، ثم يفترض هذا المذهب وجود إله ليس له من عمل إلا أنه العلة الغائية للسكون ! ولا يملك الإنسان

(١) شرح هذا المذهب مأخوذ عن كتاب Introduction to Philosophy مؤلفه O. Külpe وقد نقله إلى العربية وعلق عليه الدكتور أبو العلا عفيفي أستاذ الفلسفة بجامعة فاروق تحت عنوان : المدخل إلى الفلسفة (١٩٤٢ م) .

إزائه إلا مجرد التقديس ، وهو فوق هذا كله يرى أن العالم تسوده الفوضى ، وأن الله يتجرد عن الكمال إذا هيمنت عنايته الدائمة على تدبير العالم وتحقيق ما هو صالح له .

مواضع الخلاف بين الطبيعيين ورجال اللاهوت :

أما موضوع الخلاف الذي كان مثار الجدل بين الطبيعيين وخصومهم من رجال اللاهوت ، فهو إمكان التوحيد بين إله الدين الذي نزل به الوحي المسيحي ، وإله الدين الطبيعي الذي تمكن العقل وحده - دون الاستعانة بالوحي المنزل - من أن يقيم الدليل على وجوده - فيما يقول هؤلاء الطبيعيون . وقد بدا هذا التوحيد في نظر الطبيعيين مستحيلاً ، لأن طبيعة الوحي الذي يقول به خصومهم ، تبدو على غير اتساق مع طبيعة الله الذي اهتدى إليه العقل البشري بطبيعته . ولكن المدافعين عن الوحي - أو أكثرهم على أقل تقدير - كانوا على اتفاق مع الطبيعيين ، في الاستجابة لنداء العقل ، وجعل كلمته هي العليا ، ومنحه السلطة على الوحي ! وبهذا الاعتماد على شريعته العقل ، انحدر بعض اللاهوتيين إلى مزلق الهرطقة ! أي أن سلاح خصومهم قد أضر بهم حين تقلدوه وامتنعوا به في تقوية مركزهم ! ولم يكن هذا غريباً لأن الأصل في الدين أنه غيبي يقوم على الإيمان بما فوق العقل ، فالاعتصام بالعقل لتوطيد دعائمه ، ومسيرة الحاجة إلى أقصى آمادها ، تفضي إلى تداعي الدين وانهاره .

أما الباعث الرئيسي على ذلك الجدل السالف بين الطائفتين . فقد كان الاهتمام بالأخلاق ، إذ رأى رجال اللاهوت أن عقيدة الثواب والعقاب في الحياة الأخرى لازمة لصيانة الأخلاق ، ورأى خصومهم من الطبيعيين أن الأخلاق لا تقوم إلا على العقل وحده ، وأن الوحي قد جاء بالكثير مما يتنافى مع المثل العليا في الأخلاق كما أقرها العقل !

لقد وضع «سبينوزا» Spinoza المبدأ الذي أوجب تأويل الكتاب المقدس على نحو ما يؤول غيره من الكتب (١٦٧٠) وضمن هذا المبدأ كتابه

رسالة لاهوتية سياسية ، Theological Political Treatise وترجمت هذه الرسالة إلى الإنجليزية عام ١٦٨٩ ، فاعتنق الطبيعيون هذا المبدأ واعتصموا به ، ولكنهم خافوا اضطهاد السلطة فدفعوا آراءهم إلى الناس مقنعة يخفيها ستار رقيق ..! ولم يكن هذا الفرع الذي يساورهم من اضطهاد خصومهم أمراً بدعا ، فإن قانون الرقابة على المطبوعات (١٦٦٢م) قد حرم على الناس حتى القرن الثامن عشر ، نشر الآراء التي تناهض الدين ، حتى أننا لانعرف مدى شيوع النزعة العقلية في هذا العصر ، إلا من كثرة الكتب الدينية التي وضعها أصحابها للتشهير بالملحدين ، وهجو آرائهم الخبيثة ! وما أهمل العمل بقانون المطبوعات عام ١٦٩٥ ، حتى أخذت مؤلفات الطبيعيين في الانتشار ، ولكن الاتهام قد ظل قائماً تزكیه قوانين التجديف .^(١) Blasphemy Laws التي وضعت لسكبج الذين يهاجمون المسيحية ، وقد عرفت انجلترا ثلاث قوى تستخدمها ضد من هاجموا المسيحية وهي :

(١) المحاكم الإكليريكية ، وقد كانت ولا تزال بها سلطة تخوّلها حق الأمر بالسجن مدة لا تزيد على ستة شهور ، في حالة الإلحاد والتجديف والهرطقة ، وإعلان الآراء التي تجاب اللعنة على أصحابها .

(٢) القانون العام كما فسره قاضي القضاة هيل ، Hale عام ١٦٧٦ حين اتهم رجل بأنه زعم أن الدين غش وخداع ، وأنه أساء إلى المسيح ، فأدين وعُرم وشُد إلى وتد التشهير ، وصرح القاضي بأن تلك القضية تدخل في اختصاص المحاكم الأهلية مادامت ألفاظ التجديف وأمثاله تعتبر إهانة موجهة إلى الدولة وقانونها ، والتعريض بالمسيحية تحريض على عصيان القانون ، لأن المسيحية هي « جماع القوانين الإنجليزية »

(٣) قانون عام ١٦٩٨ الذي ينص على أن كل مسيحي ينكر - عن

(١) يراد بالتجديف في عرف الانجليز إنكار وجود الله أو عنايته أو الطعن في المسيح أو قذف الكتاب المقدس أو محاولة السخرية منه .

طريق الكتابة أو القول الشفوي أو الطبع أو المحاضرة ، ألوهية أحد في الثالوث الأقدس - الأب والابن وروح القدس في عقيدة التثليث - أو يؤكد أو يواصل القول بوجود أكثر من إله واحد ، أو ينكر أن تكون المسيحية ديناً حقاً صادقاً ، أو يرفض القول بأن الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد صادر عن الله ، من يقع في هذا يدان ويحق عليه العقاب ، وهو في أول مرة يعاقب بحرمانه من الوظائف والمهن العامة ، فإن عاود الخطأ فقد حقه المدينة وزج به في السجن ثلاث سنوات ! وقد قيل في تفسير هذا القانون ، إن الباعث على وضعه أن الكثيرين جهروا في السنوات الأخيرة ، أو نشروا كثيراً من آراء التجديف والإلحاد التي تتنافى مع عقيدة الديانة المسيحية وأصولها .

والواقع أن أكثر المحاكمات التي جرت من أجل التجديف في القرن السابع عشر والثامن عشر ، قد وقعت تحت طائلة البند الثاني . ولكن القانون الأخير ، كان مثار الفزع ومدعاة التستر والتخفي عند الملحدّين ، ومن مظاهر هذا التخفي ، النزوع إلى تأويل الكتاب المقدس وعدم التقيّد بجرافية نصوصه ، لأن مثل هذا التقيّد - فيما رأى الطبيعيون - يكشف عن وجوه من التناقض والعبث تتنافى مع حكمة الله وعدالته ، ومن أجل هذا طالبوا بتأويل النصوص في ضوء العقل ، وكان مقصدهم من وراء هذا أن يسيئوا إلى الوحي ويشيروا الشك في أمره عند الناس .

مناقشة المعجزات والخوارق :

وقد استخدم رجال اللاهوت المعجزات والتنبؤات التي وردت في العهد الجديد ، شاهداً على صحة الوحي وصدقه ، وأبى خصوم الوحي من الطبيعيين أن يقرّوا هذا الشاهد . وفي الحق إن الاعتراض على المعجزات وخوارق العادات ، يؤدي إلى هدم الأديان جميعاً ، لأن الأصل في الدين أنه يدعو إلى الإيمان الغيبي بما فوق العقل ، والاعتراض على هذا مع

محاولة إخضاع الدين إلى منطق العقل وامتحان التجربة والمشاهدة ، كفيل بهدم الدين من أساسه ، والتسليم به يفضي إلى التسليم بخوارق العادات ، لأن الأصل في العلم أنه يقوم على تلازم الأسباب والمسببات أو عدم تلازمها ضرورة ، ولزوم السبب للسبب يبطل المعجزات وخوارق العادات ، فضلا عن إبطال الوحي كله والمعتقدات الأصلية في الأديان ، لأن هذا يستلزم القول بأن الفاعل الذي يؤثر في الأشياء والموجودات يكون من داخل لا من خارج ، وفي الإيمان تأييد ذلك المبدأ بالمشاهدة والتجربة ، أما المؤمنون بالدين فيرون أن الفاعل من خارج وليس من داخل ، وبذلك يصبح وراء الفعل . . . وقد ثارت هذه المسألة في الإسلام ، وأيد الفلاسفة المبدأ العقلي السالف ، وأنكره المتكلمون واحتالوا على تأويله^(١) . فلما ثارت المشكلة في أوربا لم يقف الموافقون على الدين في إنجلترا موقف المتكلمين في الإسلام ، بل اعتصموا بالعقل . وحاولوا تبرير المعجزات بمنطقه ، فخافهم سلاحهم المستعار ، لأنه لا يصلح في مثل هذا الميدان . . . ومن هنا كانت هزيمة رجال اللاهوت .

وقد نشر « أثنوفى كولنز » A. Collins تليذ « لوك » عام ١٧٣٣ كتابه « تمهيد في أصول المسيحية وأسبابها ، كشف فيه عن ضعف الأدلة على تحقق النبوءات ، تلك التي تستند إلى تأويلات مجازية متكلفة ؛ وكتب قبل هذا بعشرين عاما رسالة في التفكير الحر ، ضمنها المطالبة بحرية البحث وإرجاع الأمور الدينية كلها إلى شرعة العقل ، وأعلن فيها شكواه من التعصب الذي استشرى داؤه - ولعل من الإنصاف أن نقول إن الدلالات التي تشهد بقيام التعصب ، تنهض دليلا على شيوع الإلحاد واستفحال أمره .
وإذا كان « كولنز » قد أفلت من اضطهاد خصومه ، فإن « توماس ولستون Th. Woolston » بجامعة كمبردج ، قد دفع ثمن جرءه وتهوره الذي بدا في ست

(١) أنظر فرح أنطون في مناقشته للاستاذ الامام في « ابن رشد وفلسفته »

مقالات عنيفة أسماها « مقالات في معجزات مخلصنا » (١٧٢٧ - ٣٠) إذ حرم من طلب العلم ، وقدم للحاكمه بتهمة القذف ، وأدين بغرامة قدرها مائة جنيه ، وزج في السجن عاماً - وقد عجز عن دفع الغرامة ومات سجيناً ! وهو لا يحاول البرهنة على استحالة المعجزات أو بحجافتها للصدق ، بل يتناول بالبحث أهم المعجزات التي وردت في الأناجيل ، ويحاول في مهارة ونفاذ أن يكشف عن تناقضها وعدم جدارتها بمن قام بها !

على أن « ولستون » كان يؤمن بأن الكتاب المقدس من وحى الله ، وكان يضيق بتفسير المعجزات تفسيراً حرفياً ، ويراها مجرد رموز لأعمال خفية أُنسب بها المسيح في نفس الإنسان ، وقد اعتمد في تأويلها على أقوال أثرت عن أب مسيحي غير متعصب هو « أوريجان » Origen فيقتبس منه ويستشهد به ، ويملاً انتقاداته بفحش الكلام البذيء . ومن أجل هذا أغفل البعض الاهتمام بها ، ولقيت عند الناس رواجاً ملحوظاً ، ومن دلالات شهرته السيئة أن فتاة مرحلة لقيته ذات مرة فقالت له على غير معرفة به : ألا تزال حياً لم تشق بعد ، أيها الماكر الخبيث ؟ فقال لها : أى خطأ ارتكبته معك أيتها السيدة المهذبة التي لا تربطني بك معرفة ؟ فقالت له : إنك تهاجم في كتاباتك مخلصي المسيح ، فن لنفسي المثقلة بالذنوب ، إذا لم يشفع لها مخلصي الجيب ؟

نقد الوحي المسيحي عند تيرال :

وفي الوقت الذي عانت فيه المعجزات حملات ولستون ، تلقى الوحي هجمات ماتيدو تيدال M. Tidnal من وجهة نظر أعم ، لم يهاجم المعجزات باعتبارها شاهداً على صدق الوحي - كما فعل ولستون ، بل واجه الوحي كله ، وجدّد في اجتهاده من جذوره ، فوضع في عام ١٧٣٠ كتابه « المسيحية قديمة قدم الخليقة ، وقرر فيه أن الإنجيل باعتباره كتاباً منزلاً لا قيمة له ، لأنه لا يضيف شيئاً للدين الطبيعي الذي كشفه الله للإنسان منذ بدء الخليقة بنور العقل

وحده ، والذين يتوسلون إلى الدفاع عن الدين المنزل ، بالتوفيق بينه وبين الدين الطبيعي الذي تكشف عنه النظر العقلي ، ومن ثم يقيمون سلطتين للعقل والنقل ، يقعون في الكفر بين هاتين السلطتين . وإنه لخلط غريب — فيما يقول هو نفسه — أن يبرهن على صدق كتاب ، بصدق المبادئ التي يحويها ، ثم يقرر في نفس الوقت صدق هذه المبادئ لمجرد وجودها في هذا الكتاب . . . ! هذا دور فيما يسميه المناطقة .

ثم يمضي ، تندال ، بعد هذا إلى نقد الإنجيل في إسهاب ، فيقول إنك إن أردت التمسك بعصمة الإنجيل ، دون أن تسيء إلى العقل الذي تدين به ، فعليك أن تناول الآيات التي تتنافى مع حكم المنطق السليم ، بالتأويل والتحوير حتى تبعد بها عن معناها الحرفي ، فيستقيم أمرها مع منطق العقل ، ألا ترى أن المسلم الذي يفعل هذا في كتابه المقدس لا يصبح من أتباع هذا الكتاب ؟ ألا يقصر كتابه المنزل عن التماسي إلى مؤلفات شيشرون التي لم ينزل بها وحى ، والتي لا يتطلب فهمها البعد عن حرفية معناها ؟

والإنجيل فيما يقول خصومه ، قد تضمن من الأخطاء الطبيعية والتاريخية ، ما يهدم عصمته من الوقوع في الزلل ، ولكن أحد رجال الكهنوت قد قال — وقوله الحق — إن الله يخاطب الناس في كتابه المقدس حسب مداركهم ، وعلى قدر تصوراتهم في ذلك الحين ، وليس من عمل الوحي أن يقوم آراء الناس ويصحح أخطأهم في الموضوعات التي يعرض لها ، ولكن « تندال » يقون في رده على هذا : إن هذا يقضى بنا إلى القول بأن الله يتوقف عن إصلاح الخطأ في آراء الناس ، ثم يؤيد هذه الآراء الباطلة باتباعها في حديثه ، ويأبى أن يقوم المنطق الفاسد عند عباده ، ثم يزاوّل التفكير في ضوء أحكامه الباطلة بالتزامه في كلامه ! فهل يتست حكمة الله اللامتناهية من اكتساب عواطف الناس ، والاحتفاظ بها ، دون الاستعانة بمثل هذه الأمور التافهة ؟ ثم يعرض بعد هذا إلى غرابة « عقيدة الخلاص » بنقد سر فيقول عن

المسيح عليه السلام : إن أبواب السماء كانت مفتوحة أمام الناس ، فأقبل عليهم من أغلق هذه الأبواب المفتحة ، حتى إذا تمَّ له ما أراد ، أهاب بالناس أن ينتظروا على يديه الخلاص ! كيف يمكن في حكم العقل أن يقال عن هذا إنه مخلص البشر ومنقذهم من أعباء المعاصي والآثام ؟ ثم يكشف ، تندال عن التناقض بين ما ندركه بنور الفطرة وحده ، من خيرية الله العادلة الشاملة ، وبين الأعمال التي تعزى إلى الله ورسله في التوراة ، ويستشهد بالحالات التي خولف فيها نظام الطبيعة ليتسر عقاب الناس على آثام لا يد لهم في وقوعها . ! وإذا كان الله قد عبث بنظام مملكته ليأخذ البريء بجريرة المذنب ، إذا كان هذا مسلكه في حياتنا الدنيا ، فأى ضمان لنا في أن يغير الله هذا المسلك الجائر في حياتنا الأخرى ؟ وإذا كانت قواعد العدالة الأبدية قد أهملت مرة ، فكيف للعقل أن يتصور الكف عن العبث بها بعد ؟ في الحق إن المثل العليا للعدالة والقداسة في « العهد القديم » تثير الدهشة ، لأن أصحاب هذه المثل يتمثلون في هذا الكتاب وقد كلفوا بالقسوة وعكفوا على قذف الناس والطعن فيهم ! أليس غريباً أن نرى النبي « اليسع » Elisha يلعن باسم الله صغار الأطفال ، لأنهم دعوه بأملط الرأس ! وأليس أدعى إلى الدهشة أن تبتلع دبتان في الحال اثنتين وأربعين طفلاً من هؤلاء الصغار !

الخطر في قيام المسيحية على العقل (هنري ددويل) :

قلنا فيما أسلفنا إن رجال اللاهوت كانوا في هذا العصر بوجه عام ، يقيمون المسيحية على شريعة العقل لا على أساس الإيمان ، وهذا الاتجاه لا يسلم من معارضين ، أظهرهم « هنري ددويل » H. Dodwell (الصغير) الذي وضع عام ١٧٤١ كتيباً شائعاً عن « المسيحية لا تقوم على الحجة » وأظهره في صورة خطاب موجّه إلى صديق في أكسفورد وأشار فيه إلى الأخطار التي تنجم عن هذا الاعتماد على منطق العقل واستدلالاته ، ومن سخرية الأقدار ان تكون هذه الرسالة نتيجة مبدأ « بايل » الذي يفترض أن أصول المسيحية

تنافى مع العقل ولا تسير بالضرورة أحكام المنطق إن قيام الاعتقاد في صحة وحيها على أساس المنطق العقلي، يندر بكل سوء، إن من نزعت نفسه إلى الإيمان، قاده العقل إلى الهداية، وأن غرس الإيمان وغرس العقل ينتهيان إلى نتائج متناقضة، والفيلسوف بتغلغله في مجاهل الحكمة الدنيوية، لا يصلح لتلقى الأوامر الإلهية، والأناجيل لا تُلقى سرها إلا لمن يتلقاها بقلبه الخاضع ونفسه الصافية - صفاء الطفل الذي تجرد عن كل ميل الإميله إلى حفظ درسه! والمسيح لم يعرض عقيدته لتكون موضعاً للبحث والجدل، ولم يقدم حواريه البراهين الدالة على صدق رسالته، ولم يدع لهم الوقت الذي يتطلبه بحشم لها، والحرية التي يستلزمها التفكير في تعاليمها، حتى ينتهوا من هذا بإعلان ما يقرره عقلمهم بصددها، ولم يكن الحواريون أهلاً لأداء هذه المهمة، لأنهم كانوا أعظم أهل عصرهم سلامة قلب وصفاء نفس، وأبعدهم عن الدرس والتعلم . . !

ويستطرد « ددويل » من هذا إلى موقف البروتستانت، ويبين عن تداعيه، لأن من الخطر أن تعطى كل إنسان حق الحكم لنفسه، ثم تتوقع بعد هذا أن يحرص على الدين حرص التقي المتمسك بتعاليمه، وإذا كان رجال الإصلاح الديني قد هاجموا ادعاء البابا العصمة، فإن في موقفهم من الحكم الفردي ادعاء ملحوظاً .

هجوم سافنبري على الكتاب المقدس :

ونلاحظ بما أسلفناه، أن معظم الملحدين في هذه الفترة، قد جنحوا إلى نقد الدين التقليدي المنزل، والتعلق بالدين الطبيعي الذي اهتدى إليه العقل بفطرته، وفكرة هذا الدين على ما عرفناها من قبل، قد انحدرت من الفلسفة القديمة، وجدّت في إحيائها للورد هربرت شيربري في بحث وضعه باللاتينية عن الحق، في حكم جيمس الأول، وكان الطبيعيون يلحسون في اعتبار هذا الدين الطبيعي، أساساً كافياً للأخلاق، ويقولون إن إغراء المسيحية للناس، على

اتباع السلوك الخَيْر لا قيمة له إطلاقاً ، فقد عرض للبحث في هذا الموضوع شافنسبرى Shaftesbury في كتابه « بحث عن الفضيلة » ، وضعه عام ١٦٩٩ ، وقر فيه أن الإغراء على اتباع السلوك الخَيْر ، بالأمل في نعيم الجنة المقيم ، والتخويف من عذاب النار الأليم ، مفسدة للأخلاق ، وحسب الانسان باعثاً على فعل الخير ، جمال الفضيلة في ذاته ، بل إن افتراض وجود الله غير ضرورى عند وضع القانون الخلقى . ثم إن آراء الملحدون لا تهدم الأخلاق ، ولكن الإيمان بوجود حاكم خَيْر يهيمن على هذا السكون ، عون عظيم على مواصلة الفضيلة ، وشافنسبرى من غلاة المتفانين الذين يرضون كل الرضا عما يرونه في السكون من تلاؤم معجز بين الوسائل وغاياتها ، يصبح بمقتضاه بعض الحيوانات طعاماً لبعضها الآخر ، وهو لا يحاول التوفيق بين وحشية الطبيعة ، ورحمة خالقها القادر ، ولو سئل الملحد عن رأيه في ذلك ، لقال إنه يؤثر أن يكون تحت رحمة المصادفة العمياء ، على أن يكون في يد حاكم مستبد قاهر ، يخلق الذباب لكي يبتلعه العنكبوت - ولكن هذه النظرة لم تكن مثار الاهتمام عند مفكرى القرن الثامن عشر ، فإذا مررنا بها ، لاح لنا شافنسبرى نافرأ من « الإله » كما بدا في التوراة ! وهو يهاجم - تليحاً وتصريحاً - ذلك الكتاب المقدس ، ويشير تليحاً إلى أنه لو كان هناك إله ، لكان أقل ضيقاً بالملحدون ، منه بأولئك الذين آمنوا بوجوده في صورة « يهوذا » ، وكان يقول ما قاله بلوتارك : أحبّ إلى أن يقال عنى بعد : لم يوجد في الماضى ، ولا يوجد في الحاضر رجل اسمه بلوتارك ، من أن يقال : وُجد بلوتارك وكان رجلاً خليعاً ماجناً سريع القلب أخذاً للثأر . ونظرية شافنسبرى في الأخلاق على ضحولتها ، قد أثرت في مفكرى فرنسا وألمانيا في القرن الثامن عشر تأثيراً واسع المدى .

تراعى الدفاع بالعقل عن المسيحية :

كان العقل ملاذ الطبيعيين من المؤلّهة ، وخصومهم البارزين من رجال اللاهوت على السواء ، كما أشرنا من قبل ، اعتصم به المعسكران في نصره

قضيتهما ، ووجه الطرافة في موقف رجال اللاهوت ، أنهم حين لجأوا إلى العقل واستشهدوا بمنطقه ، ساهموا كثيراً في تفويض سلطة النقل وهدم قضيتهم ! وفي موقف مؤيدي المسيحية في هذه الفترة ما يشهد بما نقول :

صادفت المسيحية تأييداً من رجل يُسَظن أنه أقدر الفلاسفة الطبيعيين وأعلمهم على وجه التحقيق ، هو الموقر « ك . مدلتون » Conyers Middleton الذي بقى في حظيرة الكنيسة ولم ينسلخ عنها ، وقد أقام انتصاره للمسيحية على أساس نفعي بحت ، فقال إن العمل على هدمها ، مع افتراض أنها أكذوبة ، ضلال مبین ، لأنها تقوم على القانون ، ووراءها ماضٍ طويل من التقاليد ، والعمل على تفويض المسيحية ، لإحلال العقل مكانها ، جهد لا يرجى من ورائه خير ، على أن الأدلة التي ساقها لتأييد قضيته ، قد أفضت بقرارها إلى هدم الوحي وتفويض المسيحية ..! « فبحثه الحر في المعجزات المسيحية » (١٧٤٨) يلتقي ضوءاً جديداً على موضوع كان مشار الجدل منذ القدم ، وهو : متى عجزت الكنيسة عن إثبات المعجزات ؟ وسنرى بعد قليل كيف نهض « جيون » بتطبيق منهج « مدلتون » في حملته على الدين .

وإلى مثل هذا الاتجاه العقلي ، سار الأستاذ « بطار » وهو أكبر المدافعين عن الدين ، فنشر كتابه Analogy عام ١٧٣٦ ، فاتهم هذا الدفاع الحار بأنه كان أكثر إثارة للشكوك ، في عقل القارىء ، منه تسكينها ! . كان هذا أثره في « وليم بت الصغير » وقد انتهى بالفيلسوف النفعي « جيمس ميل » J. Mill إلى الكفر .. !

وقد برهن الطبيعيون من المؤمنين على أن إله الطبيعة الذي أهدتوا إليه بمنطق عقولهم ، لا يمكن أن يكون هو ذلك الإله الذي تصفه التوراة والأنجيل بالقسوة والظلم ، فأشار بطار إلى الطبيعة قائلاً ، إنها مليئة بالقسوة والظلم ! فكان في هذه الإشارة اعتراف صريح بنتيجة كان يخشاها ، وهي أن الإله العادل الرحيم الفعال للخير لا وجود له ! فاضطر بطار إزاء هذا إلى أن

يلتجى . إلى الأدلة الشكية القديمة التي تقول إن علمنا الضيق يحول دون إدراكنا لهذا الإله ، وأن كل شيء ممكن الوجود ، حتى نار الجحيم المخلاة ، وعلى هذا يكون آمن الطرق وأساليبها ، اعتناق الدين المسيحي المنزل . . . وهذا دفاع لا يخص ديناً دون دين .

والواقع أن « بطار » قد أحيا بهذا دليل « بسكال » ، فيلسوف الرهان ، الذي يقول : إذا كان هناك احتمال واحد في أن تكون المسيحية صحيحة صادقة ، لكان من مصلحة الإنسان اعتناقها ، لأنه لن يخسر إن ثبت بعد هذا بطلانها ، إلا ما ضحى به في حياته من لذات تافهة ، ولكنه يربح ربحاً طائلاً إن تحقق احتمالها حتماً ! ولقد أفرغ بطار وسعه في ترجيح هذا الاحتمال ، ولكن محاولته تعادل في قيمتها الفعلية والحلقية ما كان لدليل بسكال !

هذا بعض ما جرى من نزاع عقلي بين الطبيعيين من المؤلثة وخصومهم من رجال اللاهوت إبان هذا العصر ، فلتتبع هذا النزاع عند دأيد هيوم :

موقف هيوم من وجود الله وفوارق العادات :

لاحظ « هيوم » + ١٧٧٦ أكبر فلاسفة الانجليز في القرن الثامن عشر ، أن فكرة « الدين الطبيعي » ألصق بتاريخ الكنيسة منها بتاريخ الفلسفة ، لأن الأصل في هذه الديانة أن بعض رجال الدين قد قاوموا سلطة الكنيسة ، طمعا في أن يزداد على حساب ضعف نفوذهم ، فلما ضعف نفوذهم اعتصموا بالعقل واستندوا الى نوره الفطري في التبشير بالدين الطبيعي .

ومن الخير - قبل أن نتحدث عن هيوم - أن نشير إلى باركلي + ١٧٥٣ الذي كان مؤمناً كامل الإيمان ، فسأته موجة الإلحاد والإباحة واللا دينية التي فشت في عصره ، فردّ هذه الحركة الجارفة إلى المادية التي كان يبشر بها الفلاسفة ، وحاول أن يجتث الشر من جذوره ، فرد الحقائق كلها إلى الفكر ، وقرر أن الأجسام في شتى صورها ليست إلا ظواهر لا حقيقة لها ، وإذا انتهى إلى هذه اللامادية التي قضى بها على العالم المادى ، وأقر مكانه العالم

الروحي ، واصل دفاعه عن الوحي المسيحي ، ومهاجمته لدعاة الإباحة في كتابه « ألسفرون Alciphron أو الفيلسوف الصغير ، ولكن هذا الإسراف في التفكير الروحي إذا كان قد أودى بالعالم المادي ، فإنه انتهى عند خليفته « هيوم ، إنكار العالم الروحي . . . !

قرر هيوم في كتابه « محاورات في الدين الطبيعي - الذي نشر بعد مئاته بثلاث سنوات - أن أدلة الطبيعيين على إثبات وجود الله متهافة متداعية، وعرض لمناقشة « برهان الغائية» الذي استند اليه المسيحيون والطبيعيون معا ، وخلاصته أن العالم محتاج الى صانع ممتاز بالخبرة والذكاء ، إن فيه آيات تشهد بوجود مدبر للكون ، إن بين الوسائل وغاياتها تلاؤما معجزاً لا يمكن رده الى غير خطة مقصودة ، وضعها عقل قوى قادر ، ويعترض هيوم على هذا الدليل فيقول إنه لا يرضى الصوفية لأنه يتضمن تشبيها ماديا ، ولا يعجب أهل الجدل لأنه يسمح بوجود أكثر من إله ، إنه لا يبرهن الا على وجود إله قد يسمو على الانسان ، ولكن سلطته محدودة وصناعته يعوزها الاتقان لا محالة ، لأن الكون عند الطامحين المثاليين مليء بالأخطاء ، ان دنيانا الحاضرة تبدو وكأنها أول محاولة فجأة لإله طفل ، فلها اتسعت خبرته ونمت مداركه تخلى عنها وندم عليها وأخجله نقص صناعته !! أو كأنها من صنع إله يباشر التمرين ويزاوله ، وهي تثير عند أستاذه السخرية ! أو كأنه من صنع إله طاعن في السن متقاعد ، مات وخلف مخلوقه يحيا مستهتراً ، خير للمسيحيين والطبيعيين معا ألا يكون لهذه النظرية وجود ! ولكن هيوم قد قبل بعاطفته أكثر المبادئ الدينية التي أخضعها للشك بعقله ، فالشك حال طارئة ، سرعان ما تزول ليأخذ اليقين مكانها .

وقد عرض هيوم في « مقاله عن المعجزات » وفي كتابه الفلسفي « بحث في العقل البشري » (١٧٤٨) الى مناقشة موضوع المعجزات ، وكان البحث فيها الى عهد هيوم ، غير مستقل عن المزاعم اللاهوتية ، فرأى هيوم أن من

الضرورى أن يوجد مقياس عام موحد يجرى على كل حادث خارق للعادة ،
وتصديق المعجزات لغرابتها ، يتطلب من الشواهد أكثر مما يتطلبه الحادث
العادى ، فوضع قاعدة عامة هى ، لا تكفى البيّنة لإثبات المعجزة ، إلا متى
كانت بحيث يكون كذبها معجزة أكبر من الحقيقة التى تحاول إثباتها ، ولكن
الملاحظ أن ليس ثمة بيّنة يمكن اعتبار بطلانها معجزة ، وليس فى وسعنا أن
نجد بين صفحات التاريخ معجزة واحدة ، أثبت صدقها عدد كبير من الناس ،
امتازوا بدقة الإدراك الذى يرتفع فوق كل شك ، وتربية قومية وعلم يقيهم
احتمال الغفلة ، ونزاهة ترفعهم عن سوء الظن وتأنى بهم عن تضليل الناس ،
وسمعة طيبة تخيفهم من سقوط اسمهم إن عرف عنهم زور أو بهتان ، يدرسون
هذه الحقائق ويفحصونها على ملاء من الناس حتى تكون شهادتهم بصدق
المعجزة ، صحيحة لا يأتيها الباطل فى حكم أو رأى .

صحة مبيون على المسيحية :

كانت فلسفة هيوم الشككية ، أقل تأثيراً فى رأى العام من كتاب «جيبون» ،
Gibbon «اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها» ، وربما كان من بين
المؤلفات الكثيرة التى نشرها أحرار الفكر فى إنجلترا إبان القرن الثانى عشر ،
الكتاب الوحيد الذى أصاب بين القراء رواجاً واسع المدى ، وقد عالج فى
الفصلين الخامس عشر والثامن عشر منه «أسباب قيام المسيحية ونجاحها» ،
باعتبارها مجرد ظاهرة تاريخية ، وكان على «جيبون» أن يسلك مسلك
معاصريه فى التظاهر باحترام العقيدة الدينية ، حتى يفلت من اضطهاد
رجالها ، وقد أثنى على هذه العقيدة ثناء ملؤه السخرية ، فصرح بأن انتصار
المسيحية ، مرده الى ما تضمنته من قوة التدليل ، والإحكام فى تدبير مبدعها
العظيم ، ثم استطرد الى تتبع تاريخ هذه العقيدة الى أيام قسطنطين بطريقة
توحى اليك أنك أمام حركة بشرية محمّنة ، قد تجردت عن كل أثر لتدخل
العناية الإلهية !

ويعرض « جيون » إلى المعجزات من وجهة النظر التاريخية ، وهو يدين بالكثير في هذا الصدد إلى مدلتون ، فيقول إن المؤمنين جميعاً يؤمنون بخوارق العادات ، ويعتقد كل عاقل أنها لا تقع في هذه الأيام ، وقد شهدت العصور الغابرة بوقوعها ، فحتى توقفت هذه المعجزات . . ؟ كيف التبس الأمر على آخر جيل شهد آخر معجزة فلم يستطع أن يميز بينها وبين الدجل ؟ في الحق إن ما عرف عن المؤمنين السابقين من سذاجة أو سلامة نية ، خير معوان لقضية الدين .

ولكتاب « جيون » قيمة باعتباره أكبر سجل لتاريخ العصر الوسيط ، ولا يملك قارئه — بالغاً ما بلغ تدينه — أن ينجو من سمومه !

دفاع بالبراهمة المسيحية :

كان تطابق الدين المنزل وتلاؤمه مع الدين الطبيعي ، مثار الجدل الديني في النصف الأول من القرن الثامن عشر ، وقد استفند الطبيعيون حملاتهم في هذا الصدد في منتصف هذا القرن ، وخيل إلى رجال اللاهوت أنهم قد انتصروا بإقناع خصومهم ، ولكن صدمت الطبيعيين لا يكفي حجة تنهض على أن الدين المنزل حق لا ريب فيه ، إذ كان من الضروري أن يدللوا على أنه صحيح يقوم على أسس تاريخية مكينة ، وهذه هي المسألة التي أثارها نقد هيوم ومدلتون للمعجزات ، وكان أبرع جواب هو الذي قدمه « پاليه » Paley في « أدلة المسيحية » ، ١٧٩٤ ، وهو — من بين ما كتب في هذا العصر — الدفاع الوحيد الذي لا يزال مقروءاً ، وإن فقد اليوم قيمته .

وتصور لنا كتابات « پاليه » اللاهوتية ، كيف تتلون الآراء الدينية عن غير وعي ، بروح العصر الذي تقال فيه ، فهو يحاول في كتابه « اللاهوت الطبيعي » أن يثبت وجود الله ، مستنداً إلى فكرة الدليل الغائي الذي أسلفنا الإشارة إليه ، دون اكتراث بنقد هيوم لهذا الدليل ، فيقول إن وجود الله يستنبط من مشاهد الطبيعة ، كما يستنبط وجود صانع الساعات من الساعة التي صنعها ،

ويصور الله في صورة صانع ذكي يكيف مادة عنيدة غير طيعة . وقد لاحظ
« لسلي استفن » L. Stephen أن إله « پاليه » قد تمدن بتمدن الإنسان ، وبدا
في صورة عالم لوذعي . . . إنه أعظم من « وات » و « برستلي » في المخترعات
الميكانيكية ، والكيميائية . . . فهو إله خليق بعصر يعيش فيه مثل هؤلاء
الأعلام ! .

ومنى استقام أمر الإله على هذا النحو ، هان خطب « المعجزات » وقد
اهتم « پاليه » بالمعجزات وجعلها محور الدفاع عن المسيحية ، وكانت حجته
في صدقها ، أن الحوارين قدر أروها بعيونهم وآمنوا بصدقها ، ومن أجل هذا
جاهدوا واحتملوا العذاب من أجل دينهم الجديد — إن دفاع « پاليه » —
فيما يقول بيورى — ليؤهله لأن يكون « مستشاراً قانونياً » بارعاً للإله
القادر على كل شيء . . . !

مناورة صموت « بين » على المسيحية :

كان آخر الفلاسفة الطبيعيين من الإنجليز في القرن الثامن عشر ، هو
« توماس بين » Th. Paine الذي فاقت شهرته شهرة أسلافه ، وقد قام بدور له
خطره في تاريخ النزاع من أجل حرية التفكير في مجال السياسة ، فقاوم الاستبداد
وكابد من أجل هذا عنناً شديداً ، لا يدخل الحديث عنه في نطاق بحثنا .

أدان القضاء الإنجليزي « بين » ، وأدر دمه ، من أجل كتابه « حقوق
الإنسان » ، ونسكن هذا قد عاد فنشر كتابه « عصر العقل » The Age of Reason
(١٧٩٤ - ٩٦) وفيه هاجم المسيحية هجوماً عنيفاً كان قد شرح في وضعه وهو في
سجن باريس الذي ألقاه فيه رويسبير - وميزة هذا الكتاب أنه أول كتاب قيّم
ينشر بالإنجليزية في مهاجمة عقيدة الخلاص ، وتفنييد الكتاب المقدس في أسلوب
واضح لا ياجأ فيه صاحبه إلى التخفي والتستر ، ولا يلوذ بالحيلة والحذر ،
ثم هو قد كتب بلغة سائلة تثير انتشاره بين الجماهير ، ثم يمتاز مع هذا بأن
صاحبه ينفرد دون نقاد الإنجليز الذين التزموا منهج الطبيعيين الأول ، بأن

أوضح التناقض الملحوظ بين الإنجيل وعلم الفلك في تصور الكون ، فقال إن المسيحية لم تنص صراحة على أن دنيانا هي وحدها العالم المعمور ، ولكنها أشارت تليحاً إلى ذلك في قصة العهد القديم ، وقصة حواء والتفاحة وما يقابلها من موت ابن الله ، ولو قلنا إن الله قد خلق كثرة من العوالم لانتقل عما نسميه نجوماً ، لأصبحت المعتقدات المسيحية ضئيلة ومثيرة للضحك ! إن الفكرة المسيحية والفكرة الفلسفية في هذا الصدد لا يمكن أن تقوما في عقل واحد ، ومن ظن أنه يعتقد في كليهما معاً ، دل بهذا على أنه يجهلهما معاً !

ويعرض « بين » - وهو الطبيعي المتحمس - للطبيعة ومشاهدها ، ويقرر أنها وحى الله ومظهر قدرته ، ويشير إلى قصص وردت بشأنها في « العهد القديم » ، ثم يقول : إننا حين نمنع النظر في جلال هذا الكائن الذي يدبر ويحكم هذا « الكل » ، الذي تقصر العقول عن إدراكه ، ولا يستطيع أنفذ نظر إنساني أن يحيط بغير طرف ضئيل منه ، عندما تتأمل ذلك ، يساورنا الخجل من تسمية هذه القصص التافهة « كلمة الله » !

وقد نهض للرد على هذا الكتاب الكاهن « وطسون » Watson وهو أحد الممتازين من أساقفة القرن الثامن عشر ، الذين سلخوا بحق الفرد في الحكم على الأشياء كما تبدو له ، وطالبوا بمقارعة الحججة بالحجة ، وأنكروا مقابلة الرأي بالقوة ، وجعل عنوان كتابه « اعتذار عن الإنجيل ! » وقد قال الملك جورج الثالث إنه لم يكن يدرى قبل هذا الكتاب أن الإنجيل في حاجة إلى من يعتذر عنه ! وكان دفاع هذا الكتاب عن الإنجيل دفاعاً متهاتماً ، وفيه إذعان وتسليم بالكثير من وجوه النقد التي وجهها إلى الإنجيل « بين » ، وبهذا حطم عصمة الإنجيل . . . !

وقد ذاع كتاب « بين » ذيو عا رجب المدى ، فتولت « جماعة قمع الرذيلة » إقامة الدعوى على ناشر الكتاب ، وكان الإلحاد شائعاً بين الطبقة الحاكمة ، ولكن هذا لم يمنع من اعتبار الدين ضرورياً لعامة الناس ، والميل إلى قمع كل

حركة ترمى إلى بث الكفر بين الطبقات الدنيا، إن الدين أداة ناجحة في حفظ الأمن بين الدهماء. ولعلنا لاحظنا مما أسلفناه أن الوحيد من بين العقليين الأول - مع استثناء قضية ولستون Woolston - كان الوحيد الذي عوقب من بينهم « بطرس أنت » Peter Annet وهو مدرس حاول أن يشيع الفكر الحر بين الناس، فحُكِمَ بتهمة العمل على ترويح آراء شيطانية، وحُكِمَ عليه بالأشغال الشاقة مع ربطه في وتد التشهير (عام ١٨٦٣) - وهي آلة كان يدخل فيها المجرم رأسه ويديه للتشهير به! وكان من رأى « بين » أن من حق جمهرة الشعب أن تكون على علم بالأفكار الجديدة، وفي ضوء هذا الرأي، كتب في أسلوب يمكن الجماهير من معرفة آرائه، ومن ثمَّ وجب أن يصادر كتابه! وعندما تقدم للمحاكمة عام ١٧٩٧ م أقام القاضي العراقي في وجه الدفاع ما استطاع إلى ذلك سبيلا، ثمَّ أصدر حكمه بسجن الناشر عاما!

ولم تكن هذه آخر محاكمات « بين »، إذ نشر في عام ١٨١١ الجزء الثالث من «عصر العقل» فأدين الناشر « إيتون »، وصدر حكم بحبسه ثمانية عشر شهرا، وربطه في المشهر مرة في كل شهر، وجاء في حثيثيات الحكم « أن إنكار حقائق الكتاب المقدس، وهو أساس عقيدتنا، لم تكن في يوم من الأيام مباحة لأحد من الناس، فوجه الشاعر « شيلي »، خطابا لاذعا إلى القاضي الذي قرر ذلك، جاء فيه :

« أتظن أنك تهدي المستر إيتون إلى دينك بتنقيص حياته وتكدير عيشه؟ قد يكون في وسعك أن تضطره بوسائل القهر والتعذيب إلى التظاهر باعتناق معتقداتك، ولكنه لا يملك الإيمان بها إيمانا صادقا، إلا إذا حاولت أنت أن تجعلها ممكنة التصديق، وهذا شيء ربما كان فوق طاقتك! وهل تظن أنك ترضى الله بهذه الغيرة التي تبديها على هذا النحو؟ إن صبح هذا، كان إبليس الذي تقدم له بعض الشعوب قرابين بشرية، أقل همجية من إله هذا المجتمع المتمدين!... »

وفي عام ١٨١٩ أعاد ريشارد كارليزل R. Carlisle نشر كتاب «عصر العقل»، فقدم للمحاكمة وصدر حكم يقضى بأن يدفع غرامة باهظة ويحبس ثلاثة أعوام، ولما عجز عن دفع الغرامة، بقي في سجنه ثلاثة أشهر! وكانت زوجته وأخته قد واصلتا بيع الكتاب، فصدر حكم يلزمهما بدفع غرامة، وألقي بهما، مع عدد كبير من باعة الكتب في المكتبات الى السجن.

كابد الناشرون العذاب في إنجلترا، أما «بين» مؤلف الكتاب، فقد كان في «أمريكا» يعاني اضطهاد بعض المتعصبين الذين جاهدوا لتخبئه بقية حياته.

كلمة أخيرة:

هذه خلاصة موجزة لأمر النزاع بين العقل والايمان إبان ذلك العهد في إنجلترا البروتستانتية، ومن وزن بينه وبين النزاع في العالم الكاثوليكي، أدرك أنه كان في الأولى - في الأغلب والأعم - مقارعة حجة بحجة، وحتى رجال اللاهوت لجأوا الى العقل واعتصموا بشريعته، وكاد الاضطهاد الذي أوقعه بأحرار الفكر ذوو النفوذ منهم، أن يقتصر على مصادرة كتاب وسجن مؤلفه أو ناشره، وإلزامه بدفع غرامة... الى آخر ما عرفنا عند عرض هذا النزاع، أما في العالم الكاثوليكي حيث استحوذت الكنيسة الكاثوليكية على نفوذ مدني الى جانب نفوذها الديني، فقد عرف تاريخ النزاع محاكم التفتيش وهي تطارد أحرار الفكر وتسلط عليهم عذابها، وتتولى تشريدهم والتنكيل بهم إحراقاً وإعداماً، وتسلط سلطانها على قلوب الناس، فتسجل مؤلفات هؤلاء الأحرار في سجل الكتب التي حرمت على المؤمنين قراءتها! ولكن الحق يقتضينا أن نقول إن السلطة الزمنية كانت تُعوز أتباع البروتستانتية، في الوقت الذي تهيأت فيه للسلطات الكاثوليكية، ومن هنا كان نزوع البروتستانت الى الالتجاء للعقل، والاعتصام بمنطقه، وقد عرفنا في غير هذا المكان، كيف استيقظت النزعات الشريرة عند رواد الإصلاح الديني من البروتستانت، حين تيسر لهم التنكيل بخصوصهم، وفرض عقيدتهم على الناس غصباً واقتداراً.

القبض على الثامن

النزاع بين اللاهوت والعلم في القرن الغابر

تحول حديثنا من الفلسفة إلى العلم — عدة القرن في نزاع — انتصار العلم على اللاهوت في خلق الكون — العلم الحديث يهدم الرواية الديني في نشأة الخلق — ثبات الأنواع وحللت العلم الحديث التقويضه — نظرية التطور عند والاس ودارون — الحملات على دارون في شتى نقاع العالم المسيحي — انتصار النظرية الجديدة حتى في المعسكرات الديني — موقف العلم المسيحي من دارون بمذمته — تأييد رجال اللاهوت لطرية التفكير — فزع السلطات الديني ومظاهره — الاصطهاد عند الكاثوليك والبروتستانت — كلمة أخيرة .

تحول حديثنا من الفلسفة إلى العلم :

خفت حدة النزاع بين الفلسفة واللاهوت في القرن الغابر ، بل أخذ الكثيرون من رجال الفلسفة يذودون عن الدين ، ويدافعون عن تعاليم الكنيسة ، فأثار هذا ضيق رجال العلم بهم ، ونهضوا لمحاربتهم في ابتعادهم عن الواقع ، وخلقوا فلسفتهم من النزوع المادي ، وغلا هؤلاء العلماء في إغفال جانب الروح ، وتفسير كل شيء بالمادة والقوة ، بل صرحوا بأن نبذ العقائد الديني والآراء الفلسفية ، فيه مزاولة لفن التضحية وإنكار الذات ! ومن هنا سامت العلاقات بين العلم من ناحية ، والفلسفة واللاهوت من ناحية أخرى ، ووضح هذا التوتر في النصف الثاني من القرن الغابر ، فيما يقول « ولف » .

ويتحدث « إميل بوترو » E. Boutroux في كتابه عن « العلم والدين » : « عن النزاع بينهما خلال مراحل التاريخ ، مع تصالحهما مرة بعد مرة ، ثم يقول : « ولم يبرح العلم والدين قائمين على قدم السكفاح ، ولم ينقطع بينهما صراع يريد به كل منهما أن يدمر صاحبه ، لا أن يغلبه فحسب ، على أن هذين النظامين لا يزالان قائمين ،

ولم يكن مجدياً أن تحاول العقائد الدينية تسخير العلم ، فقد تحرر العلم من هذا الرق ، وكانما انعكست الآية منذ ذلك ، وأخذ العلم ينذر بفتناء الأديان . ، ولسكنه يقول بعد هذا مفسراً هذا النزاع في وقتنا الحاضر ، ليس التصادم الآن فيما يظهر بين الدين والعلم باعتبارهما مذهبين ، بل التصادم أدنى أن يكون بين الروح العلمي والروح الدين ، فليس يعنى العالم أن يكون ما جاء في الدين من عقائد ، متفقاً مع نتائج العلم ، لأن الأساس الذى يعتمد عليه الدين فيما يحى به ، ويختلف عن الأساس الذى يعتمد عليه العلم ، فالدين يقدم مسأله على أنها عقائد يجب أن يتقيد بها العقل والوجدان ، ويعرضها في صورة تدل على إتصال الإنسان بنوع من الأشياء ، يعجز علمنا الطبيعي عن إدراكه ، وفي ذلك مما يجعل العالم - إن لم يرفض هذه المسائل نفسها - يرفض الأسلوب الذى يسلكه المتدين في الأخذ بها ، والمتدين من ناحيته إذا وجد جميع عقائده وعواطفه وأحكامه العملية مفسرة بل مثبتة بالعلم ، يكون حينئذ أبعد شيء عن سامة العلم ، فإن هذه الشؤون إذا شرحت على هذا الوجه ، فقدت كل خواصها الدينية ، (١)

وهذا صحيح ، والخلاف واضح بين منهج البحث العلمي ومسلك الوحي الدينى ، ولسكن التوتر - على هذا الخلاف - قد تلاشى أو تضاعف كثيراً - في القرن العشرين بين العلماء ورجال الدين . لأن العلم قد انتقل نجاة من المادية المتطرفة إلى الروحية المسرفة ، واصطبغت آراء أهله بروح صوفية دينية ، أدتها من نزعات الفلاسفة ورجال اللاهوت معاً ، وبهذا تأخى العلم والفلسفة واللاهوت - في القرن العشرين - وشارك الجميع في حياة خلت من الجفاء الذى شغل شطراً كبيراً في القرن الغابر (٢)

(١) النس منقول عن كتاب Science et Religion طبعة فلانماريون ص ١٣١ ، والرجعة لأستاذنا الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق في كتابه « الدين والوحى والإسلام »

ص ٧ - ٨
(٢) واف A. Wolf في رسالة Recent and Contemporary Philosophy (التي ظهرت في كتاب (An Outline of Modern Knowledge (932) وقد ترجمها الدكتور أبو العلام في أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة فاروق تحت عنوان « فلسفة المهنيين والمعاصرين » .

إذا كانت الفلسفة قد تأخمت مع اللاهوت ، وتوحدت نزعاتهما في القرن الغابر ، بل انتصر الفلاسفة — أو الكثير منهم للدين وأيدوا تعاليم الكنيسة ، فلا سبيل إل تأريخ نزاع كان قائماً بينهما ، وما دام ميدان العداة قد تحول إلى مجال العلم ، فمن الخير أن نختم هذا البحث بتأريخ هذا النزاع وهو قائم بين اللاهوت والعلم ، وحسبنا من هذا التأريخ لمحة خاطفة تصور فيها أبرز معالم هذا النزاع وأسطق آثاره ، كما تبدو في أظهر الحالات التي شهدتها القرن الغابر — ومن الطبيعي أن يتوقف تأريخنا للنزاع بعد ذلك ، لأن القرن العشرين حين أقبل ، كان اللاهوت والفلسفة والعلم على صفاء !

عدة التمر في مزارع :

ازداد إيمان الناس بشريعة العقل في القرن الغابر ، فظهرت — في ألمانيا بوجه خاص — موجة من النقد العقلي التاريخي ، اجتاحت الرواية الدينية لكثير من الحقائق ، وأنت على الكثير من ترهات رجال الدين ، حتى جنحت بعضهم إلى محاولة التوفيق بين التعاليم الدينية والآراء العلمية ، وتأويل النصوص المقدسة ، وجعلها متمشية مع منطق الآراء العلمية الحديثة (١) ! ونضج العلم في هذا القرن ، وكان لهذا أثره البين في إثارة الشك في عصمة الكتاب المقدس ، فازدهر البحث الجيولوجي ، وتقدم الفلك بالتصوير الشمسي ، وظهرت مكتشفات علمية في مجال الطبيعة والرياضة وغيرها ، واهتدى العلماء إلى كثير من المخترعات ، وكان التقدم في ميدان البحث البيولوجي ، أكبر الأخطار التي تهدد لاهوت ذلك القرن ، الذي سمي بحق عصر النشوء والارتقاء ، فلنعرض للحديث عن بعض مظاهر النزاع في هذا

(١) اقرأ تفصيل هذا التمدد التاريخي للكتاب المقدس في الفصل السابع من كتاب B. Bury J السالف الذكر ، وفي القسم الثاني من الفصل الحادي والعشرين من كتاب Robertson السالف كذلك ، واقرأ أيضاً Encyclopedia Biblica في مقالات مفرقة في أجزاءها الأربعة ثم A. Duff في كتابه Hist. of Old Testament Criticism (910) واقرأ كذلك F. C. Conybeare في كتابه Hist. of New Testament Criticism (1910)

الميدان ، كنموذج للعداء بين العلم واللاهوت في هذه المرحلة من الزمان^(١) ، وسيضطرنا تصوير هذا النزاع إلى الاستطراد منحدرين إلى عصور طويلة سبقت هذا القرن ، ليكون تصوير الجو العقلي أتم وأكمل :

انتصار العلم على اللاهوت في « غلو الكهنة » :

انعقد الرأي عند رجال اللاهوت المسيحي - من الكاثوليك إلى البروتستانت - على أن الله قد خلق من العدم كل شيء ، أما زمان الخلق ، فقد وردت بصدده روايتان في « سفر التكوين » ، تقرر أولاها أن الله قد أنجز خلق السكون في ستة أيام ، كل منها نهار وليل ! وقد ورد فيها تفصيل ما تمّ من الخلق في كل يوم ! أما الرواية الثانية فتذكر « اليوم » ، الذي خلق فيه الله الأرض والسموات ، وذهب البعض إلى أن الخلق قد تمّ في لحظة واحدة ، فقد ورد في سفر التكوين « تكلم غلقت العوالم » . وحاول البعض أن يوفق بين هاتين النظريتين ، فقال إن العالم قد خلق في ستة أيام ، ولكنه تبدّى للوجود فجأة ! وشاع هذا الرأي طوال العصور الوسطى ؛ وانتهى البحث في تحديد تاريخ الخلق ، إلى القول بأنه وقع حوالي سنة ٤٠٠٠ ق . م ، بل أدت أبحاث جون ليتفوت J. Lightfoot وكيل جامعة كمبرج (في القرن السابع عشر) إلى أن الخلق قد وقع بقدره الثالث الأقدس في التاسعة من صباح اليوم الثالث والعشرين من شهر أكتوبر عام ٤٠٠٤ ق . م ! !^(٢)

(١) كان جل اعتمادنا في تاريخ النزاع بصدد نظرية (التطور على A. D. White في الباب الأول بفصوله الأربعة من كتابه السالف الذكر وهو الفصل الثالث في النسخة العربية وانرا كذلك : A. W. Benn, The Hist. of English Rationalism in the 19th Century 2 Vols 1902

(٢) من الطريف أن هذا الزعم لم يمس عليه قرنان حتى اهتدى الباحثون إلى أن العالم كان قد عرف في ذلك التاريخ الذي حدده الخلق العالم نهضة واضحة على ضفاف النيل ومدنيات أخرى في أرض آسيا ، ولم يكن هذا التاريخ بدءاً لخلق الخلق كما توهم الواهمون . وإذا كان علم طبقات الأرض قد قضى على هذا الزعم فقد بقي القول بوجود آدم وحواء قبل التاريخ ، وهذا ما تصدى لفضاء عليه علم الحيوان كما سنعرف بعد .

والواقع - فيما يقول بيورى - أن الاعتماد على تراخي الكتاب المقدس ، لا يرجع بخلق الإنسان إلى أبعد من ذلك !

وإلى مثل هذا نزعت المباحث اللاهوتية في تصوير مادة الخلق ، وتحديد الخالق ونحوه ، وهى أفكار اصطبلت باللون المسيحي ، ولكنها تحدرت عن بعض الأمم الشرقية القديمة ، وإلى جانبها سار رأى لعله شرقي قديم ، وقد عرف عند بعض مفكرى اليونان والرومان ، وهو يؤيد الأسلوب النشوقى فى خلق السكون ، ويرفض القول بالطفرة ، ويرد السكون إلى الأثر التدرجى لفعل النواميس الطبيعية ، وقد استقام أمر هذا الرأى فى العصور الوسطى ، رغم ضيق الكنيسة به ، حتى قوض التصور اللاهوتى للسكون ، أساطين العلم الحديث ، من كوبرنيكوس وكبلر وجاليليو ونيوتن ، ممن مهدوا لظهور نظرية التطور الحديثة . وأحست الكنيسة بحيدة المحدثين عن التصور اللاهوتى ، فتأهبت لنزالهم ، واتهمت بالهرطقة كل من أيد الرأى السديمى الذى استشهد فى سبيل التمهيد له « برونو » من قبل .

ثم كشف المحدثون من علماء الفلك - من أمثال « هرشل » - كثيراً من البقع السديمية ، ودلوا على أن النظرية السديمية تعلق جانباً كبيراً من حقائق السكون ، وترقى تركيب « المرقب » ، فاثبت أن البقع السديمية نجيمات متقاربة الأبعاد ، وزاد المكتشفات الأخرى هذا الرأى تأييداً ، وفى منتصف القرن الغابر ، أجرى Plateau تجربة لإثبات الرأى السديمى ، بدوران كرة مائعة ، اعترف بعدها المستر جلادستون - وهو من أقوى المدافعين عن المذهب الدينى ، بأن من المحتمل أن يكون وجهه من وجوه الرأى السديمى صحيحاً . . ! وإذا اشتد ضغط العلم برجال اللاهوت وأنقضت أدلته وبيئاته ظهورهم ، لجأوا إلى الاستسلام اللبق ، بمحاولة التوفيق بين الدين والعلم ، وأذعوا أن العلم إنما ينصر مذاهب اللاهوت ويوطد قضايها ، ولطالما ظهر هذا الاتجاه كلما اشتدت أزمة اللاهوت ، وبدا انتصار العلم رائداً ، وقد وضح هذا فى فكرة الخلق إبان القرن التاسع عشر ، فنهض بعبء هذا التوفيق عالم من أشهر علماء

الكيمياء في نيويورك ، فالتقى محاضرة في هذا الصدد ، تحت رعاية كنيسة من أحدث الكنائس في هذا الوقت ، وقد أذاعوا في الصحف وعلى جدران البيوت في الطرق العامة ، عن هذه المحاضرة التي ترمي إلى البرهنة على تأييد العلم لنظرية والخلق الموسوية كما بدت في الكتب المقدسة ! وقام المحاضر أمام جمع حاشد من المستمعين بإجراء تجارب ، أدخل فيها الأوكسجين والأيدروجين وحامض الكربونيك على طريقة بلاثو ! وكانت التجارب من المهارة بحيث كانت عند نهايتها تثير صياح المستمعين وهتافهم ، وتحرك بالتصفيق أكتفهم ؛ ثم نهض أحد أزياء المدينة ورفع شكر جموع المستمعين إلى هذا العالم الممتاز ، على هذا التدليل الكامل على صحة التطابق التام في المجمال والتفاصيل ، بين تعاليم الكتاب المقدس ، وأحدث نظريات العلم ، .. وانصرف هذا الحشد من المستمعين شاكرًا جهود المحاضر ونشاط الكنيسة في تدعيم الدين وخدمة تعاليمه . . . !

وانتهى العلماء آخر الأمر إلى إقرار فسكرة النشوء ، والقول بأن الرأي الديني ليس إلا تحريفًا لرأي قديم ، شاع في العصور الأولى عند قدماء الشرقيين ، وأذعن بالتسليم بهذا بعض رجال الدين ، من أمثال أستاذ العبرانيات ، ورئيس كنيسة كريست ، في أكسفورد ، الموقر الدكتور درايفر Rev. Dr Driver وأستاذ الإلهيات في جامعة كمبرج الموقر الدكتور رايل Rev. Dr. Ryle حتى تسامل رئيس أساقفة كنتربري بهذه المناسبة قائلاً : ألا يجوز أن يكون الروح القدس ، قد استخدم في بعض الأحيان الخرافات والأساطير . . . ! !

العلم الحريص يهزم الرواية الربانية في نشأة الخلق :

جري رجال اللاهوت على التمسك بحرفية النص في مسألة الخلق كما ورد في الكتاب المقدس ، بنفس الروح التي حاربوا بها مكتشفات العلم الحديث ، وقد ورد في « سفر التكوين » ، أن الله قد خلق الإنسان على صورته وجمهرة رجال اللاهوت على اتفاق في أن الحيوانات قد خلقت منذ البدء وطبعت على صورتها ، ولم يطرأ عليها تغير أو تطور ؛ فلما اهتدى علماء الحيوان إلى أنواع جديدة منه ، اضطر رجال اللاهوت إلى التدرج معهم ، فكبروا سفينة نوح تكبيراً يتناسب طردياً

مع المكتشف من هذه الأنواع ليتحاموا القول بأنها نشأت بعد الطوفان !..
وقد أدى الكشف الجغرافي إلى معرفة عشرات الأنواع من الحيوانات
وأفضى إلى الدهشة من توزيع هذه الأنواع على بقاع الأرض ، فاضطر
رجال اللاهوت إلى التفكير في الطريقة التي تم بها هذا التوزيع ، بعد أن كانت
الأنواع كلها مجتمعة في سفينة نوح ! فزعم البعض أن الإنسان هو الذى وزعها
على هذا النحو ، بدافع الرغبة فى الانتفاع بها ، أو بدافع الميل إلى التسلى !
ورأى غيرهم أن هذا التوزيع قد تم بهجرة الحيوانات نفسها ، ولكن خصوم
اللاهوت قد عجبوا لهذا الإنسان الذى حمل معه فى سفينة نوح الدببة والأساد
والنمور ! ودهشوا للحيوانات الثقيلة ، كيف هاجرت من أارات - التى رست
فيها سفينة نوح - إلى بقاع قاصية . . ؟ وكيف وصلت إلى أمريكا الحيوانات
التي لا تعرف السباحة أو الطيران ؟ وتساءلوا لماذا وجد القنغر فى استراليا
وحدها ، وكيف بلغ هذه القارة بقفزاته على الجبال والوديان وعبر المحيطات !
ولماذا استقر فيها دون غيرها ؟ وتأيد هذا كله بظهور منهج البحث التجريبي
منذ مطلع العصر الحديث وقيام الجمعيات العلمية التي أبت أن تستقى الحقائق
من سلطة دينية أو غير دينية ، ونزعت إلى اكتشافها فى ضوء هذا المنهج الجديد ،
وتقوضت النظرية اللاهوتية نهائياً فى نهاية القرن الثامن عشر ، ولكن بعض
رجال اللاهوت قد أقاموا على الرأى القديم وأنذروا خصومهم بشر مستطير

اثبات الانواع وصحة العلم الحديث لعقوب بن يوسف :

ظهرت فكرة الخلق على النحو الذى أسلفناه عند رجال اللاهوت ، قالوا
بثبات الانواع ، أى أن أنواع الحيوانات قد لازمت صورها التي نشأت عليها
منذ الخلق ، ومنذ أن فارقت سفينة نوح بعد الطوفان ، ولكن هذه الفكرة
قد سايرتها فكرة قديمة أخرى ، تقدر أن الكائنات الحية قد نشأت على نحو
وتغاير وتطور مضطرب ، ومرد الفسكتين إلى تراث الشرق القديم الذى انتقل
إلى العبرانيين ، وبدا فى الكتب المقدسة ، وقد قرر دى ميليه Benoist De

Maillet. في مستهل القرن الثامن عشر تحوّل الأنواع عن طريق التغير الذي يعترى أعضائها ، فضاقت الكنييسة برأيه ، واتهمته بالإلحاد ، فحاول اتقاء شرها بنشر كتابه تحت اسم مستعار ، وبلغ الحديث في المقدمة والإهداء ، بحيث يستطيع ، إذا قدم للبحاكمة ، أن يدعى أن الكتاب ليس إلا مجرد لهوٍ خيالي (١).

وفي النصف الثاني من هذا القرن ظهر أبو علم النبات الحديث «لينوس» ، + Linnaeus ١٧٧٨ وانتهى في أواخر حياته إلى معارضة الرأي اللاهوتي في ثبات الأنواع . ولكنه خاف غضب خصومه من رجال اللاهوت ، من الكاثوليك والبروتستانت على السواء ، بيد أنه اعتصم بالشجاعة وجاهر بالنظام التناسلي في النباتات ، فإذا برجال اللاهوت الذين كانوا لا يتورعون عن الثناء على الفجرة من أمثال لويس الخامس عشر ، ويعلمون رجال الكهنوت علاقة الرجل بالمرأة من الناحية الجنسية ، يفزعون لآراء هذا العلامة ، ويحرمون إذاعتها حتى عام ١٧٧٣ ، في كل بلد امتد إليه سلطانهم حتى اضطر « لينوس »، إزاء حملاتهم إلى الاستكانة والتظاهر بأنه ينتصر لرأيهم القائل بأن الله خلق الأشياء في البدء ، ومنذ هذا البدء لم تظهر البتة أنواع جديدة! وبعد هذا ذهب العلامة الفرنسي « بوفون » Buffon إلى القول بنظرية التطور بتغاير الأنواع ، فأثار هذا ضيق رجال السربون ، فاضطر أن يستجيب للكنيسة ويعلن اعتذاره عما قال علناً ومطبوعاً على الناس... وفي هذا يقول :
أعلن أني أنتحى عن كل آرائ التي وردت في كتابي بصدد تكوين الأرض ، وأقلع بوجه عام عن كل ما كان منها منافياً لرواية موسى! (٢)

(١) فأعلن أن الكتاب حديث فيلسوف اهتدى ، موجه إلى مبشر مسيحي ، وجعل فيلسوفه الهندي يصرح بأن أيام الحق في سفر التكوين قد تكون عصوراً طويلة من الزمن ، وكان هذا مما لا يرضى عنه رجال اللاهوت ، ولهذا طبع الكتاب عام ١٧٣٥ ولم ينشر إلا في عام ١٧٤٨ أي بعد وفاة مؤلفه بثلاثة أعوام !

(٢) أنظر فيما ورد عن دي ميليه : كتاب Quatrefages وهو Darwin et ses Précurseurs Français وكذلك الفصل السادس من كتاب Perrier وهو La Philos. Zoologique avant Darwin ثم المقال الشائق الذي كتبه Huxley في دائرة المعارف =

على الإيمان بما ورد في الكتاب المقدس عن أسباب التكوين . . . !
وفي مطلع القرن التاسع عشر ، ظهر « تريفيرانوس » ، Treviranus في ألمانيا ، ولامارك Lamarck في فرنسا ، فأصدر أولهما كتابه « علم الحياة » ، ١٨٠٢ وقرر فيه أن العضويات الراقية قد تطورت بالتدرج عن أخرى بسيطة ، وأن انقراض الأنواع ليس إلا تحولا إلى أنواع أخرى ، ثم نشر « لامارك » ، كتابه : « الأبحاث » ، و« فلسفة الحيوان » ، أضاف فيهما إلى ذلك الرأي ، القول بأن الحيوان نفسه يسعى جادا ليتطور حتى يسد ما يظهر في بيئته من حاجات جديدة ، وأن الأعضاء تنموا طرديا مع استعمالها ، وأن الصفات المكتسبة تنحدر إلى الأبناء عن آبائهم ؛ وقد انحدرت هذه الآراء إلى أعلام العلم الطبيعي من أمثال سانت هيلير G. Ssint - Hilaire

نظرية التطور عند داروين :

ولبثت المعركة محتدمة بين من أيدوا نظرية النشوء ومن عارضوها ، والكنيسة مطمئنة لنفوذها في العالم الأوربي ، حتى أقبل شهر يوليو من عام ١٨٥٨ حين قرئت أمام جماعة لينديوس Linnaen Society بلندن مقالتان ، وضع أولاهما تشارلس داروين Ch. Darwin وكتب الثانية أ. ر . والاس Alfred Russel Wallace وبقراءة هاتين المقاليتين ، انشأت نظرية النشوء بالانتخاب الطبيعي ، وانبثقت ثغرة في حصن اللاهوت . .

لبث داروين نحو عشرين عاما يدرس في هدوء ، ويجمع مشاهداته في صمت ، يجمع مادته من فضاء الأرض وأعماق البحار ، وحمم البراكين وقنن الجبال وبطون الغابات ، ويتنقل من الأقطار الاستوائية إلى البقاع المتجمدة ، ويستنطق الطبيعة ويستلمهم مرها ؛ حتى اهتدى إلى فكرة النشوء بالانتخاب الطبيعي ،

== البريطانية عن مادة التطور ؛ أما كتاب دي ميليه فقد كان عنوانه :

Telliamid, ou Entretiens d'un philosophe indien a vec un Missionnaire frauca

aur la Diminuitin de la Mer, 174 88 & 56. أما عن مقاومة السلطات اللاهوتية

كثوابيكية وبروسنتانية — لرأي « لينوس » ، فانظر Alberg Life of Linneaus

(لندن ١٨٨٨) ص ١٤٣ — ٤٧ و ٢٧٣ .

لم يبيع بسره طوال هذا الزمن المديد لغير الدكتور يوسف هوكر عام ١٨٤٤ ، بعد أربعة عشر عاما ، ثم تلقى من ألفرد والاس رسالة أدرك منها أنه قد اهتدى بعد البحث والتنقيب إلى مثل ما اهتدى إليه دارون بصدد فكرة النشوء بالانتخاب الطبيعي ويسجل دارون في أمانة العالم التزيه هذه الظاهرة في مطلع كتابه عن أصل الانواع ، فيقول إن والاس قد اهتدى مستقلا إلى النتائج العامة التي اهتدى إليها دارون - دارون - من قبل !! وأجاب دارون مطلب والاس ، وأذاع مذكرته التي أرسلت إليه أمام منتدى لينبوس على ماعرفنا - وكان هذا وفاء للصدقه وللعلم معاً

وفي العام التالي أصدر الجزء الأول من كتابه أصل الانواع *The Origin of Species* وفيه ردّ النشوء الآلى إلى التنازع على البقاء *Survival of The fittest* وعامل الوراثة ، وكانت هذه النتائج ثمرة عقل جبار أقام على البحث ثلاثين عاماً ، واستطار نبأ هذا الكتاب فأعيد طبعه مراراً ، ونقل إلى كثير من اللغات (١) وشاعت آراؤه في العالم طولا وعرضاً ، وفشتت في الدوائر العلمية يميناً ويساراً ، ونشطت البحث في الأحياء في سنى الدول ، فصعدى لمقاومة هذا التيار الجارف رجال اللاهوت ، ومن جرى مجراهم من أساطين العلماء ، ممن كانوا يهابون السلطة الدينية ويخشون بطشها ، أو لايجرومون على التصريح بمعاداة الكنيسة ، أو تخالط نفوسهم ميول دينية واضحة - ويمثل هذه التيارات على الترتيب : لينبوس وكوفيه وأجاسير .

الحموات على دارون في سنى بقاء العالم المسيحي :

كان مثل كتاب دارون في أصل الأنواع ، إزاء عالم اللاهوت ، كمثل محرات صادف قرية من قرى النمل فشتت جموعها وأحال هدوءها فرقا وفرقا! إذ هب النيام في العالم المسيحي وقد أفرعهم هذا النذير ، وأطار النوم من عيونهم ، وأشاع الضيق في نفوسهم ، وأثار الغضب في رءوسهم ، فأجمعوا أمرهم على محاربة هذا المفكر الجديد ، وحشدوا لتقويض مذهبه جهودهم ، مقالات تجرى

(١) نقل الى العربية الأستاذ اسماعيل يظهر بعض أجزائه تحت عنوان أصل الأنواع .

في أنهر المجلات ، ومواعظ ترسل من المنابر ، وكتباً تترى ثقيلة وخفيفة ، وكلها تتآزر على الجهاد في سبيل الله ! وقد شرع في قيادة هذه الحملة : أسقف «ولبرفورس» Wilberforce في المجلة الربعية Quarterly Rivrew فأعلن أن دارون قد أجرم « بنزوعه إلى تحديد مجسد الله في فعل الخلق ، وأن « مبدأ الانتخاب الطبيعي Natural Selection يتعارض مع كلمة الله كل التعارض ، لأنه يناقض العلاقة بين الخليقة وخالقها كما قررها الوحي ، وأنه غير متمسق مع كمال المجد الإلهي . . . إلى آخر ما ورد في حملته . . . وعندما انعقد المجمع البريطاني لتقدم العلم British Association for the Advancement of Science نهض هذا الأسقف للكلام وأشار إلى آراء دارون الذي اضطره مرضه للتغيب عن هذا الاجتماع ، وأعلن الأسقف على الملأ أنه يشعر بالغبطة لأنه لم ينحدر عن جدمن القرودة . . ! فهض هكسلي Huxlay للرد عليه ، وقال ما فخواه « لو خُيرت ، لآثرت أن أكون من سلالة قرد وضع ، على أن أكون ابن رجل من البشر يسخر عليه وفصاحته ، في الإساءة إلى أولئك الذين يقضون حياتهم في خدمة البحث عن الحقيقة . . ! » وقد دوى هذا الصوت في إنجلترا وتردد صده في غيرها من البلاد .

إذا كان هذا قد وقع في الكنيسة الأنجليكانية ، فقد تردد صده عند قادة الكنيسة الكاثوليكية في إنجلترا ، فقد ألقى الكردينال ماننج Manning خطاباً أمام أعضاء الأكاديمية ، التي نشأت لمحاربة ما يسمونه « العلم » ، فأعلن مقتته للذهب الجديد في الطبيعة ! ووصفه بأنه « فلسفة وحشية - تقرر عدم وجود إله ، وتصرح بأن القرد أبونا آدم ، وسار في تيار هذا الركب معهد بروتستانتى كان قد نشأ لمحاربة العلوم الضارة ، فأعلن نائب رئيسه أن مذهب دارون « محاولة يراد بها إنزال الله عن عرشه ! » وصرح ناقد آخر بأن هذا المذهب يوعز إلى الناس « أن الله قد مات ! » وقال ثقة من رجال اللاهوت : إذا صح مذهب دارون ، كذب سفر التكوين ، وتحطم كيان الحياة ، وكان وحي الله

إلى الإنسان - كما يعرفه المسيحيون - هذيانا وأحبولة :
وتردد الصدى في أمريكا ، فأعلنت مجلة من أوسع مجالات الطوائف
الدينية انتشارا ، أن دارون قد حاول أن يزيد المسألة تعقيدا ، وصرحت
مجلة ثانية بأن مذهبه « خيانة ! » وراحت مجلة ثالثة تمثل فرع الكنيسة
الإنجيليكية في أمريكا ، تصب احتقارها على دارون ، وتقول إن مذهبه
« سفسطة مجردة عن كل منطق ! » وأخذت غيرها تبرهن على أن المذهب
يناقض النصوص التي وردت في العهدين القديم والجديد . . . !

واقترح رجال اللاهوت في استراليا هذه المعمة ، فصرح الدكتور برى
Perry كبير أساقفة ملبورن ، في كتاب عنيف عن « العلم والإنجيل » بأن
الغرض الواضح الذي قصد إليه شامبرز Chambers ودارون وهكسلي ،
هو أن « يغرسوا في نفوس قرائهم الكفر بالإنجيل . . . ! »

ومن وراء هذا الملحمة ، وقفت أفرع الكنيسة القديمة ، فصرح بايما
Bayma في « العالم الكاثوليكي » بأن من حقنا أن نعتقد بأن دارون يردد
أقوال أولئك الملاحدة الذين لا هدف لهم إلا أن يجتاحوا كل فكرة
عن وجود الله !

ومما يبين عن اتجاه رجال اللاهوت في هذا العصر ، تضافرهم على إنشاء
مؤسسات لمحاربة الأفكار الجديدة ، ومن أظهر هذه المؤسسات « الأكاديمية
التي دعا إليها الكردينال ويزمان Wiseman وقد أذاع رسالة دورية ، أنذر
فيها الناس بالخطر الزاحف ، وختمها بقوله : « والآن يصبح من واجب الكنيسة
التي تحظى وحدها بالثقة الإلهية ، أن تقوم على رأس حركة تهدف إلى مقاومة
كل ما يهدد المعتقد المسيحي في إنجلترا ، وقد باركت روما هذه الحركة وأذنت
بانشاء هذه الأكاديمية . . . ! »

وفي المعسكرات البروتستانتية ظهرت مثل هذه الحركة ، فنشأ « المعهد
الفكسوري » وكان أكبر أعماله خطراً ، نداء لنائب رئيسه الموقر والترمتشل

Rev. Walter Mitchell الذى صرح بأن « مذهب دارون يحاول أن ينزل
الله عن عرشه! »^(١)

وفي فرنسا كانت الحملة على عنف ميرير ، فكر بعضهم ما قيل من أن
كل نظرية تخالف نظرية ثبات الأنواع ، تتنافى مع النصوص المقدسة ، أما
« ديسورج » Désorges وهو أستاذ سابق لعلم اللاهوت ، فقد اتهم دارون
بأنه « مغرور » أما المونسنيير سيجور Sègor فقد أشار إلى دارون وأتباعه
وقال فى مس هستيرى : إن هذه المذاهب الممقوتة ، لا تؤيدها إلا أحمق
الآهواء ، فأبوها الكبر وأما القذارة ! أقبلت من جهنم وإليها المعاد ، ومعها
أتصارها المجردون من كل حياء !

وفي ألمانيا كانت الحملة أقل إسفافا ، وأعظم عنفاً ، إذ تضافر الكاثوليك
والبروتستانت على مقاومة المذهب الجديد ، فأعلن الدكتور ميشيلس
Dr. Michelis أن نظرية دارون « صورة تخطيطية - كاريكاتورية -
للخليقة ! » وصرح الدكتور هجرمان Dr. Hagermann بأنها قذفت بالله خارج
الآبواب ! وأصر الدكتور شند Dr. Schund على أن الكتب المقدسة فى كل
صفحة من صفحاتها تناقض مذهب دارون كل التناقض ، ودعا روجنت

(١) اقرأ مقال ولبرفورس فى « كوارترلى ريفيو » عدد يوليه ١٨٦٠ ، وأما ردهم كسلي
فقد ورد فى مجلة Quartrefages وفى « حياة دارون ورسائله » Life & Letters of
Darwin رواية مختلفة بعض الاختلاف ، وعن حملة السكردينال مانج أنظر
Essays on Religion & Literature (London 1865) ، وعن مقالات المحلات : أنظر مجلة لكوارترلى
السافة المذكور عدد يوليه ١٨٧٤ ، ومجلة North British Review, May 1860 وكذلك
Addresses of Rev. Walter Michell before the Victorian Institute لندن
١٨٦٧ وغيرها - أما عن حملات أمريكا فانظر Methodist Quarterly Review عدد
أبريل ١٨٧١ وكذلك The American Church Review عدد يوليه واكتوبر ١٨٦٥
ويابر ١٨٦٦ وعن حملات استراليا ، أنظر كتاب الموقر تشارلس برى Rev. Ch Perry
عن Science & Bible لندن ١٨٦٩ وعن بايلا أنظر الجزء السادس والمشرى من
Catholic World ص ٧٨٢ ، وعن الاكاديمية أنظر Essays التى نشرها السكردينال مانج
وفد ورد ذكرها من قبل . وغير هذا مما اعتمد عليه الأستاذ « هوابت » .

Rougement في سويسرا إلى القيام بحرب صليبية لمقاومة هذا المذهب الفاسد... إلى آخر ما قيل في هذا الصدد.

وفي عام ١٨٦٣ أثار الاضطراب في معسكر اللاهوتيين، تأييد «تشارلس ليل» Sir Ch. Lyell لنظرية دارون - مع صدق عاطفته الدينية وحرصه على الحيلة والحذر، ومعارضته لنظرية التطور عند لامارك، واتباعه لفكرة الخلق المتعاقب! ووضح تأييد «ليل» - وهو أكبر جيولوجي في عصره - لمذهب دارون في كتاباته، ولا سيما «قدم الإنسان»، وكانت هذه لطمة عنيفة أنقضت ظهر اللاهوت.

وسار في الركب «هكسلي»، فنشر في ذلك الوقت كتابه «مكان الإنسان من الطبيعة»، الذي زوّد نظرية التطور بالانتخاب الطبيعي بأدلة جديدة. وكانت اللطمة الثانية التي أنارت فزع رجال اللاهوت، صدور كتاب دارون «تسلسل الانسان»، عام ١٨٧١ Descent of man، ومع أن هذا الكتاب كان تردداً لما قاله النقاد من قبل، فإن أثره كان مروعا، فهضمت «مجلة جامعة دبلن» لمقاومة هذا التيار، وأحيت الاتهام القديم بأن دارون يحاول إنزال الله عن عرشه! وتصدى طبيب فرنسي كاثوليكي ذائع الصيت «هو قسطنطين جيس» للرد على دارون، فنشر كتابه في باريس «مذهب دارون أو الإنسان القردي»، عام ١٨٧٧ وفيه صب احتقاره على كتاب دارون ووصفه بأنه «قصة خيالية»، واضحوكة كبرى... إلى آخر هذه الأوصاف، من غير أن يعرض لنقد الكتاب ودحض آرائه علمياً، ولكن رجال اللاهوت قد أسكرهم الرضا بهذا الكتاب، فصرح الكردينال أسقف باريس للمؤلف بأن كتابه قد أضحى مقرأته الروحانية! وأشار عليه بإهداء نسخة إلى البابا بيوس التاسع، وطرب البابا لهذا الكتاب لأن مؤلفه قد استطاع في لباقة محمودة أن يدحض ضلال المذهب الجديد! والرأى عنده أن هذا المذهب يتنافى مع التاريخ وتقاليد كافة الشعوب والعلم الصحيح

والحقائق المشاهدة ، بل يتنافى مع شريعة العقل نفسها ، فهو مذهب يقوم على غير أساس ، ولو استقامت الأمور ما كان هناك ما يدعو إلى محاولة نقضه ، ولكن الميل إلى الإلحاد والنزوع إلى المادية ، ينجح بأهله إلى الاستعانة بمثل هذه الآراء الخرافية ، إن الكفر قد حمل أصحابه على رفض الإيمان بالله ، خالق الأشياء جميعاً وإعلان استقلال الإنسان بنفسه ، بحيث يكون سيد نفسه وكاهن نفسه وإله نفسه ، ومضى هذا الغرور بأهله حتى أنزلهم منزلة السوائم التي تجردت عن العقل ، بل منزلة الجماد الميت ! فأكد هذا الغرور على غرورى منه القول اللاهوتي : أنى وجد الغرور وجدت الوقاحة ! ولكن مثل هذه الأوهام ينبغي دحضها ، وما دام أهلها يلقون بها في ثياب العلم الصحيح ، فليكن دحضها بالعلم الصحيح ، وبارك البابا بعد هذا جهود المؤلف في عصر أحوج ما يكون إلى مثل هذه الجهود ، ومنحه البركة المستمدة من الرسل ، وخلع عليه رتبة القديس سلفستر البابوية ! وأشار أسقف باريس السالف الذكر ، على المؤلف أن يعنى في الطبعة التالية لكتابه ببيان العلاقة بين قصص سفر التكوين ومكتشفات العلم الحديث لإقناع الملحدين بالتطابق التام بينهما : واطلع هذا السكرينال على تجارب الطبعة الثانية التي ظهرت عام ١٨٨٢ بعنوان « موسى ودارون ، إنسان سفر التكوين مقارناً بالإنسان القردى ، أو التعليم الدينى مقارناً بالتعليم الإلحادى ، وأسکر النصر هذا الكردينال فعانق المؤلف باسم الدين والعلم معاً . . . !

وإلى مثل هذا التطرف ذهب قادة البروتستانتية في إنجلترا ، فالستر جلاستون في خطاب ألقاه في ليفربول يقول : بقواعد نظرية التطور ، يتخلص الخالق من متاعب الخلق ! وباسم القوانين الثابتة أفلت منه حكم الدنيا ! وإن كان قد تراجع عن هذا الرأى حين نبهه هربرت سبنسر إلى أن نيوتن يتعرض لهذا الاتهام بنظريته في الجاذبية وآرائه في علم الفلك ، وأعلن الموقر دكتور كولز Rev Dr. Colls في British & Foreign Evangelical Review.

أن إله التطور ليس هو إله المسيحية ، ونشرت جمعية تقدم المعارف المسيحية Society for Promoting Christian Knowledge كتاباً وضعه المستر بيركس أعلن فيه أن نظرية التطور تناقض العقيدة الأساسية في الخلق كل التناقض ، وإلى مثل هذا ذهب سائر خصوم هذه النظرية !

انتصار النظرية الجبرية منى في المعسكرات الربية :

وفي عاب هذه الحملات ، أخذ يفتق بعض عقلاء رجال اللاهوت ، ويشفقون على الكنيسة من موقف التاريخ منها ، إذا ثبتت نظرية دارون ! إنها لا تزال تنوء بعبء موقفها من نظرية دوران الأرض ، والتنكيل بدعاتها إلى الأمس القريب ! أليس من الخير أن يترث رجال اللاهوت في حملاتهم ، وأن يجعلوا لشريعة العقل مكاناً في مهاجمة هذا المذهب الجديد ! هذه روح جديدة بدت طلائعها في أمريكا ، فصرح الدكتور « نوح بورثو » رئيس كلية « ييل » Yale بتدريس نظرية التطور في جامعته مع اعتقاده بعدم صحتها ! بل صرح بأنه لا يجد تنافياً بين هذه النظرية والنصوص المقدسة . . !

وعلى كذب من كلية « ييل » يقوم المتحف البالتولوجى Museum of Paleontology وفيه حاول الأستاذ « مارش » أن يثبت تطور الحصان منذ أقدم عصور التاريخ حين كان حجمه لا يزيد على حجم الثعلب ، وله خمسة أصابع حتى وصل إلى حالته الراهنة حجاً وشكلاً ، وهذه الحلقات التي تتابعت في سلسلة هذا التطور ، قد اتخذها « هكسلي » دليلاً قاطعاً على قيام الانتخاب الطبيعي عاملاً في إحداث النشوء ، على أن هذا لم يوقف تيار النزاع الذي حملة رجال اللاهوت على جناح العنف البالغ ، فلموقر الدكتور هودثي في جامعة برنستون أعلن أن نظرية دارون تناقض نص الكتاب المقدس ، وأن ليس إلهاً من غاب عن خلق الكون ، وأن إنكار القصد في فكرة الخلق إنزال لله عن عرشه ، وإنكاره في الطبيعة كفران بالله ، وأن من يؤمن بالغائبة

في الخلق لا يستطيع أن يكون من أتباع دارون، وتابع غيره في جامعة برنستون هذه الحملة . . .

ولكن هذه الجامعة « برنستون » Princeton قد تولى رأسها الموقر الدكتور جيمس ماكوش Mc Coch فناهض هذه الحملة الظالمة، معلناً أنها خطر على المسيحية نفسها، وأعلن في خطاب له أن أخطر شيء يهدد المسيحية في هذه الجامعة، أن يتكرر القول على مسمع من الطلاب أسبوعاً بعد أسبوع بأن نظرية التطور بالانتخاب الطبيعي، أو التطور بوجه عام، إن صححت ثبت بطلان الكتب المقدسة، ومن رأيه أن هذه هي آكد الطرق في إحالة الطلبة ملحدين لا يؤمنون بشيء، ومن أجل هذا منع قيام التبشير بهذا الهذر، ودعا إلى التبشير بالنظرية الجديدة، وكان عهده بدء الترفيق بين القسيتين، مع ما ناله من معسكات الخصوم. وسرعان ما ظهر من بين رجال اللاهوت من جهر بالقول بأن في إمكان الإنسان أن يجمع بين الإيمان بالمسيحية والاعتقاد في مذهب دارون.

ولكن هذا النزوع الجديد، قد لقي من خصومه عنفاً، ففي عام ١٨٧٣ ظهرت مجلة الدين الشهرية في يوسطن Monthly Religion Magazine تحمل تهاينها إلى قرائها بجهود الدكتور « بير » في تقويض نظرية التطور والإجهاز عليها وإلقائها إلى الكلاب! وتابع هذه الحملة في واشنطنون مجلس « المتوديزم » - وهو مذهب شيعة بروكستانتية.

ولكن رواد العلم الحديث قد غضوا الطرف عن حملات خصومهم من رجال اللاهوت، وأرسلوا بيناتهم تترى مؤكدة صحة المذهب الجديد، فأثارت الفزع والقلق في معسكات الرجعيين، والتسوا الخلاص من ضغط هذا الخطر الذي يتقدم نحوهم زاحفاً في يقين وثبات. ونزع بعضهم إلى التوفيق بين النظريتين هرباً من مقاومة التيار الجديد، وبدأت طلائع هذه الحركة الجديدة بين رجال الكنيسة في إنجلترا وأمريكا معاً، فالجامعات الإنجليزية قد أذعنت

للتسليم بالنظرية الجديدة ، ففي أكسفورد أعلنوا في اجتماع حزب الكنيسة العليا في كلية « كيبيل » Keble College أن نظرية التطور « تقدم في سبيل تفكيرنا اللاهوتي » .

ومن معسكر الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، ارتفع صوت ينادى بأن العقيدة الكاثوليكية لا تمنع أحداً من أتباعها من التسليم بنظرية دارون ، وأعلن ثقة من الكاثوليك في أمريكا أن نظرية التطور لا تتعارض مع عقيدة الكنيسة الكاثوليكية بأكثر مما تتعارض نظرية دوران الارض !

موقف العالم المسيحي من دارون بعد مائة :

ومات الرجل الذي أثار العالم المسيحي ، وأيقظ علماء ورجال اللاهوت في شتى نواحيه ، مات دارون فكان مشواه في دير وستمستر إلى جوار القبر الذي ثوى فيه إسحاق نيوتن ، وراثه الأسقف « فارار » Farar بخطاب نبيل تردد صده على أعواد المنابر في أوروبا وأمريكا ؛ ولكن دوائر الرجعيين ما زالت قلقة تتابع حملاتها بين الحين والحين ، فمن ذلك قول الدكتور « لانج » Rev. Dr. Laing إن دفن دارون في وستمستر ، يشهد بأن إنجلترا لم تصبح بعد أمة مسيحية ! وتردد الصدى في اسكتلندا وأمريكا معا !

ولكن الكنيسة الإنجليزية قد قاومت هذا العدوان الآثم ، ووقف رئيس أساقفة وستمستر « فارار » فاعترف بأنه لا يجد في نفسه القدرة على التسليم بالرأى العلى الحديث ، ولكنه بما يشين الكرامة « أن تكون محاولة زعزعة المذهب الجديد قائمة على الحجج الخطائية ، وإثارة الحماسة في نفوس الجملة والدهماء ، ممن يمتقون العلم وأهله !

وفي كلية ترنتي بكمبريدج ، نرى « هوويل » Whewell الحكيم الكلبي الحكمة وواضع كتاب « تاريخ العلوم الاستقرائية » يرفض الإذن بوجود نسخة من كتاب أصل الأنواع في المكتبة ، وفي الكثير من المعاهد التي تخضع لرقابة رجال اللاهوت من البروتستانت والكاثوليك على السواء —

وجدت محاولات ترمى إلى حظر التعاليم النشوئية أو تحقيرها ، ولعلنا لا نزال نذكر الكلية الأمر بكية في بيروت ، ونذكر كيف طردت الشبان من أساتذتها بحجة اعتناقهم لنظرية دارون ! ومثل هذا نراه في جامعة Vanderbirt في تينسي ، حين أقصت الدكتور ونشل Winchell من أجل هذا السبب نفسه .. ! وأطرف من هذا قصة الدكتور « وودرو » Woodrow فقد عيّن في عام ١٨٥٧ أستاذاً للعلم الطبيعي من حيث صلته بالدين المنزل بالمعهد المشيخي في كولومبيا ، وقد أداه البحث والنظر إلى اعتناق نظرية التطور ، فلم يغفر له ما عرف عنه من إخلاص للدين ووفاء لتعاليمه ، ثار في وجهه الكثيرون من رجال اللاهوت ، وأدت ثورتهم إلى إقصائه عن منصبه . ! وفي أسبانيا الكاثوليكية تردد الصدى ، فنشر الدكتور مارانجو Chily Marango عام ١٨٧٨ كتاباً عن جزر الكاناري ، وضمن مقدمته الفروض الحديثة في نظرية التطور ، وأيدها بأدلة استقماها مما عرفه عن الإنسان البدائي في جزر الكاناري ، فأثار هذا ضيق السلطات الإكليريكية ، وسرعان ما صدرت الأوامر بمصادرة الكتاب ، وياكراه القراء على رد جميع نسخه المتداولة في أيديهم ! أما عن مؤلف الكتاب فقد صدر ضده قرار بالحرمان (١) !

(١) ومن أجل الآراء العلمية الحديثة ، وبسبب نقد الكتاب المقدس . وقع مثل هذا الاضطهاد في قرنتا الغير ، فالأستاذ شتراوس David Strauss عزل من منصب الأستاذية في Tübingen وتحطم مستقبله من أجل كتابه « حياة يسوع » ١٨٣٥ م وقد رفض فيه رفضاً باتاً أن يعترف بشي، خارق للطبيعة ، ومن أجل هذا السبب نفسه ، كما بدأ في كتاب « رنان » Renan « حياة يسوع المسيح » فقد « رنان » كرسية في كلية فرنسا — كوليج دى فرانس — وطُرد بخت Buchner المادى عام ١٨٥٥ من طوبنجن السالفة الذكر ، من أجل كتابه « القوة والمادة » الذى أبان فيه للناس نفاحة تفسير الكون تفسيراً لا يتعمى مع قوانين الطبيعة ؛ وقد سعى البعض لطرد « هيكلم » Haeckel من جامعة جينا Jena ، بل عوقب في عام ١٩٠٧ الفس لوازى Loisy — وهو فرنسى كاثوليكى — بالحرمان الأكبر ، لأنه مسام مساهمة مثمرة في دراسة الكتاب المقدس ، وإخضاع مبادئه في فكرة التطور مع العلم ! وقد حظر الكهان قراءة كتاب بادن باول Baden Pawell « دراسة في حجج المسيحية » لأنه أنكر المعجزات ، وآمن بنظرية التطور ؛ وفي عام ١٨٦٢ =

ولكن القافلة كانت تمضي في طريقها قدماً ، لا تثقل رجلها ولا تقف التماساً لمرضاة الساخطين عليها ، وسارت في الركب كثرة من الجامعات في العالم القديم والحديث ، وانطلق المستنيريون من رجال الكنيسة إلى محاولة التوفيق بين الرواية الدينية ، والمذهب العلمي الحديث ، ففي كنيسة روتشدايل Rochdale صرح الموقر الدكتور « ولسون » رئيس أساقفة مانشيستر ، بإذاعته للنسليم بصحة المذهب المغري الذي بشر به دارون ، وحاول أن يربطه في لباقة بوجهة النظر الدينية ، وقد تكفلت بنشر هذه الكلمة جمعية تقدم المعارف المسيحية ، وهي التي كانت إلى الأوس القريب تقوم بنشر أعنف الحملات الموجهة إلى النظرية الجديدة ! وإلى مثل هذا الاتجاه الجديد ، ذهبت الحملات الدينية ، وأفسح اللاهوت الطريق لموكب العلم الحديث (١) .

== قدم للمعاكمة من أجل المساهمة في هذا الكتاب اثنا عشر مبعوثاً من كنيستهما ، وأداتهما المحكمة لإكثارية في أمور ، وقضت برامتهما في أخرى ، فصدر أمر بإيقامهما عاملاً كاملاً . وإن جاء استئناف الحكم في صالحهما — كما ستعرف بعد — ومثل هذه الاضطهادات كان وقوعها كثيراً . أما عن الحرمان فقد فسراه في كتابنا « قصة الاضطهاد الديني »

(١) كان هوايت عمدتنا في تأريخ هذا النزاع ، ولكن لا بأس من أن نزود القارىء بمجلة مصادر تناوأت هذا الموضوع في إسباب : أنظر في عداء الولايات المتحدة لنظرية التطور Systematic Theology (نيويورك ١٨٧٢ في الجزء الثاني من القسم الثاني) وكذلك كتابه The Light by which we see or Nature & the Scripture وفي مجلة كوارترلى الأمريكية الكاثوليكية عدد أكتوبر عام ١٨٧٧ مقال عن « المذهب الوضعي ونظرية التطور » وفي نفس العدد مقال للموقر A. M. Kirsh عن « الأستاذ هكسلي والتطور » وفي عدد يوليو ١٨٧٩ مقال للأستاذ ماك سويني Mc. Sweeny عن « منطلق التطور » وفي عدد يناير ١٨٧٨ مقال لجون دوفيل عن « نظرية التطور لجزء الإنسان والإنجيل » وفي مايو ١٨٨٦ « محاضرة عن التطور قبل القرن التاسع عشر » وقرأ كذلك مجلة الدين الشهيرة المشار إليها في صلب الكلام عدد مايو ١٨٧٣ وكذلك مقال « التطور وعدوه » في مجلة New York Weekly Sun في عدد أكتوبر ١٨٨٨ — أما فيما يتصل بالسلطات الأسبانية فاقرأ Revue d'Anthropologie عدد أبريل والمجلد التاسع عشر من العالم الكاثوليكي من ٤٣٣ وعدد مايو ١٧٧٤ من Curch Journal وفي تفصيل اضطهاد الدكتور « وثل » و « ودر » وأساتذة جامعة بيو — اقرأ المصادر السالفة والفصل الذي عقده أندرو دكسون هوايت A. D. White ==

تأثير رجال اللاهوت لحرية التفكير :

فاذا تجاوزنا المعارك التي أثير عيورها من أجل نظرية التطور ، لاحظنا أن القافلة كانت إبان ذلك القرن تمضي في طريقها قدما ، وقد أثرت حتى في المعسكرات الكهنسية نفسها ! فمن ذلك ظهور حركة في الكنيسة الكاثوليكية تعرف بالحركة العصرية أو التجديدية Modernism وهي قويا يقول البعض ، أخطر أزمة مرت بالكنيسة الكاثوليكية منذ القرن الثالث عشر ، والمعروف أن أتباعها لا يؤلفون حزبا ولا يلتزمون برنامجا ، وأنهم مخلصون للكنيسة وتقاليدها وجمعياتها ، ولكنهم يرون أن المسيحية دين خاضع للتطور ، وأن حيويته مرهونة باستمراره في هذا التطور ، ومن هنا كان حرصهم على إعادة تأويل العقائد في ضوء العلم والنقد الحديث ، وقد جاهدوا حتى تمثل المسيحية بعض نتائج الفكر في عصرهم ، وكان القس «لوازي» Loisy أظهر داعية في

== في كتابه المشار إليه من قبل عن The Fall of Man & Anthropology ، وعن الآراء الحرة بين المفكرين الدينيين بصدد نظرية دارون ومحاولات التوفيق بينها وبين الكتاب المقدس انظر رسائل كينزلي الى دارون (نوفمبر ١٨٧٩) في الجزء الثاني من « حياة دارون ورسائله » وفي مجلة The Spectator بلندن في عدد مارس ١٨٦٠ وفي Dublin Reveu عدد مايو ١٨٦٠ وفي Life & Letters of Sedgwick في الجزء الثاني وفي عدد يناير ١٨٧٤ من The Popular Science Monthly (مقال عن النسكون والجيولوجيا ونظرية التطور للموار جورج Henslow وقد ظهرت هذه المقالة أولا في كتابه Evolution & Religion — وعدد يناير ١٨٨٢ من Lutheran Quarterly ورسالة صغيرة للأستاذ وين W. H. Wynn عن ديانة التطور إزاء ديانة اليهود ، ومادة «تطور» في Dictionary of Religion ١٨٨٧ والأستاذ هكلى في An Episcopal Trilogy القرن التاسع عشر (نوفمبر ١٨٨٧) وهذا المقال يناقش ثلاث مواعظ ألقاها أساقفة Carlisle و Bedford ومانشستر في كاتدرائية مانشستر أثناء اجتماع عقده المجمع البريطاني في سبتمبر ١٨٨٧ ثم طبعت هذه المواعظ مستقلة تحت عنوان The Advance of Science ثم رايل H.E. Ryle أستاذ اللاهوت في كمبردج في The Early Narratives of Genesis (لندن ١٨٩٢) والمقال الذي كتبه سيرل G. M. Searle بالجامعة الكاثوليكية في واشنطن في مجلة « العالم الكاثوليكي » عدد نوفمبر ١٨٩٢ ... الخ الخ

هذه الحركة ، وقد أشرنا إلى قرار الحرمان الذي أصدره ضده البابا في عام ١٩٠٧ ، وذلك أن البابا بيوس العاشر ، قد أنفق كل مافي وسعه لقمع هذه الحركة ، وقد استنكر في قرار أصدره (عام ١٩٠٧) كل ما انتهى إليه لوازى من نتائج ، وبعد ثلاثة أشهر أصدر رسالة دورية مسببة عرض فيها أفكار هؤلاء المجددين في داخل الكنيسة ووضع خطة القضاء عليها .

وقد جرى في تيار هذه الحركة الأحرار من أحرار الكنيسة البروتستانية منذ عدة أعوام ، فكانوا إذا ذكروا ألوهية المسيح ، جردوها من كل مولد خارق للعادة . . . ! وإذا تحدثوا عن « البعث » ، أولوه بحيث لا يتضمن نشوراً جسمانياً معجزاً ، وإذا تكلموا عن وحي الإنجيل المنزل ، استخدموا معنى الوحي فيما يشبه الإلهام الذي عرف عند أمثال أفلاطون !

ظهر من أحرار رجال الدين ، من حاولوا مقاومة طغيان السلطة . . . ! فوضع سبعة — منهم ستة من رجال دين — كتاب « مقالات ومراجعات » عام ١٨٦٠ فسموا من أجله « أعداء المسيح السبعة » ، إذ طالبوا فيه بأن يفهم الإنجيل كما يفهم كتاب في التاريخ مثلاً ، ولهذا حرموا التأويل وحظروا من محاولة التوفيق بين المتناقضات ، وأوعزوا إلى القارىء بأن التنبؤات العبرية ليس فيها عنصر الإلهام . . . ؟ وأناروا الشك في كثير من المسائل التي كانت مقررة عند الكنيسة ، ومن هنا كان فرع رجالها من هذا الكتاب .

وظهر بعد هذا كتاب « بادن ياول » Baden Powell الذي أسلفنا الحديث عنه في هامش سابق ، وقد أشرنا إلى اثنين من القساوسة قد قدما للحكاكة عام ١٨٦٢ بتهمة المساهمة في هذا الكتاب ، وأنهما استأنفا الحكم ، فأصدر قاضى القضاة فى المجلس المخصوص واللورد وستبرى Westbury قراره بإلغاء حكم المحكمة الإكليريكية ، ونص فى القرار على أنه ليس من الضروري لرجل الدين أن يؤمن بعذاب الآخرة ! فكتب على قبر هذا القاضى ، : فى أواخر أيامه طرد جهنم ، وانتزع من أتباع الكنيسة الإنجليزية آخر أمل عقوده

على الخلود في الجحيم ! ومن هنا أدرك الناس مدى التزام رجال الدين للعقائد اللاهوتية ، وبدت روح الحرية الفكرية في داخل الكنيسة .

ثم استقرت هذه الحرية في عام ١٨٦٥ بقانون اعتمده البرلمان ، غير صيغة القسم الذي كان يقسمه رجال اللاهوت عند توقيع « قانون إيمان الكنيسة الإنجليزية » Thirty Nine Articles .

وكان من دلالات هذا الجو الجديد ، إقبال الجماهير على أحرار المفكرين . وقد ظهر هذا في إنجلترا مع « هوليوك » Holyoake الذي سجن بتهمة التجديف في أوائل حياته ، وأنشأ أو آخر أيامه Rationa Press Association للنشر المذهب العقلي وإذاعة ما يكتبه أحرار الفكر بين الناس ؛ وقد ألغى هذا المفكر الضرائب التي كانت مفروضة على المطبوعات ، فساعد بهذا على إشاعتها بين الجماهير ، وكانت الرقابة المفروضة على المطبوعات قد اختفت في إنجلترا منذ عهد مديد ، وألغيت في أكثر الدول الأوربية . إبان القرن الغابر وأصبحت المؤلفات تزداع على الناس في أواخر ذلك القرن ، وفيها إنكار لوجود المسيح تاريخياً ، من غير أن يثير هذا ضجة أو صخباً ! وتلاشى القول بأن التفكير الحر لا يستقيم مع اتباع قواعد الأخلاق ! فانفق الناس - مع استثناء رجال الفاتيكان - على أن كل شيء - في الأرض أو في السماء - خاضع للبحث العقلي من غير حاجة إلى الاستعانة بمزاعم السلطات الكنسية ! ومن هؤلاء الأحرار « برادلو » Bradlaugh الذي كان أجل عمل أداه ، إحرازه في عام ١٨٨٨ حقاً أتاح للملحدين في إنجلترا أن يكونوا أعضاء في البرلمان من غير قسم يقسمونه !..

فزع السلطات الدينية ومظاهره :

هذا الفيض الجارف من حرية الفكر - حتى في داخل الكنيسة نفسها - قد أثار فزع المسكرات الدينية ، أشفق رجالها على تعاليم الدين أن يكتسحها

التيار ، وعلى نفوذهم أن يتلاشى في غمرة هذا الفيضان ! فتكاتفوا لمقاومته ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

وفي عام ١٨٦٤ أصدر البابا بيوس التاسع منشورا عرض فيه خطايا العصر ، ومناهجية الإنسان في اعتناق المذهب الذي يبدو أمام عقله صوابا ، والاعتراض على أن من حق الكنيسة استخدام القوة في مقاومة خصومها وإبادة آرائهم ، ثم دراسة الفلسفة الميتافيزيقية العقلية ، من غير الاستعانة بالكنيسة أو اتخاذ الرواية الدينية مرجعاً ! ومن هذه الأخطاء دعوة البابا إلى تأييد التقدم ومبادئ الحرية والمدنية الحديثه . الخ وقد كانت هذه الوثيقة في نظر الناس ، إعلاناً للحرب على حركات التنوير ، كما كان مجلس الفاتيكان في نظرهم أول حشد حربي من جيوش الظلام ، يتقدم لمقاومة كل أثر للنهوض (١)

° ° °

وزاد مجلس الفاتيكان ففاجأ الناس في العالم الأوربي ، بل فاجأ بعض أتباع الكنيسة في روما — بقرار مثير لكل دهشة ، أصدره عام ١٨٧٠ وأعلن فيه أن البابا معصوم من الوقوع في الخطأ ! وكان للسكريدنل ، ماننج ، أوفر نصيب في إصدار هذا القرار العجيب .

جاء هذا القرار في غير أوانه ، وإن كان القرار متمشيا مع اتجاهات غلاة المتعصبين من رجال اللاهوت المتعسف ، فقد ثارت نائرة هؤلاء المتزمتين ، قبيل صدور هذا القرار ، عندما جاهد « ا . د . د . هويت » صاحب كتاب « تاريخ النزاع بين اللاهوت والعلم » مع « عزرا كورنل » لإنشاء الجامعة التي تحمل اسم الأخير ، وعقدا النية على أن تتخلص هذه الجامعة من كل سلطة تعوق حرية البحث ، وتحرر من سيطرة الأحزاب السياسية والطوائف الدينية معا ، من غير أن يخطر لها أن يمسا المسيحية بسوء . بل لقد كانت تربطها برجال الكهنوت صلوات مودة ، وكان من أغراضهما العمل على ترقية الدين المسيحي

(١) وقد أشرنا من قبل إلى منشور البابا جريجوري السادس عشر الذي هاجم فيه حرية الضمير ... في عام ١٨٢٢ م وقد أورد القرار مختصرا Lucky ج ٢ ص ٦٩ — ٧٠ ويوروي ونشره كاملا Lemennais في Affaires de Rome ص ٣١٨ — ٣٥٧ .

إلى جانب غرضهما الثقافى ، ولكن رجال اللاهوت المتعسف ، قد بادروا بمقاومة المشروع خطابة وكتابة !

بيد أن الثورة قد أخفقت ، إذ لم يمض على إنشاء الجامعة ربع قرن ، حتى استقرت قدمها وتوطدت دعائمها ، وامتلات بالطلاب الذين كانوا يتهافون على الالتحاق بها ، وأجرى عليها الأرزاق المحسنون بغير حساب ، وأحاطتها ثقة الجمهور من كل جانب ، بل انتصرت مبادئها في غيرها من معاهد - فيما يقول هوait في مقدمة كتابه عام ١٨٩٠ .

بل لقد جنحت إلى هذا الاتجاه ، الشعوب الحديثة المتقدمة ، كانت الهيمنة على التعليم العام في أمريكا وغيرها - عند صدور القرار بعصمة البابا ، وبعد صدوره بقليل - في يد رجال الكهنوت ، وسرعان ما تغير الوضع ، وانتقلت الهيمنة إلى أيدي العلمانيين ، وفي كبرى الجامعات في الولايات المتحدة - مع استثناء جامعة أو ثنتين - وفي البلاد الأوربية التي كانت تعتبر قلاعاً للاهوت المتعسف ، أصبح الرؤساء من العلمانيين ؛ ويقول « هوait » إنه حين زار جامعتي اكسفورد وكمبردج في عام ١٨٥٤ ، ألقاهما خاضعتين للسيطرة الإكليريكية كل الخضوع ، ولكن هذا قد تغير بعد أربعين عاماً من زيارته .

الاضطهاد عند الكاثوليك وعند البروتستانت :

كانت معسكرات البروتستانت فيما يظهر أقل غطرسة وخيلاء من معسكرات الكاثوليك ، بل إن بيورى يرد الحالات التي حاولت فيها المدنية قمع الفكر الحر منذ القرن الثامن عشر ، إلى الرغبة في عدم إذاعة الأفكار الحرة بين الجماهير فالدين أداة ناجحة في إخضاع الناس وحفظ الأمن بينهم ، والجهل يحمل أصحابه على الرضا والقناعة والخضوع لحكامه .

ويقول « درابر » Draper في كتابه عن « النزاع بين الدين والعلم » في مرض الموازنة بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة البروتستانتية : ليس بين الكنائس البروتستانتية كنيسة اعتصمت بالغطرسة والاستبداد ، وكان لها من النفوذ السياسى الواسع النطاق ، ما كان للكنيسة الكاثوليكية الرومانية !

بل لقد كانت الكنائس البروتستانتية في أكثر حالاتها، تنفر من الإكراه وتمقت الاستبداد، وقد كانت مقاومتها للفكر الحر - إذا استثنت حالات بالغة الندرة - أثراً من آثار الحقد الذي أثاره المتزمنون من رجال اللاهوت في وجوه خصومهم .

ولعل ترفق البروتستانت بأحرار الفكر، يرجع إلى حاجتهم إلى السلطان الزمني الذي تهيأ لزملائهم في الدول الكاثوليكية، أكثر مما يرد إلى تمسكهم بمبادئهم في النساج وحرية التفكير، والناظر إلى الدول المسيحية الثلاث الكبرى في غربي أوروبا، حيث يوجد من سكانها أغلبية كاثوليكية، يلاحظ أن الميل إلى التقدم والنزوع إلى حرية التفكير، يصاحبه تدهور في قوة السلطات الأكايركية، ففي أسبانيا حيث تظفر الكنيسة بوفرة من القوة والمال وتستطيع أن تملي إرادتها على الحكام، لانكاد نجد لفكرة التقدم أثراً جدياً كالذي نراه لها في فرنسا وإيطاليا ! وإذا كانت حرية الفكر تراولها أقلية مستتيرة من الأسبان، فإن السواد الأعظم من السكان يعيش في جهل ملحوظ ومن مصلحة الكنيسة أن يظلوا كذلك ! وليس من اليسير التحرر من ضغط هذا الجهل، طالما وجدت هذه السلطة الدينية في أسبانيا، وليس أدل على ذلك من مصرع « ف . فرير » Francisco Ferrer^(١) الذي يعيد إلى الأذهان ذكرى العصور الوسطى، ذلك أنه نهض بإنشاء مدارس حديثه تقوم بتدريس العلوم الدينية في مقاطعة « قطالونيا »، فأزعج الإقبال عليها السلطات الدينية ومن ثم أخذت تهاجمه وتثير الحرب في وجهه، وفي صيف عام ١٩٠٩ أضرب العمال في برشلونة حيث تصادف أن كان هناك فرير بضعة أيام في بدء هذه الحركة، واشتدت حركة الإضراب حتى تحولت إلى ثورة عنيفة دامية، فأعلن خصومه اتهامه بإثارة هذه الفتنة ! ! وأخذت الصحف الكاثوليكية والسلطات الأكايركية تطالب الحكومة بمعاقة منشئ المدارس الحديثة التي أوقدت نار الثورة وأدانت « فرير » المحكمة العسكرية وقررت إعدامه، فقتل رمياً بالرصاص ! !

(١) انظر تمصيل - - - Mc. Cabe, T., The Martyrdom of Ferrer, 1990

(في أكتوبر ١٩١٣) فاستشهد بهذا في سبيل الدفاع عن حرية التفكير . وقد أثارت هذه المأساة الحق في العالم الأوربي كله - وفي فرنسا بوجه خاص - وهي ظلم جائر يحتمل تكراره في كل بلد تؤق في الكنيسة هذا النفوذ . ويتولاها مثل هذا التعصب ، ويشيع في سياسته مثل هذا الفساد - فيما يقول بيورى .

تنبأ « هويت » في أواخر القرن الغابر ، بما وقع في القرن الراهن فعلا ، إذ قال إن العلم الذي سحق اللاهوت المتعسف ، سيسير في المستقبل مع الدين جنباً إلى جنب ، وبينما يتضاءل نفوذ اللاهوت ، يقوى الدين وينمو في ثبات . وقد عرفنا شيئاً من هذا ، إذ انتقل العلم بجأة من المادية المتطرفة في القرن الغابر إلى روحية مسرفة موعلة في القرن الحاضر ، واصطبغت نظرتة - فيما يقول ولف Wolf في كتابه المشار إليه من قبل - بصبغة دينية صرفية ، واهتم بعض رجاله بالتفكير الديني وأساليبه ، فتلاشى الجفاء بين رجال الدين وأهل العلم في قرنا الحاضر ، كما تلاشى بينهم وبين الفلاسفة في القرن الغابر ، وتآخى اللاهوت مع العلم - في القرن العشرين . ومع الفلسفة التي سبقت العلم إلى هذا التآخي على ما عرفنا في مطلع هذا الفصل . وبهذا صفا الجو وخلا - في القرن العشرين - من مقاومة اللاهوت للفلسفة والعلم معاً ، فخلا كتابنا من حديث عن النزاع في عصرنا الحاضر . . . !

كلمة أخيرة :

وبعد ، فقد توج الفشل جهود المتزمنين من رجال الدين ، في اضطهاد الفلاسفة وجندلة رجالها ، لأنهم لا يستطيعون أن يطفئوا للحق نورا ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، إن غلاة المتعصبين من أصحاب السلطة ، يملكون إبادة خصومهم واستئصال شأفتهم من الوجود ، ولكنهم لا يقوون على أن يطمسوا آية الحق الذي يستشهد في سبيله هؤلاء الأبطال ، إن الحق لا يموت بموت شهدائه ، إنه يبقى أبداً لا يحده زمان ولا مكان ، وإذا عدم الأنصار في عهود الاضطهادات

الكالحة المشتومة ، وجدّ هؤلاء الأنصار بعد هذه العهود ، وقد زادهم تاريخه
إيماناً به ، وكلفنا بالاستشهاد في سبيله . . . او من هنا كان الفشل هو المصير
المحتوم للجهود التي أنفقها اللاهوت المتعسف والتعصب المتزمت ، في عرقلة
العقل والتنكيل بأهله . وقد مضى موكب الأحرار في طريقه قدما ، وقد استبد
بهواه نداء العقل ، وتخلف الجامون وفاتهم الركب ، فعسكروا حيث كانوا ،
وقد قلّ عددهم واضمحلت نفوذهم وتضاءلت آمالهم ، وباتوا يسرحون
الطرف في مواكب الفسكر الحر الظافر ، فيرتدّ بصرهم خاسئاً وهو حسير !

تصويب الأخطاء (١)

اقرأ ما يلي بدل المكتوب في صلب الكلام :

س	س	س	س
٨	٤٦	١٣	١٩
وقد صاغ		طبيعة العقل البشري	
٤٨	آخر س ٥ من أسفل: النصوص المقدسة	١٠	٢١
J. Bruno	١١	٥٤	Draper
٨	٥٧		٦
الاسبرطين			٢٢*
١٤	٥٩	٧	of the
مزاجاً		١٠	la
١١	٧٣	١٢	Freedom
يمتاز من			
١٤	٧٤	٢٣	بعد السطر السابع يكتب
هي الطريق			عنوانا لما يليه : ومناظرة بين
٣	٧٥		الإمام وفرح أنطون ،
من أسفل : Brehier			
٧٦	أول الفصل : تمهيد (كعنوان	١٧	٣٠
	لما يليه)	١٩	٣١
١٣	٧٨	١٠	٣٢
الآباطرة (لا الإمبراطرة ،		٨	٣٣
وتصحح كذلك في نفس		١٧	٣٣
الصفحة س ٦ و ٣ من أسفل)		٦	٣٥
٤	٨٠	٩	٣٦
(+ ٣٩٥ م)		٧	٣٨
آخر سطر قبل الهامش :	٨١	٧	٣٩
البابا Gelasius		٥	٤٠
Theodwin	٥	٨٣	٤٠
٧	٨٨	٧	٣٩
من أسفل : أوجست		٥	٤٠
٧	٩٥	٦	٤٠
من أسفل : أنه لسوء الحظ		٦	٤٠
٨	١٠٢	٦	٤٠
من أسفل Encyc. of Religion			
Ethics & (أما دائرة المعارف			
البريطانية فيقرأ فيها مادة			
Inquisition			
٤	من أسفل فرح أنطون	٤٣	آخر سطر : عن ظاهر الإنجيل
		٤٥	١٠ من أسفل : قراء كثيراً

(١) ذكرنا في هذا الثابت بعض ما وقع من أخطاء ، وأغفلنا الباقى استناداً إلى ذكاء القارىء.

س	س	س	س
٥	١٤٦	١٠٣	أول الفصل : تمهيد (كمنوان لما يليه)
٦	١٥٨	١٣	١١١ فكفروا من أجلها
٤	١٦٤	١	١١٤ وترضى
٢	١٧١	٥	١١٨ ابن رشد
٦	١٧٦	١٤	كل مسموه
٥	١٧٩	٣	١٢٥ قد ذهب
٦	١٨٥	٥	١٣١ عن التكفير
٤		٥	١٣٤ تحذف كلبه : إنها
٥	٢١٦	١١	١٣٩ استقلال شخصيته
٢٠٠		١٢	من أسفل : أفلاطون وأفلوطين
١١	٢٢٣		
٧	٢٣٦		

كشاف

بأهم أسماء الأعلام (١)

الاسكندر : ٦٨	ابن تيمية : ١٠٥ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٩
اسكندر الخامس : ١٥٠ - ١٥٣	ابن الراوندى : ١٢٥
اسكندر السابع : ٢٠١	ابن رشد : ٢٨ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٦
اسكندر السادس : ١٦١ ، ١٦٣	إلى : ١٠١ ، ١٠٧ ، ١١٣ - ١١٥
أفلاطون Platon : ٥٢ - ٥٣ ، ٥٦	١١٨ ، ١١٩ - ١٣٢ ، ١٣٤
٦٧ ، ٦٩ ، ٨٢ ، ٩٩ ، ١٠٦	١٥٠ ، ١٥٠ ، ١٥١
١١١ ، ١١٣ ، ١٣٩ ، ١٤١	ابن سينا : ٩١ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٥
١٥٠ ،	١١١ ، ١١٢ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٥٠
اكسانوفان : ٥٤ ، ٦٠	ابن الصلاح : ١٠٤ ، ١١٣ ، ١٢٠ -
اليسابات Elizabeth : ١٥٢ ، ١٥٣	١٢٣ ، ١٣٤
أليبر الكبير Albertus Magnus :	ابن قيم الجوزية : ١٢٣ ، ١٢٤
٨٤ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ١٦٠	ابن ميمون : ٩٣ ، ٩٥
أمبروز (القديس) : ٨٠	أبونو (بطرس أليانو) : ١٦٠
أنت (بطرس) Petar Annet : ٢٢٨	أبيقور Epicure (وأبيقورية) : ٦٩
أنسلم (القديس) St Anselm : ٢٤	٧٠ ، ٧٢ ، ١٧٢
٨٤ - ٨٥	أبيلارد Abelard : ٣٣ ، ٨٧ - ٨٨
أنكساجوراس Anaxagoras : ٥٤	إربان الثامن (البابا) : ١٤٧ ، ١٤٨
٦٢ ، ٦٣ - ٦٤	١٩٧ ، ١٩٨
إنوسنت الثالث Innocent : ٨٣ ، ١٦٣	إرزم : ١٤٢
إنوسنت الثامن : ٣٢ - ٣٣	أرسطارخورس : ١٥٥
إنوسنت الرابع : ٣٦	أرسطو : ٥٢ ، ٦٨ ، ٨٢ ، ٨٨ إلى
أوريغان Origen : ٧٩	٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٦ - ١٠٧ ، ١١١
أوغسطين (القديس) St Augustine	إلى : ١١٤ ، ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥٥ ، ١٦٧
٣١ ، ٥٦ ، ٨٠ ، ٨١ - ٨٢ ، ٨٤	١٦٨ ، ١٧٣ - ١٧٤ ، ١٩٥ ، ٢٠٥
٨٦ ، ٩٠ ، ١٥٩ - ١٦١ ، ١٧٦	
١٧٨	

(١) ذكرنا في هذا التبت أهم أسماء الأعلام كما وردت في أم الصفحات.

- بطليموس أو بطليموس : ١٥٦ ، ١٥٥ ،
١٩٧ ، ١٩٤ ،
بلا تو Plateau : ٢٣٤ ،
بلارمين Bellarmin : ١٩٦ — ١٩٥ ،
بلوثارك : ٧٢ ، ١٤٣ ، ١٥٩ ، ٢٢٠ ،
بنافورت (ريموند) Raymond
٩٩ : Pinnaforte
بندكت الرابع (البابا) : ١٩٩ ،
يوريلي Borelli : ١٤٨ ،
بوفون Buffon : ١٨١ ، ٢٢٧ ،
بولس (بولص) : ١٥٩ ، ١٦١ ،
بولس الخامس (البابا) : ١٩٥ ، ١٩٦ ،
٢٠١ ،
بولس الرابع : ١٦٣ ،
بولنجبروك Bollingbroke : ١٨٢ ،
بومپنازى Pomponazzi : ١٥١ ،
بويل : ٢٠٦ ،
بيكون (أنظر باكون)
بين (توماس) Th. Paine : ٢٢٦ ،
لى : ٢٢٩ ،
بيوس التاسع : ١١ ، ١٤٧ ، ٢٤٣ ،
٢٥٣ ،
بيوس السابع : ٢٠٠ ،
بيوس العاشر : ٢٥١ ،
تاج الدين السبكي : ١٠٥ ، ١٢٣ ،
تباريوس (تيريوس الامبراطور)
٢٠٩ ، ٧١ : Teberius
ترتليان Tertullian : ٧٩ ، ٨٢ ،
تريشيرانوس Trevirinus : ٢٢٨ ،
أوكام (وليام) W. Occam : ٨٥ ،
٩٥ ،
أوليفا Oliva : ١٤٨ ،
إبروييد : ٥٦ — ٦٤ ،
باركلي Barkley : ٢٢٢ ،
باكون أوييكون (روجر) Roger
١٤٠ ، ٨٩ ، ٨٨ ، ٣١ : Bacon
١٧٥ ،
باكون أوييكون (فرنسيس) Francis
— ٢٠٤ ، ١٤٠ ، ٨٩ Bacon
٢٠٦ ،
بادن باول Baden Pawell : ٢٥١ ، ٢٤٨ ،
بايل Bayle : ١٧٨ — ١٨٠ ، ١٨٢ ،
٢١٨ ، ١٢٠ ،
باله Baley : ٢٢٥ ، ٢٢٦ ،
بترارك : ١٥٠ ،
بخنر Buchner : ٢٤٨ ،
برادلو Bradlaugh : ٢٥٢ ،
برستلى : ٢٢٦ ،
بركلييس : ٦٢ ، ٦٣ ،
برنارد (القديس) St Bernard :
٨٧ — ٨٨ ،
بروتاجوراس Protagoras : ٦٣ ،
بروفو (جوردانو) J. Bruno : ٥٤ ،
١٤٩٠ ، ١٥٢ ، ١٥٦ ، ١٦٤ ، ٢٣٤ ،
بريسليان (أوبرسكليان) Priscillian : ٨ ،
بسكال : ٥٦ ، ١٧٩ ، ٢٢٢ ،
بطلر : ٢٢١ — ٢٢٢ ،

- الخوارزمي : ١١٣
 دارون (تشارلس) : ٢٣٨ — ٢٤٨
 ٢٥٠ ، ٥
 دانتى : ١٥٥
 درايفر Driver : ٢٣٥
 ددويل Dodwell : ٢١٩
 دى دومينس De Dominis : ١٤٩
 دياجوراس Diagoras : ٥٤
 ديدرو Diderot : ١٧٧ ، ١٨١ ، ١٨٦
 ١٨٧ ، ١٨٨
 ديكارت Descartes : ١٦٧ ، ٩٠ ، ٥
 — ١٧٢ ، ١٧٤ — ١٧٨ ، ١٨٠ —
 ١٨١ ، ١٩٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥
 ٢٠٧ ، ٢١١
 دمقريبطس ٦٠ ، ٧٠
 الرازى (زكريا) : ١٢٥
 الرازى (نجر الدين) : ١٠٨ ، ١٢٥
 رالى (والتر) : ١٥٢
 رايل Rev. Dr Ryle : ٢٣٥
 رايوند : ٩٠
 ركن الدين (محمد بن عبد السلام الجيلانى) :
 ١٠٧ ، ١٣٢
 روبسبير : ٢٢٦
 روسو (چان چاك) : ١٨٣ — ١٨٨
 ريتكوس Rheticus : ٣٤
 ريدي Redi : ١٤٨
 ريشيلو : ١٤٧
 رينان Renan : ١١٩ ، ٩٥ — ١٢٠
 تشارلس الثانى : ٢٠٦
 تليزيو Telesio : ١٤٧
 تولند Toland : ٢٠٧ ، ٢١١
 تندال (ماتيو) M. Tindal : ٢١١
 ٢١٦ — ٢١٨ ،
 توما (القديس) St. Thomas
 ٢١ ، ٥ ، ٨٤ — ٩٥ : Aquinas
 ٩١ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٥٥
 تيوفيلوس Theophilus : ٨٢
 ثاوفراسطس : ٦٨
 جاليليو Galileo : ٣٤ ، ٥٤ ، ٥٥
 ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ،
 ١٩٣ — ٢٠١ ، ٢٣٤
 جيون (أنظر جييون)
 جريمحورى التاسع : ٣٦ ، ٩٦
 جريمحورى السادس عشر : ١١ ، ٢٥٣
 چستنيان : ٨٢
 جلاستون : ٢٣٤ ، ٢٤٤
 جلاسيوس (البابا) Glasius : ٨١
 چنتايل (أو چنتيلي) V. Gentile : ٥٤
 جوته : ٥٢ ، ٢٢٥
 جورج الثالث : ٢٢٧
 چون (حنا) الحادى والعشرون
 (البابا) : ٩٩
 جييون (أو جيون) Gibbon : ٣٨
 ٢٢١ ، ٢٢٤
 چيمس الاول : ١٥٢ ، ٢١٩
 الحكم (الخليفة) : ١٠٨ ، ١١٣

- ٤٦ — ٤٧ طيون : Theon : ٨٢
 الغزالي : ٢٨ ، ٩٣ ، ٩٩ — ١٠٠
 ١١٤ ، ١٠٩ ، ١١٠ — ١١٩
 ١٢٠ ، ١٢٢ — ١٢٣ ، ١٣٤
 الفارابي : ٩١ ، ٩٩ ، ١١١ ، ١٢٢
 فانيني : Vanini : ١٥٤ ، ١٥٠
 فردريك الأكبر : ١٨٥
 فردريك برباروسا : ٨٣
 فردريك الثاني : ٣٦ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١٠١
 فرنسوا الأول : ٣٤
 فولتير : Voltaire : ٩ ، ٨٩ ، ١٧٧ ، ١٨١
 إلى : ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٢٠
 فيرير (فرنشسكو) : Fransisco Ferrer :
 ٢٥٥
 قسطنطين (الأمبراطور) : ٧٩ ، ٢٢٤
 كامبانيايلا : Campanella : ٥٤ ، ١٤٠
 ١٩٩٠
 كبلر : Kepler : ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٣٤
 كلفن : Calvin : ٤١ — ٤٦ ، ١٥٢
 كليمان الاسكندري : ١٥٥
 كليمان السابع : ١٥٦
 الكندي : ٩١
 كوبرنيكوس : Copernicus : ٣٤ ، ٤٤
 ١٤٩٠ ، ١٥٤ — ١٥٨ ، ١٩٤
 ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ — ٢٣٤
 كوستا (أكوستا) : Gabriel Costa :
 ١٩٢
 كولمبس : Columbus : ١٦٠ — ١٦١
 ١٢٧٠ ، ٢٤٨٠
 رينولد Reinhold : ٣٤
 زينو Zeno : ٦٧
 ساقونا رولا : Savona Rola : ١٤٩
 ساتيلير (عالم طبيعي) : ٢٣٨
 ساتيلير : ٣ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ١٦٦
 سبنسر (هربرت) : Herbert Spencer :
 ٢٤٤
 سبينوزا : Spinoza : ٤ ، ١٦٧ ، ١٨٨
 إلى : ١٩١ ، ١٩٣ ، ٢١١
 ستيفن (لسلي) : L. Stephen : ٢٢٥
 ستيفن (أسقف باريس) : ٩٧
 ستيفن ج. ت. : ١٧
 سرفينوس : Servitus : ٤٣ ، ٤٦ ، ١٥٢
 سقراط : ٥٤ ، ٦٥ — ٦٧ ، ١١١ ، ١١٣
 سكستوس الرابع (البابا) : ١٦٣
 سكوت (دانز) : ٩٥
 سنكا : ١٤٣
 شارون : Charron : ١٤٥
 شافتسبري : Shaftesbury : ٢١٩ — ٢٢٠
 شتراوس (داود) : David Strauss :
 ٥٢٤٨
 شكسبير : Shakespeare : ١٥٢
 شيكو دا سكوبي : Cecco d'ascoli :
 ١٦٠
 شيشرون : Cicero : ٧١ ، ١٤١ ، ١٤٣
 ١٥٥ ، ١٥٩ ، ٢١٧
 شبلي : ٢٢٨
 صوصينوس (أوسوسينوس) : Socinus :

- مارتن (ريموند) : ٩٩
مارتن (القديس) : ٨٠
مارليو Marlowe : ١٥٢
مازران : ١٤٧
مالبرانش : ١٦٧ ، ١٧٧ ، ١٧٧ ، ٢٠٣ ، ٢٠٣ ، ٢٥٣
ماننج (الكردينال) : ٢٤٠ ، ٢٥٣
مدلتون : ٢٢١
المعتصم : ١٠٦ ، ١٣٥
مكياقيلي : ٧١
ملانكتون Melanckton : ٤٣
ملتون Milton : ١٥٣ — ١٥٤
المنصور بن أبي عامر : ١٠٨
المنصور (الحاجب) : ١١٣
المنصور (يعقوب) : ١١٥ ، ١١٨ ، ١٣٣
مونتاني Montaigne : ١٤٣ ، ١٤٥
١٦٧ ، ١٧٩ ،
مونتسكيو : ١٨٤
دي مونفورت De Monfort : ٨٣
المهدي : ١٠٦ ، ١١٩
دي ميليه : ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨
نيوتن : ٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢٣٤
٢٤٤ ، ٢٤٧ ،
الهادي : ١٠٦
هارون الرشيد : ١٠٦
هر بارت شيربري : ٢١١ ، ٢١٩
هرشل : ٢٣٤
هكسلي : ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥
هنري الرابع : ١٣٦ ، ١٤٧
هنري الخامس : ٣٦
- كولنز : ٢١٥
كونديلاك Condillac : ١٨٠
كونت (أوجست) : ٨٨
كيد Keyd : ١٥٢
لاكتانتوس Lactantius : ٧٩
لامارك Lamarck : ٢٣٨ ، ٢٤٣
لامتري Lametrie : ١٨٠
لامي (الأب) Lami : ١٧٦
لقنجستون : ٥٢ ، ٥٣ — ٥٦ ، ٥٧
١٦٦ ، ١٧٧ ، ١٧٢ ، ١٥٧ —
لل (ريموند) R. Lull : ١٠٠
لوازي Loisy : ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥١
لوثر (مارتن) M. Lutner : ٤١ إلى
١٤٢ ، ١٤٦
لوك (جون) John Locke : ٤
١٦٧ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ،
١٨٩ ، ٢٠٦ — ٢١١ ، ٢١٥ ،
لوكريتوس : ١٥٩
لوكيوس الثالث : ٨٣
ليبنيتز Leibnitz : ٢١٠
ليفوت (جون) John Lightfoot :
٢٣٣
ليجيت : Legate : ١٥٢
ليل (تشارلس) Ch. Leyll : ٢٤٣
لينيوس Linneaus : ٢٣٧ — ٢٣٩
ليو الثالث : ١٦٣
ماجلان : ١٦١
المأمون : ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٣٥

- هيرقليطس : ٦٠ ، ٦١
هيوم (دافيد) David Hume :
٢٢٢ — ٢٢٥
والاس (ألفرد رسل) Alfred Russel
Wallace : ٢٣٨ — ٢٣٩
وات : ٢٢٦
ودرو Woodrow : ٢٤٨
وطسون : ٢٢٧
ولتر ميتشل Walter Mitchel : ٢٤٢
ولستون Woolston : ٢١٥ ، ٢١٦
٢٢٨ ،
ويزمان Wiseman : ٢٤١
ويكلف Wyclif : ١٤٢
يوليوس الثاني (البابا) : ١٦١
- هنري الثامن : ١٥٣
هوايت (أندرو دكسون) A. D.
White : ٢٥٣ ، ٢٥٤ (مع إهمال
الصفحات التي ورد فيها كرجع لنا)
هوبز (توماس) Th. Hobbes : ٥٤
١٩٢ ، ٢٠٨
هوس (جون أوحنا) John Huss : ١٤٢
هوكر (يوسف) Joseph Hooker : ٢٣٨
هولباخ (البارون) Holbach : ٩
١٨٦ ،
هوليوك : ٢٥١
هومير : ٥٤ — ٥٥ ، ٥٧ ، ٦٠ ، ١٤١
هيباتيا Hypatia : ٨٢
هيكل Haeckel : ٢٤٨ هـ

فهرس الكتاب

مقدمة

٣ إمكان الجمع بين التفلسف والتدين ، ٥ لا يستقيم النضج العقلي بغير حرية فكرية ، ٦ العداء مع اللاهوت وليس مع الدين ، ٧ متى قام النزاع بين العقل والإيمان طوال التاريخ ، ١٢ اضطهاد الفلسفة في الإسلام ، ١٢ موقف الدين من اضطهاد العقل ، ١٣ كلفة في علاجنا لموضوع الكتاب ، ١٥ خلاصة هذا الكتاب وعلاقته بكتابنا عن الاضطهاد ، ١٧ كلمة أخيرة . . . ص ٣ - ١٦

الفصل الأول

حرية النظر العقلي والقوى المناهضة لها

١٧ حرية النظر وآفاقها ، ١٩ طبيعة العقل البشري ، ٢١ طبيعة المعتقد الديني ، ٢٢ موقف الإنجيل والسلطات الدينية من حرية النظر : (رأى دارپر ويورى وهويت) ، ٢٣ مناظرة بين الإمام وفرح أنطون ، ٣٠ جهل السلطات الدينية ، ٣٣ رجعية الجامعات ، ٣٥ محاكم التفتيش ، ٣٩ رجعية القائمين بالاصلاح الديني ، ٤٦ أحرار الفكر من المصلحين ، ٤٧ كلمة أخيرة . . . ص ١٧ - ٤٩

الفصل الثاني

العقل والإيمان في فلسفة اليونان والرومان

٥٠ تمهيد ، ٥٠ رأى سانت هيلير في أسباب الاصلالة في التراث اليوناني ، ٥٢ ، رأى لفتنجستون في أسباب حرية النظر عندهم ، ٥٧ دين اليونان وعلاقته بالنظر العقلي ، ٥٩ رواد الفكر الجديد في اليونان ، ٦٥ مصرع سقراط وأسبابه ٦٩ موقف الرومان من حرية النظر ، ٧٤ كلمة أخيرة . . . ص ٥٠ - ٧٥

الفصل الثالث

موقف الأكليروس من شريعة العقل في العصور الوسطى

٧٦ تمديد ، ٧٧ التقاليد الممهدة لاضطهاد العقل ، ٨٣ مسألة العقل للكنيسة
في العصر المظلم ، ٨٧ بدء النزاع بين العقل والسلطة ، ٨٩ أوربا بين الطابع
الأفلاطوني والأرسطاطاليسي ، ٩٢ موقف الأكليروس اليهودي من أرسطو ،
٩٣ موقف الأكليروس المسيحي من أرسطو وشراحه من المسلمين ، ١٠١ كلمة
أخيرة ص ٧٦ - ١٠٢

الفصل الرابع

موقف الإسلام وفقهائه من التفكير الفلسفي

١٠٣ تمديد ، ١٠٣ موقف فلاسفة الإسلام من الدين ، ١٠٤ موقف رجال الدين
من العلوم الفلسفية ، ١٠٩ عداة الغزالي للفلسفة وأثره ، ١١٣ موقف ابن رشد من
الدين والفلسفة ، ١١٥ محنة ابن رشد ، ١١٦ منشور الخليفة بتحريم الاشتغال
بالفلسفة ، ١٢٠ فتوى ابن الصلاح بتحريم الاشتغال بالفلسفة والمنطق ، ١٢٢ أثر
فتوى ابن الصلاح فيمن تلاه ، ١٢٢ عداة ابن تيمية وابن قيم الجوزية للفلسفة ،
١٢٤ قيام الفلسفة في الإسلام رغم حملات خصومها المتزمتين ، ١٢٦ موقف
القرآن من حرية النظر العقلي ، ١٣٢ تفسير الاضطهاد في الإسلام ، ١٣٤ بين
المسيحية والإسلام ص ١٠٣ - ١٣٦

الفصل الخامس

النزاع بين اللاهوت والفكر الجديد في عصر النهضة

١٣٧ التنافر بين روح النهضة وروح العصر الوسيط ، ١٣٩ مظاهر النضج
في عصر النهضة ، ١٤٢ موقف العقل الجديد من المسيحية ، ١٤٤ بواعث النزاع
في هذا العصر ، ١٤٦ مقاومة الروح العلي الجديد في العالم الكاثوليكي ، ١٥١ موقف
العالم البروتستانتي من الروح العلي الجديد ، ١٥٤ مقاومة الأكليروس للنشأة علم
الفلك الحديث (نظرية دوران الأرض) ، ١٥٩ موقف الكنيسة من عمران الكرة
الأرضية ، فهرست الكتب المحرمة على المؤمنين ، ١٦٤ كلمة أخيرة

ص ١٣٧ - ١٦٤

الفصل السادس

نمو النزعة العقلية في العالم الكاثوليكي

في القرنين السابع عشر والثامن عشر

١٦٥ إمكان الجمع بين التفلسف والدين ، ١٦٧ ، سلطان العقل عند ديكرت ،
١٦٩ سلطان الوحي في فلسفته ، ١٧١ غلبة الوحي على العقل ، ١٧٢ علاقة ديكرت
برجال اللاهوت ، ١٧٣ موقف رجال اللاهوت لإزاهه ، ١٧٧ أثر ديكرت في العصر
الذي تلاه ، ١٧٨ حملة « بايل ، المتنعة على المسيحية ، ١٨٠ تطور اتجاه الفلسفة
في القرن الثامن عشر ، ١٨١ حملات فولتير السافرة على المسيحية ورجالها ، ١٨٣
اضطهاد روسو من أجل حملاته على الدين ، ١٨٥ مقاومة الماديين ورجال الموسوعة
للمسيحية ، ١٨٨ تعقيب ، ١٨٨ سبينوزا بين التفلسف والدين ، ١٩١ عداء
السلطات الدينية له ، ١٩٣ جاليليو ونظرية دوران الأرض ، ١٩٥ محنة
جاليليو ومراحل اضطهاده ، ١٩٩ اضطهاد أتباعه بعد مماته ، ٢٠٠ تقبقر
السلطات الدينية بعد انتصار النظرية الجديدة ١٦٥ — ٢٠١

الفصل السابع

مظاهر النزاع في إنجلترا البروتستانتية

في القرنين السابع عشر والثامن عشر

٢٠٢ مظاهر النزاع في هذا العصر ، ٢٠٤ مقاومة باكون للسلطة ، ٢٠٦ الوحي
والعقل عند چون لوك ، ٢٠٨ حرية الاعتقاد بين هوبز ولوك ، ٢٠٩ اضطهاد
نيوتن ، ٢١٠ المذهب الطبيعي الإلهي ومقاومته للدين التقاليدى ، ٢١٢ مواضع
الخلافا بين الطبيعيين ورجال اللاهوت ، ٢١٤ مناقشة المعجزات والخوارق ،
٢١٦ نقد الوحي المسيحي عند تندال ، ٢١٨ الخطر في قيام المسيحية على العقل عند
ددويل ، ٢١٩ هجوم شافتسبرى على الكتاب المقدس ، ٢٢٠ تداعى الدفاع بالعقل
عن المسيحية ، ٢٢٢ موقف هيوم من وجود الله وخوارق العادات ، ٢٢٤ حملة
جيبون على المسيحية ، ٢٢٥ دفاع باليه عن المسيحية ، ٢٢٦ مقاومة حملات بين
على المسيحية ، ٢٢٩ كلة أخيرة ٢٠٢ — ٢٢٩

الفصل الثامن

النزاع بين اللاهوت والعلم في القرن الغابر

٢٣٠. تحول حديثنا من الفلسفة إلى العلم ، ٢٣٢ عدة القرن في نزاعه ، ٢٣٣
انتصار العلم على اللاهوت في خلق الكون ، ٢٣٥ العلم الحديث يهدم الرواية الدينية
في نشأة الخلق ، ٢٣٦ ثبات الأنواع وحملات العلم الحديث لتقويضه ، ٢٣٨ نظرية
التطور عند والاس ودارون ، ٢٣٩ الحملات على دارون في شتى بقاع العالم
المسيحي ، ٢٤٥ انتصار النظرية الجديدة حتى في المعسكرات الدينية ، ٢٤٧ موقف
العالم المسيحي من دارون بعد مماته ، ٢٥٠ تأييد رجال اللاهوت لحرية التفكير ،
٢٥٢ فزع السلطات الدينية ومظاهره ، ٢٥٤ الاضطهاد عند الكاثوليك
والبروتستانت ، ٢٥٦ كلمة أخيرة ص ٢٣٠ - ٢٥٧
تصويب لأهم الأخطاء ص ٢٥٨

كشاف

- بأهم الأعلام الواردة في الكتاب
. فهرس الكتاب
. كتب المؤلف

ما نُشر من كتب المؤلف

(أ) السلسلة الفلسفية والروماتية : وقد قامت بنشرها مكتبة الآداب

- ١ - قصة النزاع بين الدين والفلسفة : صدر في يناير ١٩٤٧
- ٢ - التصوف في مصر إبان العصر العثماني صدر في أغسطس ١٩٤٦
- ٣ - علم الغيب في العالم القديم « Divination » : مترجم عن شيشرون
Cicero مع الشرح والتعليق - صدر في فبراير ١٩٤٦
- ٤ - الأحلام - دراسة مقارنة : صدر في آخر سبتمبر ١٩٤٥

(ب) كتب ظهرت في سلسل أخرى :

- ٥ - التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام : قامت بنشره الجمعية الفلسفية
المصرية . و صدر في سلسلة مؤلفاتها في أكتوبر ١٩٤٥
- ٦ - الشعراى إمام التصوف فى عصره : قامت بنشره لجنة ترجمة دائرة
المعارف الإسلامية و صدر فى سلسلة أعلام الإسلام فى أغسطس ١٩٤٥
- ٧ - قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة : قامت بنشره لجنة الجامعيين لنشر
العلم و صدر فى نوفمبر ١٩٣٦ ، ثم أعادت مكتبة الآداب طبعه
فى فبراير ١٩٤٦
- ٨ - تراث الإسلام The Legacy of Islam : قامت بترجمته ونشره لجنة
الجامعيين لنشر العلم فى أكتوبر ١٩٣٦ (وللؤلف فيه ترجمة الجزء الذى
وضعه ا . جيوم عن « الفلسفة والإلهيات » مع شرحه والتعليق عليه .
- ٩ - قصة الاضطهاد الدينى : تقوم بنشره الآن لجنة الكتاب العربى .
- ١٠ - الكتاب التالى : الإستمولوجيا أو نظرية المعرفة .

في الطريق إلى المطبعة

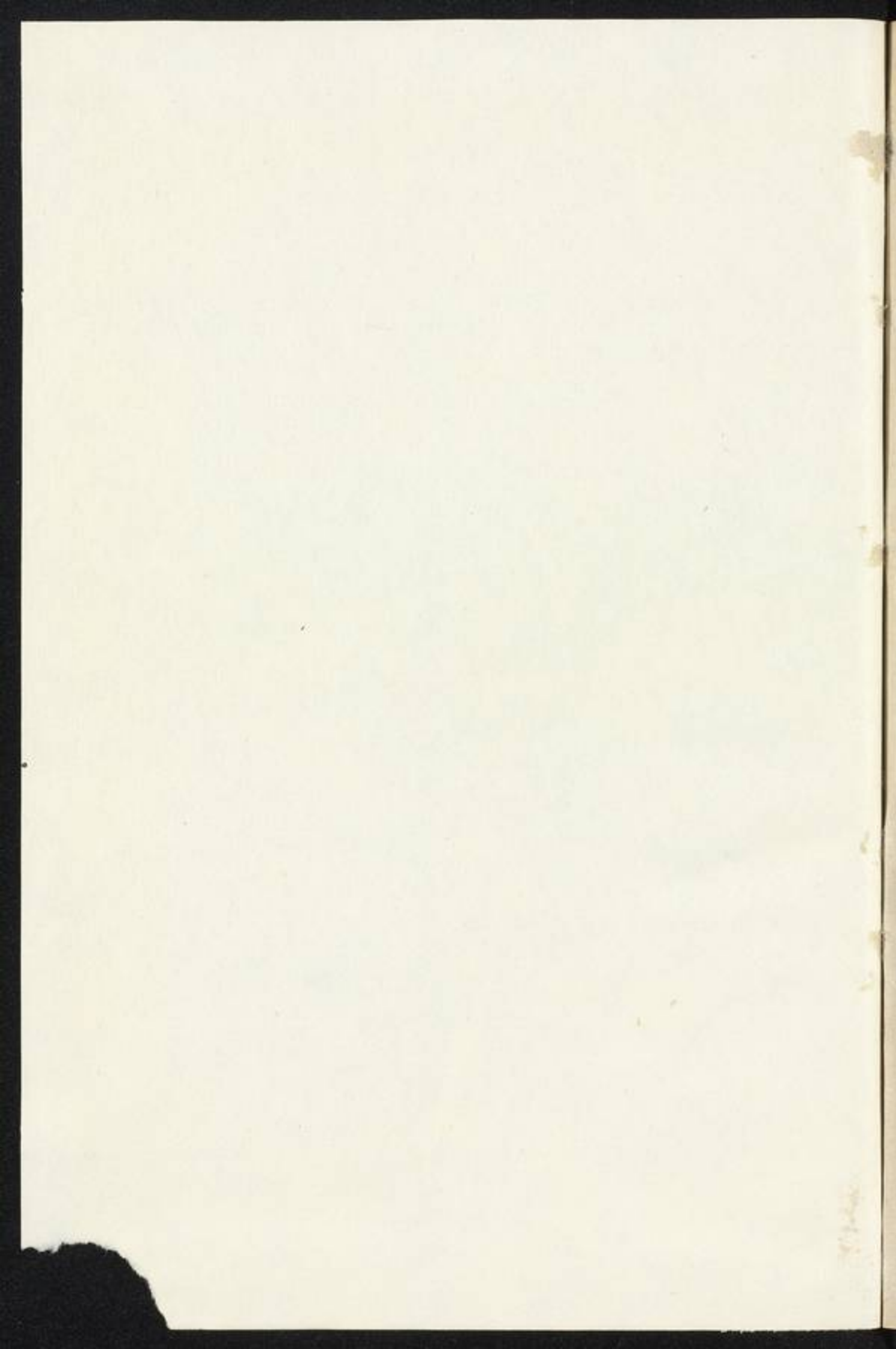
الايستيمولوجيا

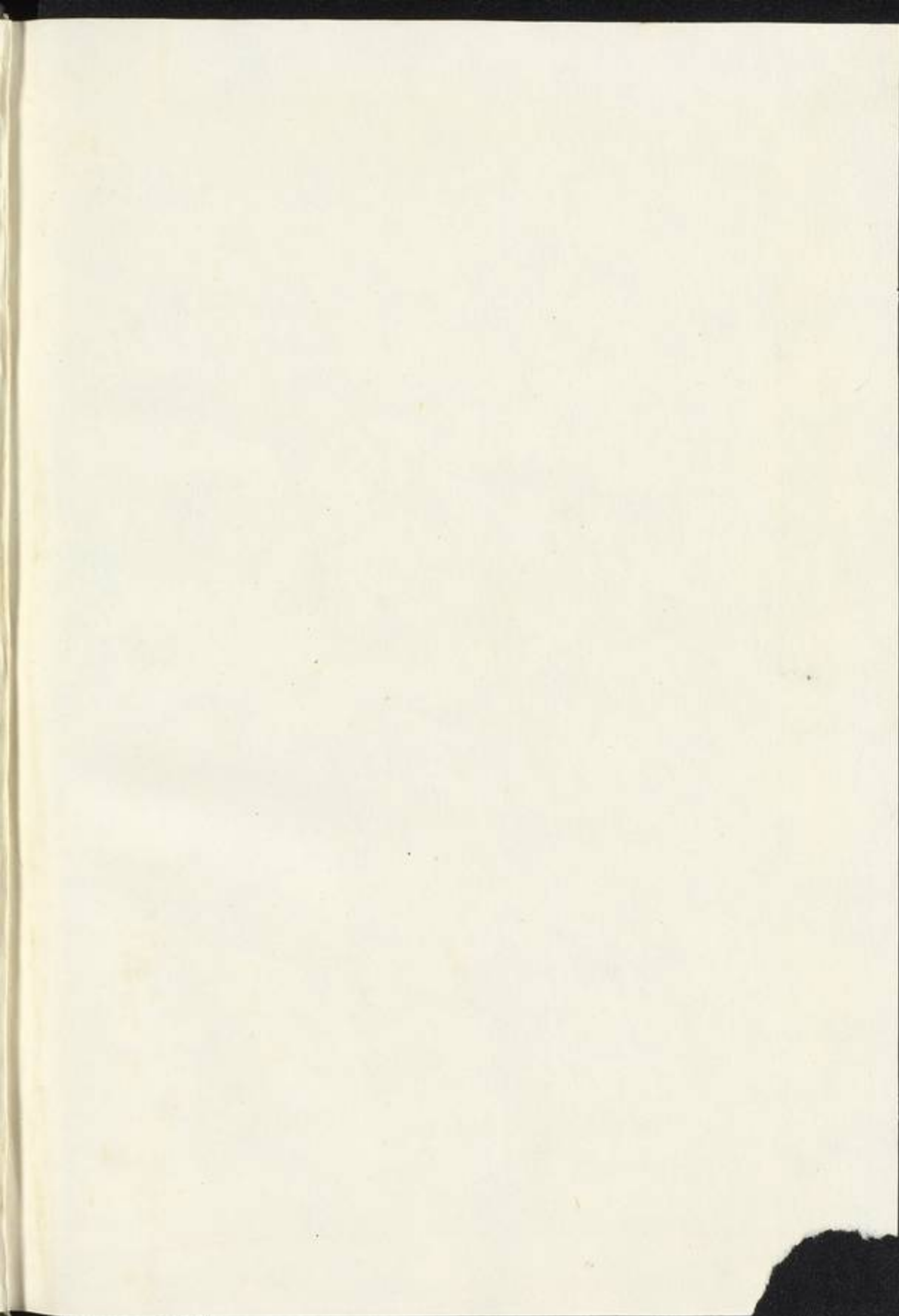
أو

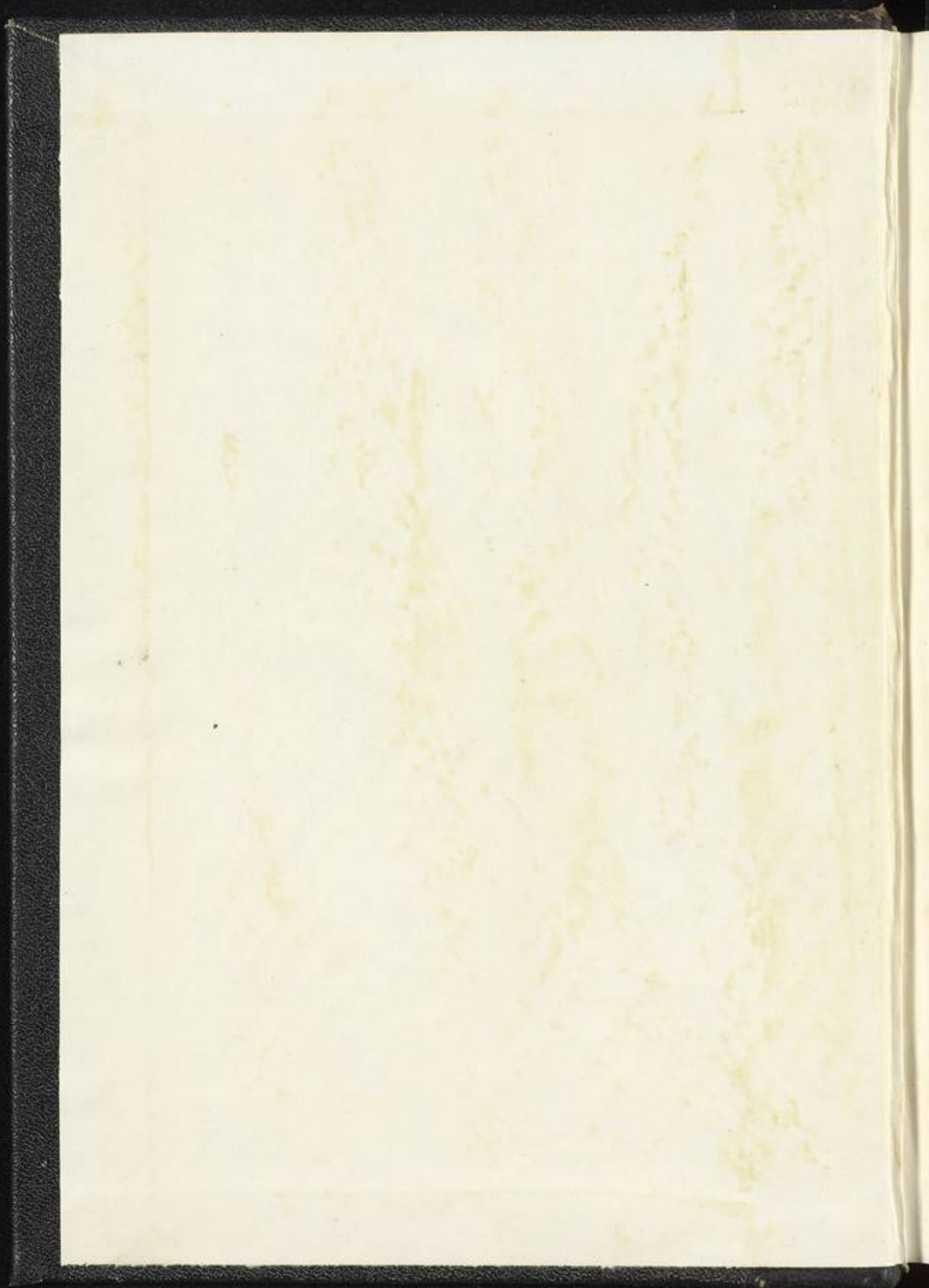
نظرية المعرفة

سيرة المذاهب الفلسفية التي قبلت في طبيعة المعرفة الانسانية-
وعرضت لدراسة مصادرها ومناهجها ، والبحث في
إمكان قيامها أو الشك في وجودها

C2C0







BL

51

T23